محمد عباس

مثقفون" في ركاب الثورة

في كواليس التاريخ (2)

دار هومه

© دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع – الجزائر
صنف : 4/173
– الإيداع القانوني : 1004/2004
– ردمك : 978-9961-66-782-8
يمنع الاقتباس والترجمة والتصوير إلا بإذن خاص من الناشر
www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

إهداء

إلى شهداء القلم الذين سقط بعضهم ضحية لسوء تفاهم، كثيرا مايحدث – لسوء الحظ – في مواجهة المصير بين جبروت الاستعمار وأرادة التحرير.

محتوى الكتاب

تقديم 11

الفصل الأول: بن بلة... وجيش الحدود 17

1– الطيب الثعالبي (سي علال) 19

– جدل بالناظور.. بين عبان وبوصوف 21

– بن بلة فضل جيش الحدود.. 29

2–د. زهير أحدادن 36

– التحقت بالثورة بمناسبة محاضرة لفانون 37

– وعصف بنا الذين جاءت بهم الريح! 44

3– د. تركي رابح عمامرة 54

• عندما كان بومدين لوحة للبؤس! 55

• بومدين: أماجستير.. وليس بين أعضاء مجلس الثورة من يحمل بكالوريا؟! 62

4– الطاهر بن عائشة 69

– بين الوطنية والشيوعية 70

– شاهد على.. نكبة السوافة.. 77

الفصل الثاني: تحرير التاريخ 85

5– محمد الشريف الساحلي 87

– حرية.. المعرفة 89

– حرية.. الوطن 95

– تحرير.. التاريخ 100

6– محمد حربي 105
– في ركاب.. المركزيين 106
– مثقف.. في دور مخربش.. 112
7– بيار شولي 118
– التزام.. استثنائي 119
– رقباء قادرون.. على تأسيس جمهورية! 125
8– الطاهر قايد 126
– عندما أمر عبان.. بتصفية السعدي ياسف! 133
الفصل الثالث: معجزة.. الثورة 143
9– الزهرة ضريف بيطاط 144
– محظوظة فرومنتان التي أصبحت فدائية.. 145
– عندما كان الاستقلال.. يعني الحرية 155
10– بوعلام أو صديق 165
– الحرب.. على الجبهة النفسية 166
11– علي لونيسي 177
– «رهينة».. بوجدة! 178
– بوادر فشل المشروع الثوري 185
12– مصطفى بن عمار 191
– ملحمة.. شباب عيد الفصح 192
13– عبد الرزاق بوحارة 201
– أجوبة محتشمة.. لأسئلة جريئة! 202

ملحق:

– الثائر الذي.. لم يكن في الموعد! 209
14– أحمد حدانو (الكابا) 210
– تهريب آيت أحمد– بن بلة– مهساس 211
– الثوار يبدأون أقلية وينتهون أقلية.. 218
– شرارة 11 ديسمبر 1960 225
15– أحمد الدوّم 231
– بوضياف – عبان: خلاف حول اتحادية فرنسا 232
– لماذا تغيب الوفد الخارجي عن مؤتمر الصومام؟ 240
16– عيسى كشيدة 247
– الشاهد.. الوفي 248
– الثائر.. الذي لم يكن في الموعد! 254

«الثوار.. أقلية يبدأون.. وكذلك ينتهون..» .

(مراد ديدوش)

تقـديـم:

يضم الكتاب السادس(*) في سلسلة الشهادات التاريخية عينة جديدة من المناضلين والثوار، أكثر عناصرها من رجال الثقافة وطلبة الجامعة والثانويات، أو من قطاع التعليم عموما.

ويقدم كل شاهد من هذه العينة، أضافة تساعد الباحثين والمؤرخين على الغوص في أعماق الأحداث وفهم حقيقتها وأبعادها.

وقد قسمنا الكتاب الذي يحتوي على 16 شاهدا إلى ثلاثة فصول وملحق.

● في الفصل الأول نجد الطيب الثعالبي الذي يقدم لنا معلومات جديدة عن قادة بارزين عرفهم من أمثال زيغود وعبان وبن مهيدي وبوصوف.. ويكشف لنا عن جوانب خفية من اجتماع " المجلس الوطني للثورة الجزائرية" (أول دورة) بالقاهرة في أوت 1957.

كما يقفز بنا إلى مابعد الاستقلال ليطلعنا على بعض معاناة أنصار بوضياف، في تلك الفتنة التي تركت جروحا عميقة في الجزائر الجديدة.

- ونعيش مع الدكتور زهير أحدّادَن بعض خبايا العمل النضالي في حركة الانتصار، عندما كانت " الخلية عين الحزب وأذنه"..

ونعرف من شهادته مصاعب التجنيد في الوسط الطلابي غداة اندلاع ثورة نوفمبر 1954، فضلا عن أجواء العمل في صحيفة " المقاومة الجزائرية" بتيطوان، وبداية بروز الظاهرة البيروقراطية في أجهزة الحكومة المؤقتة..

- ومع الدكتور تركي رابح عمامرة نكتشف مظهرا آخر من مظاهر الكفاح أبان الاحتلال:

الكفاح في سبيل التعلم. فقد كان محظورا عليه أن يعرف تاريخ الجزائر، فكان المعلم يتحايل على ذلك بتدريس هذه المادة تحت عنوان: "نواقض الوضوء"!

ونكتشف مع هذا الشاهد أيضا معاناة الطلبة الجزائريين بالقاهرة قبيل ثورة التحرير.

عندما كان الطالب محمد بوخروبة (هواري بومدين)" لوحة بليغة التعبير عن بؤسهم"..

– ويقدم لنا الكاتب الصحفي الطاهر بن عائشة، نموذجا للمثقف اليساري الذي اكتشف الوطنية على يد ضابط نازي بتونس أثناء الحرب العالمية الثانية! واستكمل ذلك باكتشاف " البعد الاجتماعي للثورة"، من خلال الاحتكاك بالحركة الشيوعية في الجزائر.

وفضلا عن ذلك يقدم لنا هذا الشاهد روايته، حول نكبة عبد الحي وأنصاره بتونس في أواخر 1956.

● وفي الفصل الثاني نقف مع الكاتب المؤرخ محمد الشريف السّاحلي، على معاناة طالب متفوق في المدرسة الاستعمارية.. ينهره أستاذه عن ممارسة الكتابة لأن هذه الهواية والحرفة لاتنفع أمثاله من "الأهالي"! ولايفيده تفوقه في الحصول على منحة لمواصلة دراسته الجامعية..

ونتعلم من هذا المناضل الفيلسوف كيف تتكامل حرية المعرفة مع حرية الوطن وأخيرا حرية الفكر.. كما نعرف منه "فوائد القدوة في فن القيادة".

– ويقدم لنا الكاتب المؤرخ محمد حربي– من خلال الجزء الأول من مذكراته– صورة أخرى عن التزام المثقف. هذا الالتزام الواعي الذي لايخلو من تردد، نتيجة التجاذب والتنافر في نفس الوقت، بين الوطنية التحررية من جهة والحركة الشيوعية العالمية من جهة ثانية.

كما نتعرف بالمناسبة عن حربي المثقف والأنسان الذي كثيرا ماوجد نفسه في دور " مخربش" – حسب قوله – بدافع الانضباط النضالي وخدمة الثورة.

– ونكتشف مع الدكتور بيار شولي ظاهرة فريدة من الالتزام: فرنسي مسيحي يدرك عدالة قضية، فينضم إلى أصحابها بكل قناعة. لقد اختار هذا الطبيب الأنساني مسالك الحق الوعرة عن طيب خاطر بعد أن دخل جحيم الأهالي بحي "بيراردي" القصديري بحسين داي.

ومن جهة أخرى قام الدكتور شولي– رفقة زوجته كلودين– أثناء الثورة بأدوار هامة، كنقل الثوار وإيوائهم، والسهر على معالجة الجرحى، فضلا عن المساهمة في الاتصالات ثم في إعلام الثورة بعد طرده واستقراره بتونس.

– ومع المناضل الطاهر قايد نكتشف بعض أطوار "الأزمة البربرية" عام 1949، كما نتعرف على موقف الطلبة الوطنيين– بجامعة الجزائر– في صائفة 1954، علما أنه كان ممثلهم في مؤتمر المركزيين (منتصف أوت).

ويذكرنا هذا الشاهد بحادثة مجهولة: أن رمضان عبان حكم بالإعدام على ياسف السعدي، لكنه تراجع بعد شفاعة الشهيد أرزقي بوزرينة له!..

● وفي الفصل الثالث والأخير نكتشف مع السيدة الزهرة ضريف بيطاط، أن "الحظوة" لم تكن كافية للذوبان في المجتمع الاستيطاني! وأن

إرهاب الكولون سبق العمل الفدائي في العاصمة.. وتسلط الشاهدة أضواء جديدة على: مسيرة "7 سنين بركات!" الشهيرة، وبدايات مشاركة المرأة في الحياة السياسية بعد الاستقلال.

– ويعرفنا بوعلام أوصديق على أحد مظاهر الحرب الخفية: الحرب النفسية التي وقف فيها مجاهدو الولاية الرابعة الند للند مع " المكتب الخامس" رغم تباين الإمكانيات واختلاف الأساليب.

وينقل لنا هذا الشاهد، وجهة نظرا مقاوم فيتنامي في "معجزة" الثورة الجزائرية...

– ونعيش مع المجاهد علي لونيسي بعض المفاجآت التي تتخلل مسيرة المقاتل مثل: ابتهاج طالب سابق في كلية الحقوق برتبة "عريف شطبة" في وحدة كومندو! وكيف خرج إلى المغرب لتولي مهمة محددة، فوجد نفسه ببرلين يتابع دارسته بكلية الاقتصاد!

ونعيش مع هذا الشاهد أيضا أرهاصات التنازع بين ذهنية الثوار وعقلية الدولة.

– ونعيش مع مصطفى بن عمار مفاجأة طالب المدينة الذي يتكيف بسهولة نسبية مع حياة الجبال القاسية، ويؤدي مهامه العسكرية في مستوى أداء مهامه السياسية. ويقدم لنا هذا الشاهد صورة بليغة عن الضياع والحيرة اللذين عاشتهما كثير من إطارات الثورة التحريرية عشية وغداة الاستقلال، بسبب " أزمة السباق على السلطة" في صائفة 1962.

– نفس المفاجأة نعيشها مع عبد الرزاق بوحارة، مضافا إليها محاولة جريئة لفهم جوانب من الصراعات الداخلية أبان الثورة التحريرية. وأن

كانت " الرقابة الذاتية" حالت دون هذا المجاهد والمضي في عمق هذه الصراعات!

● وفي الملحق يحدثنا أحمد حدّانوا (الكابا)عن مغامرة سرقة الأسلحة من مخازن الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، وعن دوره في تهريب قادة بارزين إلى فرنسا (آيت أحمد، بن بلة، مهساس) عامي 52 و1953. ونكشف مع هذا الشاهد أيضا بعض الوقائع التي مهّدت لمظاهرات 1960 ببلكور (بلوزداد) خاصة.

– ويطلعنا أحمد الدوم على بدايات اتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، ويقدم لنا في شهادته عناصر جواب على سؤال ظل لمدة طويلة يؤرق الباحثين: لماذا تغيب الوفد الخارجي عن مؤتمر الصومام.

– ويقدم لنا عيسى كشيدة شهادة مناضل، لازم الثوار الأوائل وفي مقدمتهم محمد بوضياف. وقد استكمل ذلك بشهادة عبد الحميد مهري حول علاقته بالثوار التي تعود إلى ربيع 1952، وهي شهادة تسلط أضواء جديدة على عملية التحضير للثورة المسلحة.

فالكتاب إذا في مجمله محصلة 16 شهادة جديدة، غنية بالمعلومات غير المعروفة على نطاق واسع، متكاملة فيما بينها بحيث تسلط أضواء كاشفة على مسيرة الثورة التحريرية بمختلف أطوارها من 1945 إلى 1962.

● صدر إلى حد الآن: ثوار عظماء، رواد الوطنية، نداء الحق، فرسان الحرية، بن بلة– عبان (تحت الطبع).

الجزائر في 28 نوفمبر 2003

الفصل الأول: بن بلة.. وجيش الحدود

- الطيب الثعالبي
- زهير أحدادن
- تركي رابح عمامرة
- الطاهر بن عائشة

• الطيب الثعالبي

– ولد الطيب الثعالبي بدوار الخرفان دائرة الخروب (سكيكدة) في أول أوت 1921، حيث تعلم مبادئ القراءة والكتاب وحفظ القرآن الكريم. وفي أسمندو التي ترحلت إليها عائلته بعد ذلك، التحق بالمدرسة الفرنسية التي كان من بين زملائه فيها الشهيد يوسف زيغود.

–اكتمل وعيه الوطني في غضون الحرب العالمية الثانية، وبعد الاطلاع على بيان الشعب الجزائري الصادر في مارس 1943، أخذ يجاهر بمواقفه، مما أدى إلى فصله من عمله بأسمندو ثم نفيه إلى سيدي عيش (بجاية).

– أسس أول فوج للكشافة بأسمندو وفي سنة 1945 ساهم مع كل من زيغود والعربي دماغ العتروس في تكوين أول خلية لحزب الشعب الجزائري (المحظور) في هذه البلدية.

– اعتقل عقب حوادث 8 مايو من نفس السنة، وبعد الافراج عنه التحق بالتدريس في مدرسة جمعية العلماء بشلغوم العيد.

وهناك واصل نضاله رفقة اثنين من كبار المناضلين وهما: حسين بالميلي ورمضان عبان.

– عند اندلاع ثورة فاتح نوفمبر 1954 كان يدرس بمدرسة حزب الشعب، بمغنية حيث تعرف على كل من بوصوف وبن عبد المالك. وقد كلفه ابن مهيدي قائد المنطقة الخامسة يومئذ بضمان الاتصال بالعاصمة، مع بيطاط أولا ثم مع عبان بعد اعتقاله.

– عين في مؤتمر الصومام عضوا إضافيا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وكان قد ساهم قبل ذلك في إرساء قواعد الجبهة بالمغرب. وهي المهمة التي واصلها بتونس إلى غاية استقلال الجزائر.

– وقف في أزمة السلطة إلى جانب الحكومة المؤقتة، وقد كلفه هذا الموقف البدء من نقطة الصفر غداة الاستقلال: معلم في سلك التربية.

– سجن بعد ذلك بتهمة المشاركة في حزب الثورة الاشتراكية الذي أسسه بوضياف في خريف 1962...

ظهر من جديد على الساحة غداة اغتيال الرئيس بوضياف، حين عين عضوا في لجنة التحقيق.. وقد عين بعد ذلك عضوا في مرصد حقوق الإنسان.

1– جدل بالناظور.. بين عبان وبوصوف

مسيرة المناضل الطيب الثعالبي(*) متميزة بمحطاتها التي تمكن خلالها من العمل مع قادة بارزين، أمثال زيغود وعبان وبوضياف وبن مهيدي وكريم وبوصوف.. هذه المسيرة بدأت سنة 1943 بأسمندو (زيغود يوسف حاليا) في ضواحي قسنطينة، رفقة مناضلين كبار أمثال زيغود يوسف، والشيخ الحسين بالميلي والعربي دماغ العتروس.. فقد التحق في تلك السنة بحزب الشعب الجزائري بعد فترة تدريب ضرورية تقريبا بمدرسة الكشافة الإسلامية.

ومالبث المناضل الشاب أن اصطدم بحاكم القرية.. وكان فرنسيا متجبرا يلزم السكان باظهار علامات الولاء والخضوع لمقدمه أو مروره! فقد كان يدعو مواطنيه إلي التمرد على هذه العادة السيئة، وبلغ الحاكم المتعجرف ذلك فأخذ يكيد له إلى أن تمكن من نفيه سنة كاملة إلى سيدي عيش (بجاية).

وقبيل حوادث 8 مايو 1945 عاد من منفاه، وشارك رفقة زيغود في تنظيم مظاهرات بالقرية رفع فيها العلم الجزائري. رغم أن المظاهرة لم تسفر عن أي صدام، فقد أصر الحاكم على استقدام وحدة من قوات اللفيف الأجنبي ومن السينغال لأداء استعراض ترهيبي، تلاه غلق مقر الكشافة واعتقال نشطاء القرية. وقد زج بسي الطيب ورفاقه في البداية بسجن الكدية (قسنطينة) ثم بالحراش، قبل أن يستقر بهم المقام في جنين بورزق (ضواحي عين الصفراء).

وفي خريف 1946 أفرج عن محدثنا، فعاد إلى اسمندو ليستأنف مسيرته النضالية. وفي بداية الموسم الدراسي 47/76 عين للتعليم بمدرسة جمعية العلماء في شلغوم العيد (ميلة) وكان قد تعرف بسجن الحراش على بعض شيوخ الجمعية لاسيما محمد الغسيري وعبد المجيد حيرش فساعداه في ذلك.

وفي شلغوم العيد وجد رفيقه الحسين بن الميلي المعلم بنفس المدرسة، ومالبث أن انضم إليهما رمضان عبان وكان موظفا بالبلدية، وقد قام الثلاثة بعمل سياسي مكثف كان من نتائجه حسب سي الطيب: قلب الأوضاع بالقرية لصالح حزب الشعب حركة الانتصار، بعد أن كانت في صالح حزب البيان إلى حد كبير. ومن مظاهر ذلك أن فرحات عباس كان عندما يأتي القرية، يتردد على احدى المقاهي لاختبار مدى شعبيته فكان من قبل يستقبل بحفاوة وترحاب حار. وعاد ذات يوم بعد أن ترك نشاط سي الطيب ورفاقه تأثيره فقوبل بصمت بليغ، أصفر له وجهه فارتد على أعقابه مكسوفا!

ويفهم من حديث سي الطيب عن عبان أنه كان متعاطفا مع حزب الشعب قبل تعيينه في بلدية شلغوم العيد، وأنه صارح بذلك الشيخ بالميلي في أول اتصال . وقد خشي الشيخ في البداية أن يكون من العناصر التي تحاول أن تندس في صفوف الحركة ويبدو أن عبان لاحظ بعض التحفظ عليه، فأخذ يطمئن رفاقه الجدد بالحديث عن أصدقائه الوطنيين بثانوية البليدة، من أمثال الدكتور الأمين الدباغين والصيدلي بن يوسف بن خدة.. كما كان يحدثهم عن علي العميش الذي حضر له مهرجانا ضخما بمنطقة القبائل.. ويقول سي الطيب في هذا الصدد أن عبان كان يعتب على هذا الأخير نزعته البربرية وهو مصطلح يسمع به أول مرة..وما لبث نشاط خلية شلغوم العيد (شاتودان سابقا) ان ازعج

أنصار حزب البيان، فاشتكوا إلى جمعية العلماء أمر هذين المعلمين المتمردين: الميلي والثعالبي! ويقول محدثنا في هذا الصدد أن الجمعية قررت نقله إلى مدرستها بمغنية (تلمسان) فرفض ذلك.

وأبلغ صديقه دماغ العتروس مدير مدرسة الرشاد سيد علي عبد الحميد ما حدث له فاستدعاه للتدريس بالعاصمة.

وإلى جانب التدريس، كان سي الطيب مرشدا للكشافة ويقدم دروسا ليلية للكبار.. تركز كثيرا على التوجيه التاريخي اعتمادا على السيرة النبوية من جهة، وعلى تاريخ المقاومة بالجزائر من جهة ثانية.. ومن الكتب التي كان يستعين بها في هذا المجال رسالة بوغرطة لمحمد الشريف الساحلي.

وأثناء حملة انتخاب المجلس الجزائري الأول في ربيع 1948 انتدب محدثنا لتنشيط الحملة بعمالة وهران رفقة خليفة بن عمار ومحمد شرشالي وعيسى العبدلي.. وقد ألقى عليهم القبض في البيض وجيء بهم إلى معسكر لمحاكمتهم، وكان نصيب سي الطيب سنتين حبسا وعشر سنوات منعا من الاقامة بالعاصمة خاصة.

من طرائف هذه المحاكمة أن خليفة بن عمار كان يلقب صاحبنا بـ الطيب الهجام فظن قاضي التحقيق أنه شخص آخر غير الطيب الثعالبي. وقدم هذا الشخص الوهمي للمحاكمة أيضا وصدر عليه الحكم غيابيا بعامين من السجن!

من معسكر نقل المحكوم عليهم إلى سركاجي حيث وجدوا معظم أعضاء قيادة الحزب من أمثال لحول والعمراني ولعجوزي ويزيد، واثرعملية تشويش واحتجاج نقل 11منهم إلى البرواقية.. قبل أن يستقروا بسجن لامبيز (باتنة).

وفي لامبير وجد سي الطيب محمدي السعيد وسط بعض الفرنسيين من أنصار حكومة فيشي فلفت انتباهه ماكان عليه بينهم من وقار وكرامة، وحرص على أداء الصلاة دونما حرج.

كما وجد بعض دعاة النزعة البربرية يتقدمهم واعلي بناني والسعيد أوبوزار و كان هؤلاء يومئذ يحاربون العروبة بهزيمة فلسطين والاسلام بالماركسية حسب قوله..

هذا الاختلاف لم يمنع محدثنا وبعض رفاقه من عقد تحالف ظرفي مع دعاة البربرية، ضد لحول وبعض العناصر القيادية التي تخلت عن مسؤوليتها داخل السجن، ولم تعد تفكر في غير الخروج بأسرع مايمكن!

وقد اضطر سي الطيب رفقة بن عمار لملء هذا الفراغ! وعندما أفرج عنه والتقى بلحول في العاصمة عتب عليه تحالفه مع عناصر الحركة البربرية ضده وأراه بالمناسبة منشورا يحمل توقيع حركة التجديد البربرية.

استأنف محدثنا نشاطه التربوي والنضالي بالبليدة، في مدرسة الحزب التي يشرف عليها الشيخ محمد محفوظي، لأنه كان ممنوعا من الإقامة بالعاصمة وبعض المدن الكبرى كما سبقت الاشارة.

وبعد قرابة العامين عين بمغنية التي كانت يومئذ من قلاع الحركة الوطنية الثورية حسب الشاهد. إلى جانب قلاع أخرى مثل سوق أهراس وسكيكدة والعاصمة.

وفي مغنية بدأ يلمس بوادر أزمة الحزب التي انتهت بتصدعه في صائفة 1954. فقد كان رؤساء الدوائر يترددون على المدرسة فكان يتبادل معهم المعلومات والآراء حول وضعية الحركة الاستقلالية وأفاقها.. ومن هؤلاء بوصوف وبن عبد المالك وغيرهم.. من الساخطين

على سياسة القيادة و« اهمالها العناصر الثورية من أعضاء المنظمة الخاصة سابقا..» وكان سي الطيب يشاطرهم هذا السخط، من زاوية المأزق الذي انتهت إليه المشاركة في لعبة الانتخابات، وانعكاساتها السلبية على المناضلين والوضعية النظامية للحزب بصفة عامة. وقد شارك في مؤتمر حركة الانتصار المنعقد بالعاصمة في أبريل 1953، وجلس في مربع الناقمين الذين عبر عنهم بن عبد المالك الذي وجه عريضة اتهام حقيقية للقيادة. وقد أعجب محدثنا بشجاعة هذا الأخير الأدبية وصفق له كثيرا..

وعندما خرجت الأزمة إلى جمهور المناضلين في ربيع 1954، وجد المعلم المناضل نفسه متعاطفا مع «الحياديين».

وكان المناضل صافي بوديسة يرسل إليه نشرية الباتريوت الناطقة بلسانهم.

وفي جوان من نفس السنة حضر اجتماع اللجنة المركزية وكان يقيم عند المناضل عيسى العبدلي الذي انحاز إلى مصالي، فأخبره بأن مولاي مرباح يرشحه لمنصب قيادي هام في مؤتمر هونو بلجيكا، فأفهمه بأنه مايزال على اتصال بأطراف الأزمة ولم يحدد موقفه بعد..

لم يحضر سي الطيب مؤتمر المصاليين (منتصف يوليو)، لكنه حضر مؤتمر المركزيين بعده. ويقول في هذا الصدد أنه وعلي منجلي وجها انتقادات لاذعة للحول ورفاقه، وحملاهم مسؤولية الانشقاق أسوة بالمصاليين.. وطلبا إليهم أن يتركوا المكان لغيرهم ! ورد عليهما لحول بالمثل الشعبي الشهير عندما يسقط الثور يكثر المتسارعون إليه بالسكاكين! .

غير أن المشاركة في هذا المؤتمر جعلته يجر وراءه تهمة الانتماء إلى المركزيين التي جعلت المصاليين وهم الأغلبية الساحقة بالناحية يناصبونه العداء، كما جعلت الثوار يتحفظون عليه في البداية.

ومع ذلك اتصل به رواد الثورة بالناحية وكلفوه بالمشاركة في مهمة التوضيح والتعريف بجبهة التحرير الوطني صاحبة المبادرة التاريخية في فاتح نوفمبر 1954، كما كلف بالاتصال بالدكتور النقاش بوهران للحصول على بعض الأدوية خاصة.

وبعد جهد جهيد تمكن من الاتصال ببن مهيدي قائد المنطقة الخامسة وكان يعمل مع بوضياف جنبا إلى جنب، فكلفاه بمهمة عقد أول اتصال بالمنطقة الرابعة وقائدها آنذاك رابح بيطاط. وفي هذا الاطار جاء إلى العاصمة وتمكن من الاتصال بالمناضل القديم محمد بن مقدم الذي مكنه من مقابلة أوعمران ثم عبان بواسطته. وهكذا أصبح سي الطيب همزة وصل بين العاصمة والمنطقة الخامسة.

ونظرا لسابق علاقات محدثنا بعبان مالبث أن عبر له عن رغبته في العمل معه بالعاصمة فاتصل عبان بالشيخ العربي التبسي رئيس جمعية العلماء بالنيابة فقام بتعيينه بمدرسة البليدة. لكن قبل الالتحاق بمنصبه الجديد استدعاه بوضياف القائم بالتنسيق بين القاهرة والعاصمة ليخبره بأن خيضر بحاجة إلى عنصر معرب، وأنه عليه أن يستعد للسفر إلى العاصمة المصرية مقر الوفد الخارجي لجبهة التحرير.. ولما أخبره برغبته في الالتحاق بالعاصمة عتب عليه ذلك، على أساس أنه عضو في تنظيم المنطقة الخامسة وهي التي تأذن له أو ترفض. وقد قرر بوضياف في نهاية الأمر، أن يبقيه إلى جانب للعمل معه.

وحسب محدثنا أن مهمة بوضياف يومئذ كانت تتمثل فضلا عن

التنسيق مع القاهرة في استقبال الأسلحة أوجمعها من منطقة الريف وفي العلاقة بجيش التحرير المغربي.

استقر سي الطيب بعض الوقت بتيطوان حيث كان يضمن الداوم في حالة تنقل كل من بوضياف وبن مهيدي. وكان يومئذ يكتب تحت توقيع الفتى الجزائري في جريدة الأمة التابعة لحزب الاصلاح بقيادة عبد الخالق الطريس..

وبعد استقلال المغرب (مارس 1956) قرر بوضياف ورفاقه فتح جبهتين جديدتين: اصدار صحيفة، والشروع في تنظيم الجزائريين بالمغرب المستقل.

وقد تم فعلا اصدار صحيفة بعنوان المقاومة كان من محرريها علي هارون والصادق موساوي وحسين بوزار وعياد البوعبدلي وزهير إيحدادن. كما تمت هيكلة الجزائريين الذين أصبحوا يمدون الثورة بالمال والمعلومات، في إطار ماأصبح يعرف بعد ذلك باتحادية الجبهة في المغرب. وفي نفس السياق تم إنشاء الهلال الأحمر الجزائري.

وعندما إلتحق بن مهيدي بالعاصمة (في مايو 1956) أصبح محدثنا ينسق مع بوصوف المرابط على الحدود الجزائرية المغربية. وعن موقف هذا الأخير من مؤتمر الصومام يقول: إنه كان يرى أن بن مهيدي لا يمثل المنطقة الخامسة، وإنه كان يعتبر ماحدث ندوة وليس مؤتمرا..

لكن عندما وصلهم نص الأرضية الصادرة عن المؤتمر، قام سي الطيب بالإتفاق مع بوصوف بطبعها وشرحها. ومعلوم أن مؤتمر الصومام عين محدثنا عضوا إضافيا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

عاش سي الطيب بالمغرب عملية اختطاف طائرة الوفد الخارجي لجبهة التحرير [1] وهو في طريقه من الرباط إلى تونس.. وقد أثارت العملية موجة غضب أدت في بعض المدن مثل الرباط ومكناس إلي مهاجمة المستوطنين الفرنسيين وتخريب ممتلكاتهم.

ويذكر محدثنا في هذا الصدد أن عملية الاختطاف كانت مثار جدل حاد مع عبان عند خروجه من الجزائر نحو المغرب في ربيع 1957. فقد التقى به صدفة بالناظور بمكتب الجبهة، وعند التطرق إلي هذه النقطة قال عبان: لحسن الحظ أنهم وقعوا في قبضة العدو! لأننا كنا نتأهب لإصدار بيان ضد مشاركتهم في لقاء تونس [2] نتهمهم فيه بالخيانة!

استغرب بوصوف وسي الطيب ومعهما الشيخ خير الدين هذا الموقف وحاولوا الدفاع عن أعضاء الوفد الأربعة.. لاسيما بوضياف الذي لا يمكن في نظرهم أن يوافق على أي تنازل للعدو. وعندما حاول الشيخ خير الدين التدخل في النقاش نهره عبان بعنف، متهما إياه بتعاطي التجارة وجمع رصيد ضخم قدره بكذا مليون فرنك! وقد جعل ذلك الشيخ خير الدين ينصرف عن الموضوع والاكتفاء بالدفاع، عن نفسه مقسما أمام الجميع بأنه لايملك المبلغ المذكور!

وحسب الشاهد أن الجماعة افترقت مع بقاء كل طرف على موقفه، مع ظهور نوع من التوتر بين عبان وبوصوف خاصة كان يغذيه التنافر الواضح بين شخصية الرجلين، ويذكر في هذا الصدد: أن بوصوف كان يحب الدعابة ميالا إلى رفع الكلفة مع محدثيه.. وقد عاب عليه عبان هذا السلوك. واصفا اياه بـ الصعلوك فما كان من بوصوف إلا أن رد عليه قائلا: «لاتنس أنني ابن فحام!»

2 – بن بلة فضل جيش الحدود.. على الشعب! (*)

الوفاء اختيار صعب دائما.. وهو أصعب مايكون في حالة الوفاء لشخصيات تاريخية في حجم بوضياف، وكريم وهذه حال المناضل الطيب الثعالبي، الذي فضل إلى جانب ذلك أن يسلك في منعرج 1962 الخطير، اتجاه الشرعية التي كان يراها يومئذ في المؤسسات العليا للثورة: مجلس الثورة والحكومة المؤقتة!

في أواخر ربيع 1957، انتقل سي الطيب الثعالبي مسؤول اتحادية جبهة التحرير بالمغرب إلى القاهرة، في إطار الإعداد لدورة «المجلس الوطني للثورة الجزائرية». وهي أول دورة لهذه الهيئة العليا للثورة منذ تأسيسها في مؤتمر الصومام.

وصل قبل انعقاد الدورة بحوالي ثلاثة أشهر، فطلب منه الدكتور الأمين الدباغين مسؤول الوفد الخارجي للجبهة أنذاك، أن ينضم مؤقتا إلى الفريق الإعلامي الذي ينشط حصص إذاعة «صوت العرب».. وكان الفريق يومئذ يتكون من كتاب ومحامين وطلبة، من بينهم الحاج حمو وبوزيدة ومالك بن نبي ورابح التركي ومحمد البشيري وعبد القادر معاشو..

وحسب شهادة محدثنا أن الفريق كان يؤدي مهمته بطريقة عادية، ماعدا مالك بن نبي الذي كانت كتاباته ترفع إلى الدكتور الأمين ومساعده بن يحي.

(*) الفجر: عدد 8 و51 يوليو 2002.

(1) أعضاء الوفد الخارجي هم: خيضر، بوضياف، بن بلة، آيت أحمد، وكانت العملية في 22 أكتوبر 1956.

(2) اللقاء كان من المفروض أن يجمع أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير بكل من العاهل المغربي محمد الخامس والرئيس بورقيبة. ويندرج في إطار التمهيد لوساطة بين الجبهة والحكومة الفرنسية.

وكثيرا ماكانا يتحفظان على بثها، بسبب نزعتها الذاتية. ومع ذلك فقد كان الكاتب الفيلسوف محل احترام وتقديرمن عناصر الفريق.

وقد سبق انعقاد دورة مجلس الثورة أخذ ورد استغرق بضعة أسابيع، تخللتها اتصالات ومناورات بين طرفين رئيسيين:

– عبان ومعه كل من بن خدة ودحلب والعقيد دهيلس وكانوا يقيمون معا في مكان وضع تحت تصرفهم.

– كريم وبقية أعضاء القيادة كانوا بدورهم يقيمون معا..

وقد انتهت المفاوضات الشاقة بين الطرفين إلى حل مؤقت، تم الإعلان عنه والمصادقة عليه في جلسة واحدة لم تزد عن ثلاث ساعات. وخرج أعضاء القيادة العليا للثورة متفقين في الظاهر، وشنوا حملة إعلامية لتبديد ماكان يشاع حول وجود خلافيات وانقسامات في الصفوف.

وأثناء الدورة تعرف الثعالبي لأول مرة على كريم الذي حدثه بالمناسبة عن ملابسات تعيينه في مؤتمر الصومام عضوا إضافيا بمجلس الثورة. فقد اقترحه عبان (زميله في النضال بشلغوم العيد) بصفته معلم.. فغضب كريم قائلا: كفانا من معلمي جمعية العلماء![3] وهنا أوضح عبان بأنه من معلمي حزب الشعب. وأيده في ذلك كل من زيغود وبن مهيدي الذي سبق للمرشح أن ناضل معهما بكل من «اسمندو»[4] ومغنية.

(3) أثار ترشيح العباس بن الشيخ الحسين لعضوية مجلس الثورة جدلا حادا بمؤتمر الصومام بسبب اعتراض وفد المنطقة الثانية عليه. ويفهم من ملاحظة كريم أنه كان مؤيدا أو متعاطفا مع موقف زيغود ورفاقه.

(4) زيغود يوسف حاليا.

وعرف كريم أن الثعالبي كان على علاقة ببوضياف قبل اختطاف الطائرة[5] فاطمأن إليه، وأخبره بالمناسبة أن بينه وبين بوضياف عهدا»..

ومالبث أن استدعاه للعمل إلى جانبه بتونس، حيث كلفه بتنظيم اتحادية الجبهة استنادا إلي سابق تجربته بالمغرب، وقد وجد هناك مناضلين من أمثال ابراهيم حشاني[6] وصالح معيزة ومحمود بوجابي.. ولم تمض سوى أربعة أشهر حتى أنجز المهمة على أحسن وجه.. وقد ظل يشرف على هذا التنظيم لغاية وقف القتال في 19 مارس 1962.

ومن هذا الموقع حضر مختلف دورات مجلس الثورة بدءا بدورة ديسمبر59 يناير 1960 التي كانت «دورة بروز العقيد بومدين ورجاله»..

كانت هذه الدورة إيذانا مبكرا بأن الرياح بدأت تهب في غير صالح الثلاثي النافذ في قيادة الثورة كريم – بن طوبال – بوصوف. فقد تعرض هذا الثلاثي إلى حملة منسقة، ساهم فيها الثعالبي على طريقته الخاصة. فقد انتقد كريم بناء على معلومات من صديقه الرائد السويعي[7]، بينما تولى هذا الأخير انتقاد بن طوبال اعتمادا على معلومات من الثعالبي!

وقد تفطن بن طوبال لمصدر هذه المعلومات فاطمأن إلى حد ما، لأن المنتدب لا يعرف غيرها أو لا يستطيع التصدي للرد عليه!..

وجاءت دورة الفصل: دورة 27 مايو – 6 يونيو 1962! ويروي الشاهد في هذا الصدد بعض التفاصيل التي لا تخلو من فائدة.

فقد طلب من العقيد الطاهر الزبيري أن يعين نوابه في مجلس الولاية الأولى (الأوراس)، وأن يستحضر وكالاتهم في نفس الوقت. وحسب

(5) عملية الاختطاف تمت في 22 أكتوبر 1956.

(6) والد عبد القادر حشاني.

(7) استشهد سنة 1960 في محاولة اقتحام خط موريس في طريق العودة إلى الأوراس.

محدثنا أن المعني لم يأت بالوكالات في الوقت المناسب، وافتتحت الدورة وتم تثبيت عضوية المشاركين على هذا الأساس.

لكن بعد أن انطلقت الأشغال وانتهى النقاش حول النقطة الأولى من جدول الأعمال ـ المتعلقة بالبرنامج السياسي لمرحلة ما بعد الاستقلال ـ قام العقيد الزبيري ليطرح من جديد مشكلة وكالات نوابه التي يكون حصل عليها في تلك الأثناء!

ويفسر محدثنا ذلك بمناورات كل من بن بلة وبومدين اللذين كانا يعتقدان أن بإمكانهما ترجيح الكفة لصالحهما بفضل وكالات مجلس الولاية الأولى.

وقد تدخل مكتب الدورة[8] ـ المنعقدة بالعاصمة الليبية ـ لينبه العقيد بأن المسألة حسمت قبل انطلاق الأشغال، فقام بن بلة محتجا على ذلك. وهنا طلب رئيس الحكومة المؤقتة بن خدة الكلمة ليقول بأدب مخاطبا هذا الأخير: «لقد اتفقنا حول هذه النقطة وانتهى الأمر، فكيف تعود لطرحها وقد انطلقت الأشغال منذ أيام؟!»

وكان رد بن بلة عنيفا، وأدت تداعياته إلى تعليق أشغال الدورة التي كتب لها أن تظل كذلك إلى يومنا هذا!

لكن ترى أين كان موقع الثعالبي في هذه الأزمة التي استمرت إلى ما بعد الاستقلال؟

كان محدثنا على رأس التنظيم السياسي لجبهة التحرير بتونس، وكان نظاميا تابعا إلى بلقاسم كريم نائب رئيس الحكومة المؤقتة

(8) كان المكتب مشكلا من محمد الصديق بن يحيى رئيسا ومن مساعدين هما العقيد علي كافي (الولاية الثانية) وعمر بوداود (اتحادية فرنسا).

والمكلف بالشؤون الداخلية، أي كان في الطرف المناوئ لهيئة الأركان من الناحيتين! بل كان في الخط الأمامي للمواجهة!

فقد سبق أن اصطدم بعناصر هيئة الأركان التي كانت ـ في إطار حرب التموقع! ـ تضايق مناضلي الاتحادية، وتعتقل بعضهم لا سيما بالمناطق الحدودية، حيث تعرض هو نفسه إلى محاولة اعتقال..

وعندما اتصل به أنصار بن بلة كان رأيه واضحا تماما، إذا أراد بن بلة أن يعالج الخلاف في إطار الحكومة ورغب في رئاسة هذه الهيئة فنحن معه، أما إذا أراد الاعتماد على هيئة الأركان وحدها، فلا يمكن أن نجاريه في ذلك.

وأبلغ هؤلاء الأنصار أن على بن بلة أن يختار بين جيش الحدود ـ المقدر بـ 30 ألف جندي ـ وبين الشعب الذي يقف وراء الحكومة المؤقتة..

وتعبيرا عن حسن نيته قام بتنظيم لقاء لكل من بن بلة وخيضر، مع إطارات الاتحادية بالحدود الذين طرحوا عليهما أسئلة محرجة.. جعلت خيضر يقول لبن بلة في الختام «إنها مكيدة دبرها الثعالبي»! وهكذا لم يحصل خلال الاجتماع لا إقناع ولا اتفاق!

اختار الثعالبي عقب ذلك الوقوف إلى جانب «الشرعية» أي الحكومة المؤقتة رغم أن علاقاته مع العقيد بومدين كانت طيبة قبل ذلك.. لأنه بحكم مسؤوليته في نظام الجبهة بتونس، كان كثير التردد على المناطق الحدودية، حيث كان يجتمع باستمرار مع بومدين ورفاقه.. وفي هذا الصدد سارع بالدخول إلى الجزائر قبل استفتاء تقرير المصير، بنية التمهيد لقدوم بن خدة وأنصار الحكومة المؤقتة. وقد دعم بذلك جهود

منطقة الجزائر العاصمة التي كان على رأسها الرائدان عزالدين وعمر أوصديق، وبصفته رئيس اتحادية تونس شارك في اجتماع زمورة (برج بوعريريج)، رفقة قادة الولايات الثانية والثالثة والرابعة واتحادية فرنسا. وقد أسفر الاجتماع المنعقد في 25 يونيو عن قرارات صارمة، مثل المطالبة بعزل بومدين ونائبيه من قيادة الأركان... وقد شجعت هذه القرارات رئيس الحكومة الموقتة على إصدار قراره الخطير، بعزل هيئة الأركان فعلا في 30 من نفس الشهر. هذا القرار الذي جعل بومدين ورفاقه ومعهم الثلاثي بن بلة – خيضر – بيطاط (من الزعماء الخمسة)، يجاهرون بالعصيان، ويدخلون في سباق محموم على الحكم مع الحكومة المؤقتة، سباق كانت الغلبة فيه إلى القوة مثلما كان متوقعا.

وبعد انهزام بن خدة ورفاقه لم يستسلم محدثنا وواصل رفضه لسياسة القوة والأمر الواقع، في إطار «حزب الثورة الإشتراكية» الذي أسسه محمد بوضياف أحد «الزعماء الخمسة» ابتداء من أواخر سبتمبر 1962.

وفي نفس الوقت تقريبا استأنف نشاطه التربوي الذي توقف عنه سنة 1956 كممرن في سلك التعليم.. أي بدأ حياته المهنية من جديد ومن نقطة الصفر تقريبا.

لكن مع دخول المناضل بوضياف مرحلة المعارضة النشيطة، والتحاقه بدءا من 1964 بحركة موسى حساني في الشمال القسنطيني، بدأت مصالح الأمن تتعقب أثاره وتطارد أنصاره .. وفي تلك الظروف اعتقل الثعالبي، وبقي بالسجن حتى انقلاب 19 يونيو 1965...

اعتقل كمعارض مجهول.. لا كسي علال) المناضل الكبير والعضو

السابق في المجلس الوطني للثورة الجزائرية.. المنبثق عن مؤتمر الصومام! يذكر في هذا الصدد عن صديقه الشيخ الحسين بن الميلي (رحمه الله)، أن الرئيس بومدين سأل ذات يوم في أحد اجتماعات مجلس الثورة عن مال سي علال.. فأجابه علي منجلي : لقد كان معتقلا بسجونكم! فوجئ بومدين بهذا الرد وسأل أحمد مدغري وزير الداخلية عن حقيقته.. فنكر ذلك.. لأن إسم الطيب الثعالبي لم يكن يعني شيئا يذكرلدى مصالح الأمن!..

وتشاء الصدف أن يعود المناضل بوضياف إلى الحكم في مطلع 1992. وقد كان الثعالبي من قدماء المناضلين الذين كانوا يترددون عليه، ويساعدونه في فهم «الجزائر الجديدة» وألغازها» وبعد اغتياله في 29 يونيو من نفس السنة، عين رفيقه السابق في لجنة التحقيق التي استبعدت بوضوح في ملخص تقريرها الصادر بعد حوالي ستة أشهر، فكرة «الفعل المنعزل» التي ما انفكت بعض الأطراف تحاول تكريسها.. ولعل في ذلك بعض العزاء لهذا الصديق الوفي لبوضياف..

زهير أحَدَّادَنْ

– ولد زهير أحدّادن بسيدي عيش (بجاية) في 17 يوليو 1929، ونشأ بالطاهير (جيجل) مكان عمل والده القاضي.

– التحق بحزب الشعب الجزائري في غضون الموسم الدراسي 1947–1948، وهو في السنة الثانية بمدرسة قسنطينة.

– واصل نضاله في صفوف الحركة الطلابية بالجزائر العاصمة بعد التحاقه خلال الموسم الجامعي 1950–1951 بمعهد الدراسات الإسلامية العليا.

– التحق بجبهة التحرير الوطني في ديسمبر 1954، بواسطة زميله رشيد عمارة الذي كلفه بمحاولة استقطاب وتجنيد الطلبة للانضمام إلى الثورة التحريرية.

– عمل مع ثوار المنطقة الرابعة (الجزائر) بمليانة، حيث عين للتدريس بثانويتها في الموسم الدراسي 1955–1956. وقد اكتشف أمره في صائفة 1956 فطرد إلى وهران ومن هناك هاجر إلى فرنسا..

– عاود الاتصال بجبهة التحرير في المغرب، حيث عمل في صحيفة "المقاومة" ثم "المجاهد".. كما عمل في اتحادية الجبهة هناك..

– غداة الاستقلال فضل العودة إلى سلك التعليم.. وقد أصبح أستاذا جامعيا مرموقا، بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه في تاريخ الصحافة الجزائرية.

– يواصل نشاطه حاليا بعد إحالته على المعاش في ميدان التأليف والنشر.

1– «التحقت بالثورة... بمناسبة محاضرة لفانون!»

في بداية ديسمبر 1954، كان الطالب زهير أحَدّادن يبحث عن "الثورة" بقدر ما كانت تبحث عنه! وكان الموعد صدفة، أثناء محاضرة للدكتور فرانز فانون بمقر الكشافة الإسلامية! وكان الواسطة الطالب رشيد عمارة المناضل في حزب الشعب الجزائري بالمناسبة فلبّى النداء وهكذا كانت البداية!(*).

نشأ زهير أحَدّادن ما بين توجة (بجاية) مسقط رأسه، والطاهير (جيجل) مكان عمل والده القاضي، في جو عائلي تشع منه التربية الوطنية المتوارثة أبا عن جد. فقد كان والده متعلما باللغتين العربية والفرنسية، وكانت تتردد على البيت العائلي شقيقة جدته، وهي عجوز مسنة حريصة جدا على تبليغ صغار العائلة ومن بينهم زهير، أصداء ثورة المقراني والحداد (1871) ومغامرات الثائر أرزقي أو البشير.

وكان يتردد على قرية توجه أيضا، ابن عمه الذي كان يحمل رسالة خاصة: ألحان فداء الجزائر[1] التي يعزفها بآلة لارمونيكا بطريقة تهز أعماق الصبي زهير.

وفي غضون السنة الدراسية 1939–1940، كانت المعلمة الفرنسية تعلق على وقائع الحرب وتبكي لهزائم الجيش الفرنسي المتلاحقة، ومازال زهير يتذكر بأن هذا البكاء لم يكن يثير فيه أي تعاطف، بل كان

(*) الفجر: 5 و12 أوت 2002.

(1) النشيد الرسمي لحركة نجم شمال افريقيا ثم حزب الشعب الجزائري، من نظم الشاعر الكبير مفدي زكريا سنة 1936.

يثير عكس ذلك نوعا من التشفي! هذا الاستعداد الفطري تحول إلى تعاطف مع الحركة الوطنية التي عبرت عن طموحاتها بقوة من خلال تنظيم "أحباب البيان والحرية" الذي أفزع نجاحه وانتشاره السريع الواسع غلاة الكولون، فدبروا له مكيدة 8 مايو 1945 لحله في بحر من الدماء الزكية البريئة...

هذا التعاطف مالبث أن كبر ليصبح التزاما في غضون السنة الدراسية 1947-1948، بينما كان الطالب زهير إحدادن في السنة الثانية بمدرسة قسنطينة[2]. كانت بالمدرسة خلية نشيطة لحزب الشعب الجزائري[3]، من أبرز عناصرها علي خنات والحسن العايب، وبفضل هذين المناضلين التحق بهذا التنظيم السري.

ويخضع المرشح للنضال في هذا التنظيم إلى تجربة دقيقة، ولا يمكن قبوله إلا بعد أن يوضع على محك التجربة. ويصف محدثنا نجاحه في هذا الامتحان بقوله: "كان علي أن أدشن قبولي بأداء اليمين.. وقد دخلت لذلك في بيت مع الحسن العايب على انفراد فجاء بمصحف وطلب إلي أن أضع يميني عليه، وأردد معه العبارة التالية: "أقسم بأن أعمل في نظام حزب الشعب إلى أن تستقل الجزائر أو أموت في سبيلها".

ويعلق على ذلك بقوله: "كنت متدينا فكان لهذا اليمين وقع كبير في نفسي" بعد أداء اليمين انضم الطالب زهير إلى خلية من أربعة أو خمسة مناضلين، وشرع في القيام بمهامه النضالية التي تجمع بين التكوين السياسي ومحاربة نظام الاحتلال والتصدي للخصوم السياسيين.

(2) شبه ثانوية يتم التدريس فيها باللغتين الفرنسية والعربية.
(3) كان للحزب يومئذ واجهة شرعية هي "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" وتنظيم سياسي سري، فضلا عن "المنظمة الخاصة شبه العسكرية".

كانت الخلية تعقد اجتماعات أسبوعية، يتعلم خلالها المناضل الجديد درسه الأول، وهو أن الخلية هي عين الحزب و أذنه.

وفي الاجتماع يتم تبادل المعلومات التي يكون استقاها كل مناضل من محيطه المباشر.

ويتمثل الجانب التكويني في درس حول تاريخ الجزائر، مشفوع بدرس حول تاريخ حزب الشعب.

ويختتم الاجتماع عادة بتلقي التعليمات الخاصة بالنشاط.. وكانت الاجتماعات سرية وتعقد في أماكن مختلفة.

و يتمثل الجانب النضالي في المحاربة اليومية لقوانين الاستعمار الاستثنائية، بالحث على التمرد عليها بكيفية أو بأخرى، فضلا عن معاكسة نشاطات الحركات المنافسة ومحاولة إفساد المهرجانات الشعبية التي كانت تعقدها هنا وهناك.. وكان الخصم الأول للمناضل زهير ورفاقه، التحالف المتمثل في حزب البيان وجمعية العلماء.

وفي انتخابات المجلس الجزائري الأول[4] كلف المناضل الجديد بمهمة خاصة: تمثيل حزبه في مكاتب الاقتراع بالسمندو (زيغود يوسف حاليا).

وشهد الموسم الدراسي الأخير للطالب إحدادن في مدرسة قسنطينة حدثا هاما تمثل في اكتشاف "المنظمة الخاصة"[5] الذي كانت له انعكاسات سلبية على مستوى التنظيم الطلابي. فقد كانت نسبة كبيرة من طلبة المدرسة مهيكلين أو متعاطفين مع حزب الشعب.. لكن تحقيقات

(4) انتخب هذا المجلس بعد "إصلاحات" سبتمبر 1947. ويتكون من 60 نائبا يمثلون أقل من مليون أوربي (الغرفة الأولى) و60 نائبا يمثلون الأغلبية المسلمة (الغرفة الثانية) مع تفاوت كبير في صلاحيات الغرفتين!
(5) تنظيم شبه عسكري تقرر تأسيسه في مؤتمر فبراير 1947 وأسندت رئاسته إلى محمد بلوزداد.

الشرطة في المدرسة ومحيطها جعلت كثيرا من المنخرطين ينسحبون.. ويقدر الشاهد نسبة هؤلاء بـ 80%!.

وقف مدير المدرسة، وهو فرنسي مستشرق، موقفا مشرفا عندما منع الشرطة من اقتحام حرم المدرسة والتحقيق مع الطلبة داخلها.. لكنه عمل في الخفاء في نفس الوقت لإقناع العديد من الطلبة بالكف عن ممارسة السياسة والانكباب على دروسهم قبل كل شيء.

لم يبق مع الطالب إيحدادن في تنظيم حزب الشعب بالمدرسة سوى عدد قليل من الطلبة، من بينهم مسؤول الخلية محمد بوحجة. وقد سعوا، رغم قلة عددهم، في إعادة انتشار التنظيم. ويذكر محدثنا في هذا الصدد، أنه شخصيا كلف بمهمة في كل من الكتانية[6] ومعهد ابن باديس..

وقد عرف فيما بعد أن محمد بوخروبة، كان مايزال يومئذ بالكتانية رفقة المناضل عبد الرحمان مهري، في حين كان من بين طلبة المعهد المهيكلين عثمان السعدي وعبد المجيد كحل الراس..

وفي الموسم الجامعي 50–1951 إلتحق الطالب زهير إيحدادن بمعهد الدراسات العليا الإسلامية بالجزائر بعد النجاح في مسابقة الدخول.. كان على رأس المعهد يومئذ هنري بيريس!

هذه النقلة كانت فرصة لعدد من الطلبة كي يقطعوا علاقاتهم بحزب الشعب الجزائري، وكان من بينهم هؤلاء محمد بوحجة مسؤول خلية المدرسة سابقا! لكن لحسن الحظ، تم تعويض هؤلاء بطلبة مناضلين آخرين جاؤوا خاصة من ثانويات قسنطينة وسطيف وكان من بينهم بالعيد عبد السلام والأمين خان وعبد الكريم بن محمود..

(6) شبه ثانوية بالعربية تابعة للزاوية الحملاوية في الظاهر، لكن وجدت بالأساس لمنافسة معهد ابن باديس.

لم تكن مع ذلك وضعية طلبة حزب الشعب مريحة خلال الموسم الجامعي 50–51، لأنه كان قد مرّ بعدد من الأزمات: الأزمة البربرية، أزمة الدكتور الأمين[7] وأخيرا أزمة المنظمة الخاصة. لم يكن عدد الطلبة المهيكلين يومئذ يتجاوز الثمانية، كلفت القيادة الطالب بالعيد عبد السلام بالإشراف عليهم نظرا لنشاطه وتجربته النسبية[8].

وجد الطالب إيحدادن بالعاصمة جوا نضاليا يختلف كل الاختلاف عما كان يعيشه بقسنطينة، فقد انتقل عمليا – حسب قوله – من المنظمة السياسية السرية إلى الواجهة الشرعية لحزب الشعب: حركة انتصار الحريات الديمقراطية، فالخلية الطلابية كانت تعمل علانية، وكان نشاط عناصرها يقتصر أحيانا على بيع جرائد الحزب وتنظيم لقاءات دورية– نادرة– مع الزعيم الحاج مصالي الذي يعيش تحت الإقامة الجبرية ببوزريعة، فضلا عن حضور المحاضرات السياسية التي كان الحزب ينظمها بين الفينة والأخرى.

وكانت المهمة الرئيسية لهذه الخلية تتمثل في العمل من أجل استعادة قيادة جمعية الطلبة المسلمين بإفريقيا الشمالية التي أفلتت من طلبة الحزب، بسبب الأزمات المتتالية، آنفة الذكر ليستولي عليها الطلبة البيانيون والشيوعيون. وقد تحقق لهم ذلك خلال الموسم الجامعي 52–53، عندما تولى عبد السلام رئاسة الجمعية.

غير أن أجواء النضال في الحرم الجامعي وفي محيط ادارة حركة الانتصار عموما، جعلت الطالب إيحدادن يشعر شخصيا بأن الحزب الذي ينتمي إليه بدأ يتغير قياسيا بالماضي. وقد عبر عن ذلك بمناسبة

(7) فصل الدكتور الأمين دباغين سنة 1949. وقد تعاطف معه عدد من المناضلين في القاعدة، مما احدث أزمة في الحزب.

(8) كان عبد السلام قد سجن في حوادث 8 مايو 1945.

انعقاد المؤتمر الثاني للحركة في أبريل 1953، بإبداء رأي صريح في الوثائق المطروحة على المندوبين حين قال مخاطبا قيادة الحزب: مادمتم قد أصبحتم مثل حزب البيان تقريبا، فالأحسن لكم أن تتحدوا لتشكلوا تنظيما واحدا قويا ! وكان رأيه باختصار: ان مبادئ المؤمر الثاني.. غير مبادئ المؤتمر الأول (فبراير 1947).

وعند انفجار أزمة القيادة في ربيع 1954، فضّل الطلبة طريق الحكمة والتزام الحذر ومحاولة الاطلاع مأمكن على مواقف الطرفين: أنصار مصالي وأنصار اللجنة المركزية. وهذا مايفسر إنابة اثنين منهم، هما الأمين خان الذي حضر مؤتمر المصاليين في هورنو (بلجيكا)، والطاهر قايد الذي شارك في مؤتمر المركزيين بالجزائر العاصمة.

وقبل أن يفترق طلبة الحزب بمناسبة العطلة الصيفية، نصحهم عبد السلام– الذي انتخب عضوا في اللجنة المركزية خلال المؤتمر الثاني– بالتزام الحياد في الخلاف الدائر وسط القيادة.

وكانت من نتاج هذا الخلاف الدائر وسط القيادة، ان الطلبة تفرقوا في صائفة 1954، بدون أية تعليمات من القيادة على غير المألوف. في السابق كان الطالب المناضل يلتحق أثناء العطل بقسمة مسقط رأسه ليواصل نشاطه، وكانت قيادة الحزب بالعاصمة تبلغ التنظيم المحلي بذلك.. لكن في تلك الصائفة لم ينتبه أحد لهذا الأمر، مما يؤشر بأن الخلاف بدأ يتحول إلى تفكك وانفراط.

في بداية أكتوبر 1954، عندما عاد الطالب زهير إيحدادن إلى العاصمة، أحس بأن رياح التغيير بدأت تهب عليها، تمهيدا لعاصفة فاتح نوفمبر الهوجاء! فقد كان على صلة بمناضل دائم يدعى غربي من خريجي معهد ابن باديس، وكان هذا الأخير بدوره على صلة بالمناضل الحسين بالميلي الذي كانت تربطه علاقات وثيقة ببوضياف ورفاقه.

لذا، كان المناضل غربي يوحي لصاحبه إيحدادن بأن الجماعة تحضر إلى شيء ما! ومما قال في هذا الصدد: إن مجاهدين من الجزائر هو الآن يقاتلون في صفوف الفلاقة بتونس!

كان الطالب إيحدادن آنذاك في السنة الأخيرة من الليسانس. وغداة اندلاع الثورة في فاتح نوفمبر أخذ بدوره يتساءل ويبحث عمن يقف وراءها. وفي ديسمبر الموالي استدعت الكشافة الإسلامية الدكتور فرانز فانون، لإلقاء محاضرة بمقرها قبالة مسمكة العاصمة.

كان إيحدادن من الحاضرين وهناك اتصل به الطالب رشيد عمارة، وهو مناضل سابق في حزب الشعب، وفاتحه في موضوع الثورة بعد أن أشعره أن بإمكانه أن يمهد له سبيل الالتحاق بها، إن كان يرغب في ذلك.

ولما أنس لديه استعدادا حسنا قال له: اعتبر نفسك من الآن عضوا في جبهة التحرير الوطني! وحاول أن تستقطب العناصر الطلابية المناضلة في حزب الشعب! .

أصبح العضو الجديد في الجبهة، يلتقي أسبوعيا مع رشيد عمارة. ولم تكن الدعوة للثورة في الجامعة مهمة سهلة، ناهيك أن محدثنا لم يستطع إقناع سوى عنصر واحد هو الطالب الأمين خان، من مجموع عناصر الخلية التي كان يشرف عليها عبد السلام والمكونة من حوالي 10 طلاب!

وكانت حجة المتحفظين تبدو قوية نسبيا: نقص التحضير يقلل من إمكانيات النجاح! ويجعل شبح 8 مايو 1945 يخيم من جديد! .

الغريب أن الطلبة من الأحزاب الأخرى، أو من المتعاطفين فقط مع حزب الشعب، كانوا يبدون استعدادا أفضل للإلتحاق بالثورة! الأمر الذي جعل الشاهد يلجأ إلى التسويف في انتظار التعليمات!.

2- وعصف بنا الذين جاءت بهم الريح!

.. بعد تشكيل الحكومة المؤقتة.. بدأ زهير إيحدادن يشعر بظاهرة البيروقراطية وزحفها الخانق، ويعبر عن ذلك بقوله: «أصبح الجو رتيبا كريها، وأخذت أحس مع مرور الأيام أنني موظف في الجبهة ولست مناضلا بأتم معنى الكلمة».

عندما اندلعت الثورة، كان الطالب زهير إيحدادن في السنة الأخيرة من الليسانس، وكان من أوائل الطلبة الذين لبوا النداء، بفضل الطالب رشيد عمارة الذي كلفه بالمساهمة في تجنيد الطلبة.

هذه المهمة لم تكن سهلة يومئذ، نظرا لتحفظ الطلبة من جهة، وتخوف بعض قادة الثورة من عواقب التسرع في التجنيد من جهة ثانية. على سبيل المثال: أبدى الطالبان بالعربي وزروق رغبتهما في الالتحاق بالثورة، لكن عندما نقل هذه الرغبة إلى عمارة كان الجواب بعد استشارة أوعمران خاصة: « فليلتحق كل واحد بناحية مسقط رأسه»!

ولحسن الحظ أن هذا الإشكال رفع بعد أن استلم رمضان عبان مقاليد الأمور بالعاصمة.

لذا كانت الحصيلة التي تقدم بها الطالب إيحدادن إلى رشيد عمارة في مارس 1955 متواضعة: هو نفسه ومعه طالب كلية الطب الأمين خان.

بعد شهر تقريبا استطاع عمارة أن يرتب لأحدادن وزميله لقاء مع عبان، وتم اللقاء بمنزل المناضلة نسيمة هبلال قبالة حديقة الحامة، حيث قدم عبان عرضا وافيا عن الثورة وكيفية تطورها وإمكانياتها وأهدافها. وفي الختام سأل الطالب خان: «لكن ما المطلوب

منا؟» فكان الجواب: أن تواصلوا تجنيد الطلبة لحاجة الثورة إليهم خاصة كمحافظين سياسيين، وفي إدارة المستشفيات الميدانية، والقيام بأعمال الأمانة التقنية في مختلف المناطق.

غير أن مهمة التجنيد ازدادت صعوبة بعد عطلة الربيع، وانشغال الطلبة بامتحانات نهاية السنة الدراسية. وكان الطالب إحدادن في نفس الوضع أو أكثر، لأنه كان في السنة الأخيرة من الليسانس، كما سبقت الإشارة. لذا اقتصر نشاطه الثوري على توزيع المناشير السرية على زملائه الموثوق بهم، بعد تسلمها من رشيد عمارة. مثل هذا النشاط السري لم يكن خافيا على عيون الأمن الاستعماري بالجامعة ومحيطها.. فقد بدأت الشبهات تحوم حول الطالب.

وتأكد من ذلك في جويلية بعد نهاية الموسم الجامعي.. فقد عاد إلي الطاهير لقضاء العطلة الصيفية، فصادف بمحطة الحافلة عند نزوله عملية تفتيش للركاب تقوم بها عناصر من الدرك، ورغم أن العائلة معروفة بالبلدة بحكم أن والده قاضيا فيها، ولها علاقة مصاهرة مع عائلة عباس، فقد تعمد الدرك معاملته بسوء، بل ضربه ضربا مبرحا بأخمص البنادق حتى كاد يغمى عليه.

وكانت هذه الحادثة على مرأى المارة وزبائن مقهى المحطة!

كانت الطاهير آنذاك ما تزال هادئة نسبيا في الظاهر، لكن مواطنيها مع ذلك غضبوا لهذه الحادثة. واتصل بعضهم بمحمد الصالح عباس (شقيق الزعيم فرحات عباس)، معبرين عن استعدادهم للرد على هذه المظلمة بالوسائل المناسبة! لكن هذا الأخير قام بتهدئتهم..

غير أن الحادثة لم تنته عند هذا الحد، فقد «نصح» الحاكم وقاضي التحقيق والده، بإبعاد ابنه عن البلدة تجنبا لما لا تحمد عقباه! فاضطر الطالب أحدادن لذلك لقضاء العطلة بتوجة (بجاية) مسقط رأسه. وتشاء الصدف أن يثأر ثوار الناحية للطالب: فقد وقعت مجموعة الدرك بالطاهير في كمين، أسفر عن مقتل ثلاثة من عناصرها!.

في بداية الموسم الدراسي 55–56 عيّن أحدادن مدرسا بثانوية مليانة، وقبل الالتحاق بمنصة الجديد اتصل برشيد عمارة، فطلب منه أن يحاول مواصلة الكفاح بالناحية.

وبمليانة وجد المدرس الشاب المناضل الكبير مصطفى فروخي[9] تحت الإقامة الجبرية، كما تعرف على المناضل محمد الطيب العلوي مسؤول مدرسة حرة بالمدينة. وبينما كان منهمكا في ترتيب أموره الشخصية والتربوية، ألقي القبض على حلقة اتصاله بقيادة الثورة: رشيد عمارة الذي اعتقل في 7 ديسمبر 1955، ليبقى في السجن قرابة ثلاثة أشهر.

هذا الانقطاع جعله يبادر بتحسيس تلامذته من قسم السنة الثانية من التعليم الثانوي بالثورة التحريرية وأهدافها ورهاناتها. وكان قبل ذلك قد أتاهم بدفاتر الاكتتاب لفائدة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، تسلمها من محمد الصديق بن يحيى أحد مسؤولي فرع العاصمة، وصادف أن ألقت مصالح الأمن القبض على طالب من عائلة فروخي، وهو بصدد عرض قصاصات الاكتتاب على المواطنين، ولما استنطقته أقر لها

(9) مصطفى فروخي من أقطاب "التيار المركزي" في حزب الشعب – حركة الانتقال – توفي في حادث طائرة عام 1961، وهو في طريقه إلى بكين كسفير للحكومة المؤقتة.

بأن الأستاذ أحدادن هو الذي زوده بها، ولهذا السبب استدعته الشرطة وحققت معه في الأمر.

هذه الحادثة أثارت شكوك الأمن حوله، فأصبح محل مراقبة دائمة تقريبا، وقد عرف لاحقا أن السبب في ذلك، يعود أيضا إلى العثور على اسمه ضمن قائمة، ضبطت مع الشهيد بوجمعة سويداني عند مقتله في بداية 1956.

وفي ماي من نفس السنة، تمكن من عقد أول اتصال بثوار الناحية وبمسؤوليها سي البغدادي شخصيا[10] وكان ذلك بواسطة محمد الطيب العلوي... وتم اللقاء بمنزل هذا الأخير.. وقد كلفه مسؤول الناحية بنقل عدد من الرسائل إلى العاصمة، وكانت نقطة الاتصال بالقرب من قرية زوغارة.

وفي غضون يونيو الموالي، بينما كان المدرس أحدادن بالعاصمة في إطار هذه المهمة، داهمت الشرطة مسكنه ثم بقيت تترصده.. فلما عاد ألقت عليه القبض، لتسلمه قرار نفيه إلى وهران الذي يتضمن أيضا منع الإقامة بكل من عمالتي الجزائر وقسنطينة[11]. وعندما حل بوهران مسكت به شرطة محطة القطار حتى العاشرة ليلا، قبل أن تخلي سبيله مرفوقا بعبارة ثقيلة الدلالة: «أنت حر، لكن لسنا مسؤولين عن حياتك!» لم يسبق للمدرس الطريد أن زار وهران، ولم يكن من الممكن في تلك الظروف أن يتصل ببعض معارفه بها.. لذا فكر في الهروب بجلده إلى مرسيليا.. وهذا ما فعل في صبيحة اليوم الموالي عن طريق ميناء المدينة.

(9) سي البغدادي اسمه الحقيقي أحمد عليلي، استشهد في آوت 1958 بالولاية الخامسة.
(11) كانت الجزائر مقسمة إداريا يومئذ إلى ثلاث عمالات: الجزائر – وهران – قسنطينة، فضلا عن أقاليم الجنوب الخاضعة للحكم العسكري المباشر.

من مرسيليا التحق بباريس، وحاول تجديد صلاته بالثورة هناك، لكن الحظ لم يحالفه! لقد اتصل ببلعيد عبد السلام المسؤول الطلابي، لكن يبدو أن علاقاته باتحادية الجبهة هناك لم تكن حسنة، لذا بدل أن يعرض عليه الالتحاق بالاتحادية، اقترح عليه الاتصال بالمحامي الفرنسي ستيب [12] لمعالجة قضيته الخاصة كمدرس طرد من التعليم وأبعد من الجزائر!

وكان له شقيق بباريس من جماعة محمد حربي [13] لم يرد مكاشفته في موضوع الثورة، رغم أنه كان يلمح له بأنه على صلة باتحادية الجبهة!.

وكان أحدادن يعرف أحمد طالب الإبراهيمي، لكنه لم يكن يعرف علاقاته بالاتحادية يومئذ!

أمام هذا الانسداد استنجد المدرس الطريد بصديق سابق يقيم بالمغرب هو الشيخ الهاشمي التيجاني [14] الذي يسرّ له سبيل الالتحاق إلى المغرب، لكن الظروف شاءت أن يجد نفسه بتونس في سبتمبر 1956 أي في أجواء الخلافات الحادة القاتلة التي أعقبت الإعلان عن نتائج مؤتمر الصومام!

هذه التجربة القاسية جعلته يستخلص، أن تجديد الاتصال بحبل الثورة صعب جدا متى انقطع بصاحبه!

ولحسن الحظ أن الشيخ التيجاني كان على صلة بنظام الجبهة في المغرب وبسي علال شخصيا [15] وبفضله استطاع أحدادن أن يستأنف

(12) ستيب وحرمه محاميان فرنسيان من أصدقاء الحركة الوطنية الجزائرية.
(13) كان حربي محسوبا على التيار الشيوعي التروتسكي.
(14) أستاذ جامعي معروف، توفي بالعاصمة في جويلية 2002.
(15) طالع شهادته في هذا الكتاب ص19.

مسيرته النضالية ضمن خلية كان من بين أعضائها عدد من أعيان الجزائريين بالرباط.

كان النشاط في هذه الخلية يبدو بسيطا للمدرس القادم من الجزائر، قياسا بما كان يعيش داخل البلاد. وذات يوم طرح الأمر على سي علال، فقام بتوجيهه إلى تيطوان للعمل ضمن فريق صحيفة "المقاومة"[16] كان ذلك في أواخر يناير 1957 وقد وجد بتيطوان جوا آخر، أكثر استجابة لميوله ومطامحه... كان على رأس الفريق علي هارون ومن أعضائه الحسين بوزاهر [17] عياد البوعبدلي [18] محي الدين موساوي. ويقول الشاهد في هذا الصدد: «لقد ارتحت لهذا الجو الثوري السري الذي كان يحمل بصمات المناضل محمد بوضياف، وقد زاد من نكهة هذا الجو تخوفنا من تهديد "اليد الحمراء"[19]».

كانت النسخة الفرنسية من "المقاومة" تطبع في شركة إسبانية، وكان التصفيف يتم بوسائل بدائية، الأمر الذي يجعل أعداد العدد الواحد يستغرق عشرة أيام.

كان نشاط فريق "المقاومة" يتم تحت مراقبة سي مبروك (بوصوف) المشددة وقد بلغه ذات يوم أن أحد عناصر الفريق لا يتقيد كثيرا بأمور الانضباط و«السيرة الثورية»! خشي سي مبروك أن تكون الظاهرة عامة فكلف الزبير [20] بالتحقيق في الأمر. جاء هذا الأخير وأقام مع عناصر

(16) المقاومة كانت تطبع في تيطوان وباريس وتونس.
(17) ابن الشيخ زهير الزاهري.
(18) شقيق الشيخ المهدي البوعبدلي.
(19) غطاء لعمليات مخابراتية تستهدف اغتيال وطنيين بالمغرب العربي.
(20) النقيب الزبير المعروف بالولاية الخامسة، أعدم لتمرده على قيادة الحدود الغربية.

الفريق 15 يوما في حدود أبريل 1957.. وبناء على تقريره جمع سي مبروك فريق "المقاومة" وعمال إذاعة الثورة بتيطوان. ومختلف المصالح التابعة لمصلحة الإعلام بشكل أو بآخر بما في ذلك الشيخ علي مرحوم.

ويقول محدثنا في هذا الصدد: «أن بوصوف أقام لنا ما يشبه المحاكمة، ولحسن الحظ أن المعني بالأمر رفع علينا الحرج باعترافه ومع ذلك فرض علينا ما يشبه الإقامة الجبرية! ونظرا لحداثة عهدي بالفريق – نسبيا– وشفاعة سي علال لي، فقد أصبحت العنصر الوحيد الذي يقوم بمختلف الاتصالات المتعلقة بالجريدة التي تواصل إصدارها في مثل هذه الظروف القاسية!».

وعندما مر عبان بتيطوان في ماي / جوان من نفس السنة عقب معركة الجزائر وجد أحدادن ورفاقه في تلك الحالة، فطلب من بوصوف أن يخفف عنهم.

وفي جويلية 1957 جاء إلى تيطوان بن يوسف بن خدة وسعد دحلب، يحملان قرار تعويض طبعات "المقاومة" الثلاث بصحيفة "المجاهد" وكانا مرفوقين بمحمد الميلي مسؤول الطبعة العربية وفرانز فانون مسؤول الطبعة الفرنسية.

واصل أحدادن عمله بالمجاهد، مثلما كان في "المقاومة" إلى غاية نوفمبر 1958، عندما تقرر نقل الصحيفة إلى تونس مع بقاء خلية في تيطوان.. وقد عين على رأس هذه الخلية ثم ما لبث أن كلف إلى جانب ذلك، بالتنظيم في ناحية تيطوان من اتحادية الجبهة بالمغرب.

كانت تيطوان يومئذ حسب قوله مركزا هاما جدا للثورة ومصالحها.. فقد كانت بها مصانع للأسلحة والذخيرة ومصلحة للشفرة، ومستراح

بالعرائش، ومركز لتسفير عناصر اللفيف الأجنبي إلى بلدانهم، بعد تهريبهم من جيش الاحتلال الفرنسي.. كما كانت نقطة عبور للأسلحة المهربة عن طريق إسبانيا..

وكان بها أيضا سجن مركزي، كان محدثنا يزوره بين الفينة والأخرى بدعوة من مديره المدعو الصادق، وكانت تربطه به علاقة طيبة.

ويذكر في هذا الصدد أنه زار السجن ذات يوم فوجد به جماعة من بينها عرباوي واعراب بالسعود والدكتور العربي الدمرجي.. كانت هذه الجماعة في حالة معنوية يرثى لها، وكانت تقول أن بومدين هو الذي أمر بحبسها بتهمة "التآمر".

أشفق مسؤول ناحية تيطوان على هذه الجماعة، فأرسل بشأنها برقية إلى القيادة بالحدود، وبناء على ذلك جاء العقيد دهيلس وأفرج عنها..

سألت محدثنا عن تصفية عبان في ضواحي تيطوان بالذات وكيف علم بذلك. فكان جوابه: بعد صدور المجاهد[(21)] وعلى غلافه صورة ونبأ «استشهاد» عبان، ناداني الصادق مسؤول السجن الذي هو في حقيقة الأمر مزرعة، وكان في حالة اضطراب نفسي واضح، ليريني قبرا مشيرا إليه على أنه قبر عبان، ومقرا في نفس الوقت بالمشاركة في تصفيته، وكان يردد:« لم أكن أعرف أنه عبان!».

بعد تشكيل الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958، بدأ إيحدادن يشعر بظاهرة البيروقراطية وزحفها الخانق، ويعبر عن ذلك بقوله:« أصبح الجو رتيبا كريها، وأخذت أحس مع مرور الأيام أنني موظف في الجبهة ولم أكن مناضلا بأتم معنى الكلمة!».

(16) المجاهد عدد 24 / 29 ماي 1958.

وصاحب ذلك بروز ظاهرة الزبائنية، والتعيين في المناصب على أساس الولاءات الشخصية أو الحزبية، وما يرافق ذلك من تناحر على المناصب ذاتها، وتفشي منطق «دعه يفشل»! بدل التعاون الصادق من أجل نجاح الثورة!

ويسوق الشاهد في هذا الصدد، مثال تعيين فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة لواحد من الموالين له، كممثل للحكومة في قطاع الإعلام بالمغرب والمشاكل المتولدة عن ذلك مع المسؤولين السابقين! وكيف انعكست عليه هذه الصراعات المنصبية، حتى أنه وجد نفسه بعض الوقت مبعدا من الرباط إلى تونس!

وظلت هذه اللعنة تلاحقه حتى بعد وقف القتال: فقد عين على رأس دائرة بضواحي وهران من قبل حكومة بومرداس [22]، لكن مسؤوله بالرباط حجب عنه برقية الاستدعاء للتنصيب!

مثل هذه الأجواء الموبوءة، كان من الطبيعي أن تؤثر معنويا على صاحبنا الذي بلغ الشوط الأخير من سباق الاستقلال وهو مجهد!

وجاءت الخلافات التي أعقبت وقف القتال لتضاعف من تعبه! لقد انزعج لها كثيرا، لما تحمل في طياتها من مضار على مسار الاستقلال والبلاد، ونبه ممثلي الحكومة المؤقتة بأن جماعة بومدين قوية – بالسلاح– ويمكن أن تتغلب عليكم– بالقوة!

لذا لم يكن ليتفاءل كثيرا بمحاولة الرائد موسى بن حامد [23] التي كان رأيه فيها، أنها جاءت بعد فوات الأوان!

---

(22) الهيئة التنفيذية المؤقتة المشكلة بموجب اتفاقيات إيفيان لتسيير المرحلة الانتقالية من وقف القتال إلى الاستقلال.

(23) حاول الرائد بن حامد الاستفادة من استقالة هيئة الأركان لتعويضها، لكن بدون جدوى.

كل هذه العوامل اجتمعت في نفسية المجاهد إحدادن لتشكل حافزا خفيا على الطلاق مع السلطة البديلة– للحكومة المؤقتة– وممارساتها المبكرة. وقد عبر عن ذلك بالعودة غداة الاستقلال إلي الجزائر بوسائله الخاصة!.. عاد فمكث عند أخيه بالكاليتوس بعض الوقت، فلم يسأل عنه أحد!

وفي سبتمبر تذكر حرفته القديمة (التدريس)، فذهب إلى أكاديمية العاصمة التي «تفضلت» بتعيينه أستاذا بثانوية الإدريسي!

هذا الاختيار الذي يحمل بوادر طلاق بائن مع نظام الحكم الوليد، تأكد بانضمام أحدادن إلى رائد المعارضة الجديدة محمد بوضياف، الذي أسس في منتصف سبتمبر 1962 «حزب الثورة الإشتراكية»..

ولم يكتف بذلك! بل شارك أيضا في تأسيس جمعية القيم رفقة صديقه الهاشمي التيجاني، وذلك بهدف «التصدي للهجمة التغريبية» حسب قوله..

غير أن معارضة الأستاذ إحدادن ظلت في حدود المعارضة السلمية المثقفة.. حسب منطق «لست متفقا مع السياسة المتبعة! لكن ذرهم يفعلون»! حسب قوله لكن ترى من هؤلاء؟!

إنهم الذين «جاءت بهم الريح» حسب تعبير بوصوف! أي أولئك «المغامرون الذين التحقوا بالركب بدون اقتناع»، لينسجوا خيوط هذا الفراغ المهول الذي تعيشه الجزائر اليوم!

● تركي رابح عمامرة

– ولد تركي رابح عمامرة بسطيف في 15 سبتمبر 1932، وبها ترعرع وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وكان إلى جانب ذلك ينشط في الكشافة الإسلامية الجزائرية.

– التحق بجامع الزيتونة سنة 1946، وتخرج منه حائزا على شهادة التحصيل. وبفضل هذه الشهادة بدأ التدريس بمدرسة جمعية العلماء بسطيف.

– التحق بكلية دار العلوم في القاهرة خلال الموسم 52 – 1953، وهناك تعرف على عدد من الطلبة الجزائريين الذين أصبح لهم شأن لاحقا أمثال الطالب محمد بوخروبة (هواري بومدين).

– غداة إعلان الثورة وجد نفسه تلقائيا في مكتب أعلام جبهة التحرير، بحكم سابق علاقاته بإذاعة "صوت العرب" خاصة. وقد ساهم انطلاقا من هذا الموقع في إعداد جملة من الدراسات والتحقيقات الميدانية التي تقتضي الانتقال من حين لآخر إلى الحدود التونسية الجزائرية.

– ساهم في تأسيس أعلام الجزائر المستقلة انطلاقا من صحيفة "المجاهد" ثم "الشعب"، قبل أن يعود إلى هوايته القديمة: التحصيل والتعليم.

– استأنف الدراسات العليا بدءا من 1965 – 1966، ليتوجها بالحصول على شهادة الدكتوراه في التربية التي أصبح من كبار المتخصصين فيها.

– للدكتور عمامرة عدة مؤلفات في ميدان تخصصه وحول جمعية العلماء ومؤسسها الأول الإمام عبد الحميد بن باديس.

1 – عندما كان بومدين "لوحة للبؤس"!

نستعرض في هذه العجالة مع الدكتور تركي رابح عمامرة صورا للبؤس قبل ثورة التحرير المباركة.

– البؤس التربوي، من خلال تدريس تاريخ الجزائر بالمدارس الحرة تحت غطاء "نواقض الوضوء..!" والقفز على "باب الجهاد" بجامع الزيتونة لأن تدريسه كان محظورا!

– البؤس العام، من خلال صورة الطالب بوخروبة الذي كان الشاهد يرى فيه وهو بالجامع الأزهر لوحة معبرة عن الفقر!"(*)

ولد تركي رابح عمامرة بسطيف عام 1932، وبها ترعرع وتعلم مبادئ القراءة والكتابة بالعربية وكان يتردد في تعليمه على مدرستين: واحدة تابعة لجمعية العلماء والثانية تابعة لحزب الشعب الجزائري، وسبب ذلك أن ادارة الاحتلال كانت من حين لآخر تغلق احدى المدرستين فينتقل التلاميذ إلى الثانية. وهكذا دواليك!

ونظرا لإمكانيات الاستقبال المحدودة، كانت فترة التدريس تمتد يوميا من السابعة صباحا إلى العاشرة مساء، لاستيعاب أكبر عدد ممكن من الأطفال الذين تضيق أمامهم أو تلفظهم مدارس الاندجين الفرنسية[1].

وكان تلاميذ المدرستين يستعملون كراريس كتب عليها شعار الإسلام ديننا – العربية لغتنا – الجزائر وطننا ، وكان تدريس تاريخ

(*) "الفجر" عدد 22 و 29 يوليو 2002.

(1) كانت هناك مدرستان فرنسيتان: واحدة خاصة بأبناء المستوطنين وأخرى بأبناء المسلمين (الأنديجان)، وقد ألغي هذا النظام سنة 1949.

الجزائر محظورا فكان بعض المعلمين يتحايلون على ذلك بتدريس هذه المادة الخطيرة تحت عنوان فرائض الصلاة أو نواقض الوضوء !

وقد استكمل التلميذ رابح عمامرة تربيته الوطنية في الكشافة الاسلامية الجزائرية التي أضافت إلي تكوينه الأساسي بعدا نضاليا ونظاميا ولقنته مصطلحات جديدة مثل: الوطنية الاصلاح، الاندماج، التجنس.. إلخ وغيرها من المصطلحات السياسية التي كانت محصورة التداول، في الأوساط ذات العلاقة بالنشاط السياسي بكيفية أو بأخرى.

وفي سنة 1946 التحق بجامع الزيتونة، وكان السفر إلى تونس مغامرة في حد ذاتها!

فقد كان تنقل الجزائريين داخل البلاد يخضع إلى ترخيص مسبق ولم يكن متاحا لتلميذ في وضعية تركي رابح أن يحصل على جواز مرور إلى تونس، فاكتفى بجواز إلى تبسة! وهناك اكتشفت الشرطة أمره، فألقت عليه القبض لتعيده من حيث أتى!

لكن في الطريق إلى سطيف نزل من الحافلة وعاد إلى تبسة خفية، ليتصل بمدرسة جمعية العلماء فيها.. وقد وجد لدى مديرها المساعدة المنتظرة.. وهكذا تمكن من دخول تونس، عبر سوق تالة الاسبوعي رفقة المتسوقين العائدين إليها.

وبتونس اجتاز مسابقة الدخول إلي جامع الزيتونة بنجاح. ووجد هناك زعيلا من طلبة جمعية العلماء من أمثال شيبان وحماني وأحمد الحسين، فضلا عن عبد الله شريط وغيرهم. وفي العاصمة التونسية وجد الطالب الجديد مجالا رحبا للتحصيل، سواء في رحاب الزيتونة والمدرسة الخلدونية أوفي المحيط المتمثل في وفرة الكتب والصحف،

فضلا عن الأجواء السياسية المناسبة. كما وجد جمعية الطلبة الجزائريين التي كانت تقوم بنشاط ثقافي متنوع، ولها علاقات مع الحركة الوطنية التونسية.. وكان جامع الزيتونة ذاته، مجمعا لتيارات وطنية من مختلف المستعمرات الفرنسية، سواء بالمغرب العربي أو بافريقيا عامة.

لكن رغم كل هذه الأجواء والحرية النسبية- قياسا بالجزائر- فقد كان محظورا على اساتذة العلوم الاسلامية بالزيتونة أن يدرسوا باب الجهاد! ومايزال الطالب تركي رابح يذكر أن استاذ المادة، عندما يصل إلى هذا الباب يقول لطلبته بكل بساطة هذا الباب ممنوع علينا تدريسه !

وفي الزيتونة اكتشف الطالب أيضا شعر المتنبي الحماسي، وأعجب به إلى درجة أنه يقول أنه تعلم الوطنية عليه !

وفي أجواء نكبة فلسطين في ربيع 1948 تحمس الطالب وسعى فعلا إلى الالتحاق بها، للمشاركة في مقاومة الاحتلال الصهيوني، وقد استأجر رفقة لفيف من الطلبة العرب والمسلمين مركبا من ميناء صفاقس، ليقلهم إلى مصر على أن يلتحقوا منها بفلسطين. لكن الربان نتيجة خلل، في بوصلة المركب، قادهم في اتجاه معاكس تماما، ليجدوا أنفسهم في قبضة حرس السواحل الايطالية بالقرب من جنوة!

وقد تولى الأمن الايطالي ترحيلهم إلى طرابلس، قبل تسليمهم إلى السلطات الفرنسية التي حاكمتهم بصفاقس. وكان نصيب تركي رابح خمس سنوات سجنا مع وقف التنفيذ لصغر سنه.

هذه المرة أعيد الطالب فعلا إلى سطيف، ليكلف ذويه أعباء الغرامة التي سلطت عليه في المحاكمة وقدرها 100 ألف فرنك (قديم).

ويقول في هذا الصدد: أن أهله اضطروا لجمع هذا المبلغ الباهظ إلى بيع كل مايملكون من الماشية.

غير أن هذه المغامرة ومضاعفاتها لم تمنع المعاقب من العودة إلى جامع الزيتونة والتخرج منه في نهاية موسم 50–1951 حائزا على شهادة التحصيل.

وبفضل هذه الشهادة التحق بمدرسة جمعية العلماء بمسقط رأسه خلال الموسم الموالي.

وكان وفد من جمعية العلماء قد قابل بباريس وزير خارجية مصر الدكتور محمد صلاح الدين، على هامش الجمعية العامة للأمم المتحدة في أواخر 1951 أوائل 1952.

وقد طلب إليه بالمناسبة بعض المنح لطلبة الجمعية الراغبين في مواصلة دراستهم الجامعية، فوعد بالنظر في المسألة عند العودة إلى بلاده.

وفعلا مالبثت الجمعية أن تلقت عرضا بـ 10 منح من وزارة المعارف. كان تركي رابح من المرشحين للاستفادة بواحدة من تلك المنح. وقد التحق بالقاهرة فعلا في بداية الموسم الجامعي 52–1953 وتمكن بعد جهد جهيد من التسجيل في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة التي دخلها بعد أجراء مسابقة، لأن وزارة المعارف – التي كان على رأسها يومئذ الدكتور طه حسين – لم تكن تعترف بشهادة التحصيل الصادرة عن جامع الزيتونة!

أخذ طالب دار العلوم يتابع دراسته الجامعية بشغف، لم يكن يكتفي ببرنامج الدار والنشاطات الهامشية بها، بل كان يتابع ما يجري خارجها من محاضرات.. ومنها ماكان يلقى في رحاب جامع الأزهر. وفي الكليات

الأخرى، لاسيما محاضرات شيخ الأزهر محمود شلتوت وطه حسين وأحمد أمين.. الخ.

وفي أروقة الأزهر، تعرف على طالب جزائري سبقه إلى القاهرة يدعى محمد بوخروبة. كان يتابع دراسته في ظروف مادية قاسية، إلى درجة أنه يصف الصورة الأولى التي ارتسمت بذهنه عنه بقوله: لو أن رساما ما رغب في رسم لوحة معبرة عن الفقر، لما وجد أحسن من صورة بوخروبة في ذلك العهد!

فقد كان يعيش بمنحة من الأزهر قدرها جنيه ونصف شهريا.

كان الشيخ الابراهيمي قد حل بالقاهرة للإقامة هناك خلال نفس الموسم، فكلف تركي رابح بتولي شؤون بعثة الجمعية. وقد أوصاه بالبحث عن الطلبة الجزآئريين المحتاجين إلى مساعدة، ولو كانوا من غير طلبة البعثة.

وبهذه الصفة وهذا التكليف اتصل بالطالب الحر بوخروبة، وعرض عليه المساعدة فقبلها ممنونا.

كان بوخروبة كبير السن (20 سنة)، ولم يكن يحمل أية شهادة فطرح تركي رابح حالته على وزارة المعارف (التربية) فوجهته إلى المدرسة الخديوية (إكمالية– ثانوية) الواقعة بين حي السيدة زينب ودار الكتب المصرية. رحب مدير المدرسة بالطالب الجزائري، لكن نظرا لكبر سنه وطول قامته اشترط عليه الجلوس في آخر الصف، وتجنب السؤال أثناء الدرس حفاظا على الانضباط في القسم!

وإذا لم يفهم بعض المسائل، فإن المعلمين تحت تصرفه بعد الدرس.

وقد تم الاتفاق مع مدير المدرسة مقابل هذه الخدمة الخاصة، على دفع جنيهين شهريا يدفعهما الشيخ الابراهيمي.

هذه الوضعية استمرت إلى مابعد اعلان ثورة التحرير في نوفمبر 1954.. وذات يوم ذهب تركي رابح كعادته إلى المدرسة لدفع هذا المبلغ، فقيل له أن بوخروبة لم يظهر له أثر منذ بضعة أشهر..

استمر هذا اللغز إلى أن نشرت أسبوعية المصور، صورا لمجاهدين جزائريين كان من بينهم محمد بوخروبة، لكنه باسمه الجديد: هواري بومدين!

كان تركي رابح إلى جانب الدراسة بدار العلوم ينشط في الحركة الطلابية بالقاهرة، وعلى هذا الأساس كان على صلة بجمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا، حريصا على معرفة حال الطلبة بالجزائر.

وقد سأل في ربيع 1954 في رسالة إلى الطالب علي مراد[2] ممثل فرع العاصمة للجمعية المذكورة، عن عدد الطلبة الجزائريين وتوزيعهم حسب الكليات والمعاهد. وتضمن رد هذا الأخير بتاريخ 23 أفريل 1954 المعلومات التالية:

– كلية الآداب: 80 طالبا (من بينهم 14 طالبة)

– كلية الحقوق: حوالي 60 طالبا (من بينهم طالبة واحدة)

– كلية العلوم: 60 طالبا (من بينهم 3 طالبات)

– كلية الطب: 65 طالبا (من بينهم 3 طالبات)

– كلية الصيدلة: 20 طالبا (من بينهم 3 طالبات)

– معهد الدراسات الاسلامية العليا: 30 طالبا

– مدرسة تكوين القابلات والممرضات: حوالي 20 طالبة.

(2) صاحب كتاب "الحركة الإصلاحية في الجزائر: من 1925 إلى 1940".

أي أن مجموع الطلبة والطالبات يومئذ لم يكن يزيد عن 330 من مجموع 4500 طالب بجامعة الجزائر.

وقد ارفق علي مراد رده هذا بتكليف تركي رابح، كي يمثل جمعية الطلبة بالجزائر في مؤتمر طلبة المشرق، مشترطا عليه– كما جاء في نص التكليف – أن يراعي دائما في القول والفعل موقف الطالب الجزائري المستعمر. وختم التكليف بالعبارات التالية: "وترجوه جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا أن يبلغ تحياتها الودية لإخواننا طلبة المشرق العربي، ويترجم عن عواطفنا المخلصة نحوهم وأملنا في استرجاع مجدنا وإحياء قوميتنا. فليحيا شباب المشرق! وليحيا شباب الجزائر عربا أحرارا!".

سألنا محدثنا عن ملابسات انضمامه إلى جبهة التحرير الوطني بالقاهرة. فكان جوابه: "أنه بحكم نشاطه في الحركة الطلابية كان على صلة بمكتب المغرب العربي قبل اندلاع الثورة، حيث كان يلتقي بممثلي حركة الانتصار هناك وفي مقدمتهم الثلاثي: خيضر – آيت أحمد– بن بلة.

فلما أندلعت الثورة والتحق بها هؤلاء، وجد نفسه يسير تلقائيا في ركابهم.

وقد انضم تلقائيا أيضا منذ البداية إلى مكتب الاعلام التابع لجبهة التحرير، بحكم سابق علاقاته باذاعة "صوت العرب"..

2- بومدين: أماجستير.. وليس بين أعضاء مجلس الثورة من يحمل بكالوريا؟!

يقدم لنا الدكتور تركي رابح عمامرة في الحلقة الثانية من شهادته صورة عن أعلام الثورة وعن المقص أيضا الذي لم ينج منه زعماء كبار أمثال كيوان وفرنسيس! ولا فيلسوف كبير مثل مالك بن نبي!

غداة اندلاع ثورة فاتح نوفمبر 1954، تكونت بالقاهرة خلية إعلام لتنشيط الدعاية لها، انطلاقا من إذاعة صوت العرب أساسا.. كانت هذه الخلية تتمحور حول محمد خيضر، عضو الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني المكلف بالشؤون السياسية[3].

وكان الطالب تركي رابح عمامرة ينشط معها، نظرا لسابق علاقاته بصوت العرب، وبأعلام الحركة الوطنية في الجزائر قبل ذلك فقد كان منذ أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، يكتب في صفيحة الحياة التي تصدرها الكشافة وفي المغرب العربي التي كان يديرها السعيد الزاهري ثم عبد الحميد مهري بعده.

في البداية كان النشاط الإعلامي لهذه الخلية، يتم في إطار ركن المغرب العربي الذي يبث من إذاعة صوت العرب يوميا على الساعة العاشرة ليلا. وفي ربيع 1956 تعززت هذه الخلية بعناصر حديثة من الذين التحقوا بالوفد الخارجي للثورة، وفي مقدمتهم عبد الرحمان كيوان وتوفيق المدني وأحمد فرنسيس..

(3) كان بوضياف وبن بلة يتوليان الشؤون العسكرية، بينما كان آيت أحمد يتولى الشؤون الديبلوماسية.

كان الطالب تركي رابح المتطوع في خلية الاعلام، لم ينه دراسته الجامعية بعد.. وفي يونيو من نفس السنة أنهى الطور الأول بالحصول على شهادة ليسانس من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

فكر أول وهلة في الالتحاق بالكفاح المسلح. لذا طلب من وفد جبهة التحرير أن يأذن له بالتدريب على الفداء. واستغل فترة العطلة الصيفية للتدريب على الأسلحة وفنون القتال، استعدادا لدخول الجزائر عن طريق الريف المغربي الذي كان تحت الحكم الإسباني يومئذ. وقد فعل ذلك قبله عدد من طلبة القاهرة، من بينهم محمد بوخروبة (هواري) بومدين الذي تسلل على مركب «دينا» في ربيع 1955، مع شحنة الأسلحة الأولى التي تدخل المنطقة الخامسة.

لكن جاءت حادثة حجز الباخرة أتوس بالشواطئ الغربية[4] للبلاد ثم اختطاف طائرة الوفد الخارجي للجبهة في شهر أكتوبر 1956 لتؤجل عملية إرسال الطلبة عبر الشبكة الغربية، وكانت باخرة أتوس تحمل شحنة هامة من الأسلحة، فضلا عن عدد من الطلبة كان من بينهم الهادي حمدادو ومحمد الصباغ[5].

وفي تلك الأثناء حاول الطالب تركي رابح مواصلة الدراسات العليا في معهد التربية بلندن، بعد أن تحصل بمبادرة خاصة على منحة من بريطانيا.. لكن بعد أشهر معدودة جاءه "تنبيه" من ممثل جبهة التحرير بأوربا، مفاده أن الدراسات العليا في تلك الظروف "ضرب من الترف" لا سيما بعد 19 مايو 1956. امتثل لهذا "التنبيه" وعاد أدراجه إلى القاهرة،

(4) تم حجز الباخرة في 16 أكتوبر 1956 بشواطئ غرب البلاد.

(5) سفيران سابقان.

ليستأنف نضاله في مكتب الصحافة والإعلام الذي أعيد تنظيمه بعد مؤتمر الصومام، ووضع تحت إشراف الشيخ توفيق المدني..

كلف العضو الجديد بتحرير الشؤون العربية، ومن الذين رافقوه في تلك الفترة محمد القصوري وعبد القادر معاشو..

كان مكتب الإعلام آنذاك يعد حديثا يوميا، يبث ليلا من إذاعة "صوت العرب" تحت عنوان "وفد جبهة التحرير يخاطبكم من القاهرة". كان هذا الحديث في البداية بالعربية فقط، ثم أصبح يبث كذلك بالفرنسية في ساعة متأخرة من الليل. وكان يعد الحديث بالفرنسية كل من كيوان وفرنسيس..

وحسب الشاهد أن هذه الأحاديث لم تكن تنج دائما من الرقابة وكان ذلك مثار احتجاجات متكررة، تؤدي أحيانا إلى انقطاعها طيلة أسبوع كامل.

وفي غضون 1957، انضمت عناصر جديدة إلى مكتب الإعلام، منها مالك بن نبي وعبد القادر بن قاسي، وتوسعت المصلحة الفرنسية إلى محامين أمثال بن يحيى وحاج حمو، ونافع رباني، ومناضلين أمثال إبراهيم غافر وعدة بن قطاط..

ويؤكد محدثنا بخصوص مالك بن نبي «أنه كان معنا ولم يكن في نفس الوقت!» وبعبارة أوضح أن ما كان يكتبه لا يذاع في معظم الأحيان.. وسبب ذلك «أنه لم يكن يتقيد بالتوجيهات، وكان يكتب بلغة غير إعلامية، لا تفيد كثيرا في مخاطبة الجماهير!».

وقد اختير بن قاسي لإلقاء الحديث اليومي من صوت العرب لتميز صوته وحسن إلقائه.. وقد تداول الإشراف على مكتب الإعلام بعد توفيق

المدني، كل من الطيب الثعالبي[6] وسعد دحلب الذي يقول عنه محدثنا: «أننا استفدنا منه كثيرا، واستفاد منا أيضا في إتقان العربية».

وبعد تشكيل الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958، أصبح المكتب تابعا لوزارة الإعلام، وأصبح الحديث اليومي بناء على ذلك يبث تحت عنوان "صوت الجمهورية الجزائرية يخاطبكم من القاهرة».

وقد تعددت مهام المكتب وتنوعت مع مر الأيام، حتى أصبحت تشمل الردود على ما ينشر في الصحف أو يبث في الإذاعات حول حقائق الثورة الجزائرية وتقديم التوضيحات الضرورية، فضلا عن إعداد الدراسات حول قضايا معينة وإجراء تحقيقات حول "الجميلات الثلاثة"[7]، والحركة النقابية والكشفية، فضلا عن الاتصال بالصحافيين المعتمدين بالقاهرة وتزويدهم بالمعلومات اللازمة..

كان تركي رابح يشارك في تلك الدراسات والتحقيقات، فكان لذلك ينتقل من حين لآخر إلى الحدود الجزائرية التونسية... وكان ذلك مناسبة لمقابلة رفيقه السابق هواري بومدين الذي بدأ نجمه يتألق في كوكبة قيادة الثورة الجزائرية.. ومن الضباط الذين كان يلتقي بهم في غار الدماء خاصة عبد الغني، بن جديد، زرقيني..

وكان بومدين بدوره عندما يحل بالقاهرة، يزور رفيقه الصحفي، ويقيم عنده أحيانا، نظرا لوضعه المريح نسبيا: فقد كان يستأجر "شقة مفروشة"، ويتقاضى مرتبا محترما من جبهة التحرير، ومن التعاون مع الصحافة المصرية خاصة..

(6) طالع الفجر عددي 8 و15 يوليو 2002.
(7) هن بوحيرد وبوباشا وبوعزة.

استمر تركي رابح يؤدي مهامه في إعلام الثورة بالقاهرة –ثم بتونس– إلى غاية يونيو 1962. حين تلقى أمرا بالدخول إلى الجزائر، وكانت المصادفة أن دخل رفقة النقيب الشاذلي بن جديد على متن سيارة "جيب"، كانت تسير على الحدود والألغام تنفجر من حولها حسب قوله..

كانت المحطة الأولى قسنطينة، للمشاركة مع طاقم المجاهد في إصدار الطبعة العربية التي كان على رأسها محمد الميلي، ومعه محمود حمروش كمسؤول إداري. لكن أجواء حملة استفتاء تقرير المصير ما لبثت أن جذبت تركي رابح ورفاقه فوجدوا أنفسهم دون أن يشعروا يشاركون في المهرجانات الشعبية بالمدينة وضواحيها، بل بالكتابة على الجدران أيضا!

بعد الاستقلال مباشرة، انتقل محدثنا إلى العاصمة مع طاقم المجاهد (الأسبوعية)، ليواصل مهمته الإعلامية في العهد الجديد.. لكن ميوله التربوية جعلته يعيش مرحلة توزع بين الإعلام والتربية، بين المجاهد والوزارة، إلى أن استقر في نهاية المطاف في رحاب الجامعة كمعيد بالمدرسة العليا للأساتذة (ابتداء من موسم 1964–1965).

وفي تلك الأثناء لم يقطع تركي رابح علاقته ببومدين وزير الدفاع والرجل القوي، فقد ظل يتعاون معه ويقابله بين الفينة والأخرى.. وفي يوم إفريقيا (مايو 1964؟) قابله بساحة الشهداء خلال مهرجان شعبي بالمناسبة وكان مرفوقا بالرئيس بن بلة – فناداه على حدة وقدمه لوزير التربية آنذاك بلقاسم الشريف، وطلب إليه الاتصال به.. ولم تمض غير أيام حتى استدعاه "سي جمال" فعلا، للعمل معه كمستشار في شؤون التربية..

أصبح محدثنا من المقربين إلى سي جمال، حتى أنه كان يصطحبه من حين لآخر خارج أوقات العمل، في جولات للفسحة بمنطقة الساحل الجميلة المريحة. وذات يوم من يونيو 1965، أسر إليه وهما يتفسحان في سيارة الوزير قائلا: «يمكن أن نحتاجك في مهمة خاصة بعد 15 يوما!»..

وبعد أسبوع من ذلك، كان المستشار رفقة وزيره بمكتب الرئيس بن بلة في "فيلا جولي"، يحتسون كؤوس الشاي، ويتداولون في موضوع التعليم بالمناطق الصحراوية، وكانت الأمور تبدو عادية تماما، "سمنا على عسل" حسب قوله!

لكن ليلة 19 يونيو، استيقظ المستشار على رنين الهاتف في الساعة الواحدة.. وإذا بسي جمال على الخط يقول: «استعد فورا وأنزل ستجد سيارة في انتظارك عند باب العمارة!»

نزل تركي رابح مسرعا، وعند مرور السيارة بساحة الشهداء، لاحظ وجود الدبابات على غير المألوف، فأدرك أن الأمر يتعلق بانقلاب عسكري، ولما وصل مقر الوزارة (الحالية)، وجد هناك الشيخ عبد الرحمن شيبان. وعند استقبال الوزير له قال باختصار: «أنت تفهمنا ونحن نفهمك لذا فأنت مكلف بالإعلام!»

وهكذا وجد محدثنا نفسه من بين المشرفين على الإعلام في العهد الجديد.. لكن إلى حين فقط، لأن اختياره التعليم الجامعي أمسى لا رجعة فيه، لقد اشترط على بومدين ورفاقه مساعدتهم إلى أن تستتب لهم الأمور وتعود المياه إلى مجاريها، على أن يأذنوا له مقابل ذلك باستئناف دراسته العليا في أجل مسمى.

بعد نجاح الانقلاب عين بلقاسم الشريف على رأس اللجنة التنفيذية[8] للحزب فاصطحب معه مستشاره السابق للإشراف على الإعلام الحزبي خاصة. وقد مكث بهذا المنصب لغاية أكتوبر 1965.. حين هتف له هواري بومدين رئيس مجلس الثورة والحكومة ليسأله: «أما زلت على قرارك؟ ألا ترغب حقا في مواصلة المشوار معنا؟».. وكان الجواب مزيدا من الإصرار على مواصلة الدراسات العليا عندئذ قال له: «هيئ نفسك للسفر!»

فكانت المنحة، وكان السفر.. واختار صاحبنا القاهرة، ليعود بعد ثماني سنوات إلى مدرجات جامعة الجزائر، يحمل شهادتي الماجستير ودكتوراه الدولة في علوم التربية.

ويروي في هذا الصدد، أن بومدين لما لاحظ إصراره على خوض مغامرة الماجستير قال له: «أتطلب ذلك وأنت تعلم أن لا أحد من أعضاء مجلس الثورة يحمل الباكالوريا»[9].

(8) من أعضائها العقداء بوبنيدر، ومحند أولحاج والخطيب وعثمان.. وكلهم أعضاء في مجلس الثورة.

(9) تعميم مبالغ فيه فالخطيب مثلا كان جامعيا طالبا بكلية الطب، قبل الالتحاق بالثورة بعد إضراب 19 ماي 1956.

• الطّاهر بن عائشة

– ولد الطاهر بن عائشة بقمار (وادي سوف) سنة 1925. وبعد نشأة تقليدية بمسقط رأسه– توجت بختم القرآن الكريم– انتقل سنة 1942 إلى تونس لاستكمال الدراسة بجامع الزيتونة.

– احتك قبل 1950 بالأفكار الوطنية التحريرية، بفضل عناصر جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين. وفي هذا الاطار شارك في تنشيط حملة حركة الانتصار بناحية الأوراس، في انتخابات أول مجلس جزائري في ربيع 1948.

– خاض بالعاصمة ابتداء من 1950 تجربة التأليف المسرحي والكتابة الصحفية.. كما تقرب من الحزب الشيوعي الجزائري الذي جعله حسب قوله يكتشف أهمية البعد الإجتماعي في النضال السياسي..

– قبيل اندلاع ثورة التحرير عاد بن عائشة إلى ركاب الوطنية الثورية، وكان من دعاة الكفاح المسلح رفقة قريبه عبد الكريم هالي (السوّفي).

– التحق باتحادية جبهة التحرير بفرنسا، قبل أن يستقدمه عبد الكريم هالي إلى تونس في صائفة 1956، عندما كان الصراع على أشده بين قيادة الداخل (عبان) و قيادة الخارج (بن بلة)

– اكتفى بن عائشة بعد هزيمة قيادة الخارج – باختطاف بن بلة ورفاقه خاصة– بمواصلة النضال على الهامش إلى غاية الاستقلال..

– بعد الاستقلال استأنف مشواره الأعلامي عبر الإذاعة والتلفزة، بعد تجربة موفقة في الإعلام النقابي (الثورة والعمل)..

1- بين الوطنية.. والشيوعية

الطاهر بن عائشة(*) نسيج وحده في النضال! فهو من الطلبة الزيتونيين الذين حملتهم رياح الوطنية والثورة إلى ضفاف حزب الشعب الجزائري، قبل أن تُلقي به في ضفاف الحزب الشيوعي الجزائري.. دون أن يلتحق نظاميا بأي منهما! لأنه باختصار لم يكن يتوفر على حقوق الاشتراك حسب قوله!

في خريف 1942، قرر والد الفتى ابن عائشة -البالغ من العمر 17 سنة- إرساله إلى جامع الزيتونة لمواصلة دراسته، وكان قد ختم القرآن قبل خمس سنوات..

كان القرار مفاجأة كبرى لهذا الفتى الذي كان أفقه الجغرافي، يتوقف عند بلدة وادي سوف التي تبعد عن قرية قمار- مسقط رأسه- بـ 12 كلم، فقد حلّ بتونس قبل أن يزور بسكرة! وكانت أكلة المقرونة من اكتشافاته بالعاصمة التونسية!

أجرى الطالب ابن عائشة مسابقة الدخول إلى الزيتونة بنجاح، وشرع في الدراسة واكتشاف عوالم جديدة من المعرفة بمختلف فروعها.

لكن ماهي إلا أسابيع قليلة، حتى شهدت العاصمة التونسية نزول الجيش الألماني بها، في نفس الوقت الذي نزلت فيه القوات الأمريكية والإنجليزية في الجزائر، أي في 8 نوفمبر 1942.

وبعد أيام معدودة، وجد الطالب الجديدة نفسه رفقة عدد من زملائه أمام ضابط ألماني، يحاول كسبهم لقضية بلاده بمنطق بسيط: اعتماد

(*) الشروق: عدد 30 ديسمبر 2002 و6يناير 2003

قاسم العداء المشترك لكل من الفرنسيين واليهود! ورغم بساطة هؤلاء الطلبة فقد كانوا على وعي بطبيعة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وعلى علم بمساعي الحركة الصهيونية التي كانت ماتزال تحاول احتلال فلسطين.

ويقول ابن عائشة في هذا الصدد:« إن الصدف شاءت أن أتلقى أول درس في الوطنية من الجيش النازي»!

كان هذا اللقاء مدخلا لتعاون ابن عائشة مع النازية التي فتحت أمامه كذلك عالم الإذاعة! فقد وضع الجيش الألماني في متناولهم جهازا للبث، يتصرفون فيه بكامل الحرية مدة ساعة في اليوم.

ولم تمض سوى أشهر معدودة، حتى زحف الحلفاء على تونس وطردوا الجيش الألماني منها. ونظرا لصغر سن الفريق الطلابي، فإن المنتصرين لم يتابعوا عناصره جراء تعاونهم مع النازية!

وفي تونس أيضا تعرف الطالب ابن عائشة على «حزب الشعب الجزائري» من خلال بعض العناصر النشيطة في جمعية الطلبة الزيتونيين.

وبدأ يتعاطف مع أفكاره الوطنية التحررية، وقد استمر هذا التعاطف حتى سنة 1950.

ويذكر الشاهد في هذا الصدد مشاركته في حملة حركة الانتصار، خلال انتخابات أول مجلس جزائري في ربيع 1948. وكان ذلك على مستوى دائرة باتنة، حيث كان الشهيد مصطفى بن بولعيد على رأس قائمة المترشحين.

وقد تدخل في مهرجان بآريس ليقول لجمهور الحاضرين:« إننا لا نعدكم مثل الآخرين بالكهرباء والسكن والعمل وما إلى ذلك! ولكننا نعدكم بشيء واحد، وهو أننا سنعمل كل المستحيلات من أجل تحقيق الاستقلال!!»

وبهذه المناسبة، تعرف على المحامي العيد العمراني، مرشح الحزب الشيوعي الجزائري على نفس الدائرة، وكان قد آزره في جدال كلامي مع ممثل جمعية العلماء الذي كان يدعو لمرشح حزب البيان الدكتور بن خليل..

وفي سنة 1950 نزح ابن عائشة إلى العاصمة، ليجرب حظه في الساحة الثقافية عبر بوابتي المسرح والصحافة.

وكان قد دشّن تجربته المسرحية بالوادي سنة 1947. كانت الوادي يومئذ خاضعة للحكم العسكري المباشر، شأن أقاليم الجنوب عموما.. وكان كل نشاط ثقافي مشروطا بإذن مسبق من أعوان الإدارة العسكرية، وكانوا عادة من الوسطاء الجزائريين.

لكن عندما تقدّم إلى الإدارة يطلب الرخصة، أحيل على القائد العسكري للناحية، وكان يحسن العربية، فأجرى له استنطاقا دقيقا، شمل نص المسرحية وحتى فصولها الغنائية! بحثا عمّا تشتم فيه رائحة الوطنية بدرجة أو بأخرى!

هذه المحاولة الرائدة في مدينة الوادي، تواصلت بالعاصمة في فرقة المكي شباح التي كانت تمثل المسرح الشعبي.. ومن الأسماء التي اكتشفتها هذه الفرقة المطربة سلوى التي سعى ابن عائشة شخصيا لدى والدتها، كي تسمح لها بالمشاركة غي إحدى المسرحيات. وعن طريق

المكي شباح وهو مناضل شيرعي معروف تقرّب ابن عائشة إلى الحزب الشيوعي الجزائري.. وقد تعرف في تلك الفترة على الشاعر الأديب ياسين كاتب، بمناسبة قراءات شعرية نظمت تحت إشراف الحزب الشيوعي بباب الوادي..

وأتاح له وجوده بالعاصمة من جهة أخرى، أن يستأنف مغامرته الصحفية التي كان بدأها بتونس غداة الحرب العالمية الثانية، بالكتابة في بعض نشرياتها كمجلة النهضة.. وكان ذلك من خلال صحيفة عصا موسى لصاحبها السعيد الزاهري، أحد أقطاب الصحافة العربية بالجزائر حينئذ.

وكانت هذه الصحيفة حسب الشاهد، بمثابة الرد على صحيفة الشعلة التي كان يصدرها بقسنطينة الأديب رضا حوحو.

وكان الاحتكاك بالحركة الشيوعية مفيدا لابن عائشة الذي اكتشف من خلاله أهمية البعد الاجتماعي في النضال الإنساني حسب قوله.

لكنه ما لبث أن اصطدم بحقيقة هذه الحركة بالجزائر التي كانت تتميز بضيق أفق سياسي غريب، وبنزعة عنصرية خفيّة! في تناقض سافر مع جوهر الشيوعية ذاتها!

- اصطدم أولا بموقف مبدئي متحجّر، بخصوص آفاق النضال السياسي بالجزائر الذي يربطه الرفاق الشيوعيين بآفاق الحركة بفرنسا!

وهذا الموقف معروف وخلاصته: أن تحرر الجزائر مرتبط باستيلاء الحزب الشيوعي على الحكم بباريس!

وكان ابن عائشة، و معه ياسين كاتب ومحمد ديب أيضا. ممن يقولون بأن تحرير الجزائر يمكن تحقيقه سواء وصل الشيوعيون إلى الإليزي، أم وقفوا عند أعتاب المجلس الوطني!

- كما اصطدم بظاهرة الحساسية الشيوعية تجاه العنصر العربي! ويروي ابن عائشة عن المكي شبّاح في هذا السياق، أنه ورفاقه لم يتمكنوا من إدخال العيد العمراني في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي إلا بشق الأنفس! وتحت التهديد بالانفصال وتأسيس حزب شيوعي عربي!

هذه الصدمة المزدوجة، جعلت ابن عائشة يعود إلى حبه الأول: الوطنية الثورية.

ويروي محدّثنا في هذا الصدد بعض الوقائع التي تؤكد مدى انتشار الوعي الوطني والتجاوب التلقائي مع قضايا التحرر والعمل المشترك العربيين في مطلع الخمسينات:

1– حل ابن عائشة ببسكرة ضيفا على أحد أقاربه، وكان يقيم بحي "اتريسيتي" (الكهرباء)، فوجده قد أقام مأدبة فاخرة.. ولما سأل عن المناسبة، أجابه بكل عفوية: «ذكرى تأسيس الجامعة العربية»!

2– في أواخر 1952، عرّج ابن عائشة على تبسة، وبينما كان جالسا بإحدى حاناتها مع بعض أصدقائه، دخل مواطن يبدو في غاية الانشراح وهو يقول: «اشروبوا "تورني" على حسابي.. بمناسبة عودة الجنرال نجيب إلى الحكم»[1].

(1) إشارة إلى استقالة الجنرال نجيب إثر بروز الخلاف مع الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر، ثم تراجعه عن الاستقالة.

3– في هذه السنة زار ابن عائشة مسقط رأسه بمناسبة وفاة والدته.. وعلم بعض ممثلي الحركة الثورية في تونس بوجوده، فاتصلوا به في إطار التحسيس بقضيتهم وطلب الدعم والمساندة.

بعد هذا اللقاء السري جلس إلى بعض أصدقائه (منهم الجيلالي قعيد والشريف الواعي والحبيب بوجلخة..) بأحد المقاهي.. وكان مشحونا بهمّ الاستقلال، متحمسا في غاية الحماس! وقد أخذ يعبّر عن حماسة عواطفه الجيّاشة دونما حذر قائلا: «إن استقلال الجزائر آت لا ريب! ومصير الفرنسيين الرحيل كما جاءوا!».. وكان أحد "البيّاعين" (المخبرين) يُرهف السمّع، فتعمّد إثارته بقوله: «.. وسيكون مصير الخونة أسود! ومن هؤلاء واحد بيننا الآن.. سأجعل من جلد مؤخرته حذاء أنتعله!».

لم يتوان "البيّاع" في أداء مهمته! وهكذا وجد ابن عائشة نفسه موقوفا بين أيدي البشاغا يستنطقه عن أسباب "سبه لفرنسا"! وجيء بالشهود الذين كانوا مع المتهم.. فسأل البشاغا أولهم وكان حدّادا.. فزعم أنه لم يفهم شيئا مما كان المتهم يتفوّه به! «لأنه كان يتحدث بالغُران» (بالقرآن)! وحذا الشاهد الثاني وهو الحبيب بوجلخة حذوه، فزعم أن المتهم كان يتحدث بلغة أدبية!

وهنا ثارت ثائرة البشاغا فانتفض قائلا: «أية لغة أدب والرجل يُهدد بصنع نعال من مؤخرات البيّاعين؟!».

كان جزاء "سب فرنسا" وتهديد "بيّاعيها" الحبس النافذ. وقد مكث ابن عائشة بسجن الوادي، الذي ذهب إليه من قمار مشيا! أكثر من ثلاثة أشهر، أفرج عنه إثرها بعد مساعي العائلة التي استنجدت بالمحامي العيد العمراني.

خرج ابن عائشة من السجن، وقد ازداد غيظه من نظام الاحتلال وأساليبه. وظل هذا الغيظ يتصاعد على مرّ الأيام، تغذيه الغيرة والحماس لكفاح الثوار بكل من تونس ومراكش.. وجاءت أزمة "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" في بداية 1954، لتُصعِّد هذا الغيظ المكبوت الذي بات ينذر بانفجار وشيك..

في صائفة هذه السنة، اتصل به أحد أقاربه وهو الثائر عبد الكريم هالي، ليقول له باختصار: إن ساعة العمل قد دقت، وخلاص الحزب من أزمته يكمن في إشعال فتيل الثورة بدون تأجيل!

مثل هذا الكلام كان خارج إطار "جبهة التحرير الوطني" التي كانت تحضّر في سرية مطلقة لهذا الخلاص المنتظر.

وحاول عبد الكريم أن يُشكّل مجموعة فدائية، تبادر بإشعال فتيل الثورة بالعاصمة. وأخذت هذه المجموعة تتدرّب فعلا، بمحاولة إحراق متجر لأحد اليهود بالقصبة السفلى.. لكن بعد هذه المحاولة، أدرك قائد المجموعة أن العمل الجدي يقتضي رجالا مدربين، فضلا عن توفير المال والسلاح. ولاستجماع مثل هذه الشروط، كلّف ابن عائشة بالسفر إلى باريس، لعرض الأمر على أحد معارفه المقربين من الحاج مصالي وهو الشهيد "أحمد نصبة" المكنّى بـ"القلاوي الأسود". وقد سافر فعلا، وكان ذلك في أكتوبر 1954.

2- شاهد.. على نكبة السوافة!

الطاهر بن عائشة نسيج وحده في النضال خلال مرحلة الكفاح المسلح أيضا! فقد سافر إلى باريس في أكتوبر 1954، يطلب الدعم من حاشية الحاج مصالي لجماعة عبد الكريم هالي، فأدركته ثورة الفاتح نوفمبر هناك، وقد أشعل فتيلها تنظيم مجهول تماما باسم "جبهة التحرير الوطني"!

غداة اندلاع ثورة التحرير كان الطاهر بن عائشة بناحية "لوديون" بباريس، متوجها إلى مقر اتحادية حركة انتصار الحريات الديمقراطية بالقرب من "سان ميشال".. لم يكن حينها قد علم شيئا عما حدث البارحة، فمسك به أحد المناضلين وقد تبيّن مقصده لينبّهه قائلاً: «لقد انفجر الوضع بالجزائر وسارعت مصالح الأمن بإغلاق المقر وتشميعه.. وهي الآن تتربص بالقرب منه لتلقي القبض على الوافدين عليه بدون استثناء».. اندهش لما سمع، وذهب ظنه في البداية إلى أن جماعة هالي هي التي أشعلت الفتيل، وأنها قد تكون ضحكت عليه وهي ترسل به إلى باريس طلبا للعون!

لكن في مساء نفس اليوم عرف من بعض المناضلين أن المسألة جديّة ويقف وراءها تنظيم محكم يتوفر على حد أدنى من الوسائل التي جاء يبحث عنها بالعاصمة الفرنسية..

كان بن عائشة يومئذ في كفالة قيادي بارز في حاشية مصالي، هو الشهيد[2] أحمد نصبة –المدعو القلاوي الأسود– الذي تربطه به علاقة

(2) التحق بالجبهة عام 1959 واغتيل بألمانيا.

صداقة قديمة ووثيقة. ولم يكن ذلك بالنسبة إليه يعني الانحياز إلى مصالي في شيء، بعد أن اختار هو وجماعته في الجزائر طريق "الحياد الإيجابي"، أي مساندة الطرف الذي يبادر بإشعال فتيل الثورة..

وهذا ما يفسرّ زيارته إلى مصالي بمنفاه الجديد "لي صابلو دولون"، رفقة المناضل عيسى بختي، في إطار مواصلة المساعي الحميدة ولمّ الشمل، للوقوف صفا واحدا وراء الكفاح المسلح وتطوراته المحتملة.

ويقول الشاهد في هذا الصدد، إنه وجد زعيم الحركة الوطنية (الثورية) يطالع مقدمة ابن خلدون. وكانت خلاصة اللقاء قوله: «أن الشعب الجزائري هرب مني مرتين، لكنني تمكّنت من إعادته!! وها هو يحاول الهروب للمرة الثالثة، وسيعود إليّ هذه المرة أيضا!».

لكن بعد انقشاع الغموض الذي كان يلف انطلاقة الثورة خلال الأشهر الأولى، وبعد أن أخذت الصفوف تتمايز بين أنصار مصالي وأنصار الجبهة، خاف المناضل أحمد نصبة على صاحبه، فنصحه بانتحال صفة الانتساب –لجمعية العلماء– على أساس معرفته بالعربية! وهكذا أصبح يقدمه لمعارفه بتلك الصفة الواقية!

ومن ذكرياته عن تلك المرحلة، أنه حضر حفل إحياء ذكرى وفاة ابن باديس في 16 أفريل 1955.. وقد ترأسه ممثل جمعية العلماء بباريس الشيخ السعيد الزموشي، بحضور سفير باكستان وبعض الطلبة أمثال أحمد طالب وعبد الرحمان شريط، وجمهور غفير أكثره من مناضلي حزب الشعب الجزائري.

لاحظ بن عائشة ومعه أحمد نصبة، أن الشيخ لم يشر في كلمته لما كان يجري في الجزائر لا من قريب ولا من بعيد! فحاول تناول الكلمة

لتدارك الموقف. لكن رئيس الجلسة تجاهل طلبه! فما كان من رفيقه إلا أن أشار عليه بالحيلة التالية: أن يقوم بحركة، يصرف فيها أنظار المنظمين إلى الجهة المعاكسة لمكان مكبّر الصوت، على أن يسارع هو باستغلال لحظة الارتباك والاستيلاء على المكبّر لإلقاد ما يريد!

وتم ذلك فعلا! وألقى بن عائشة كلمة حماسية، أثارت عواطف الجمهور الذي غادر القاعة بطلب منه، للقيام بمظاهرة مرتجلة تأييدا للثورة والثوار.

ظل محدثنا يناضل على طريقته الخاصة حتى ربيع 1956، عندما اتصل به المناضل التهامي الوحلة من جنيف (سويسرا)، بهدف المشاركة في توسيع دعم ومساندة الفئات المثقفة المغاربية والعربية عموما للثورة الجزائرية، وقد تمّ ذلك بواسطة المناضل القومي عاطف دانيال..

أخذ بن عائشة ينشط ضمن هذه الفئة المثقفة في الإطار المذكور، لكن بعد فترة وجيزة، تلقّى رسالة من صديقه عبد الكريم هالي يستقدمه إلى تونس، وكان ذلك في صائفة 1956..

كان عبد الكريم هالي من العناصر القيادية البارزة في جماعة السعيد عبد الحي الذي كلّف في ربيع 1955 من قبل البشير شيحاني لتولي مهام التسليح والإمداد على الشريط الحدودي التونسي، بالتنسيق مع الوفد الخارجي وبن بلة ومهساس على وجه الخصوص.. وقد استطاعت هذه الجماعة أن تبسط نفوذها عمليا، على تنظيم الثورة بكامل التراب التونسي.

وعندما وصل بن عائشة إلى تونس كانت جماعة عبد الحي في خلاف مع عدة أطراف:

1- مع الحكم الجديد بتونس، وعلى رأسه الحبيب بورقيبة الذي كان يحاول بسط سلطته ونفوذه على بلاده. وكانت جماعة عبد الحي يومئذ في علاقة عمل مباشرة ومتينة، مع أنصار صالح بن يوسف الأمين العام لحزب الدستور الجديد. وكانت هذه العلاقة تستند إلى فكرة الكفاح المغاربي الموحد، ضمن جيش تحرير المغرب العربي الذي كان يدعو إليه عبد الكريم الخطابي من القاهرة، بتشجيع من السلطات المصرية.

وكان محمد خيضر مسؤول الشؤون السياسية في الوفد الخارجي للجبهة على نفس الخط، كما تؤكد رسالته إلى عبان بتاريخ 15فبراير 1956[3].

ففي هذه الرسالة يشيد خيضر بعلاقة الوفد الحسنة مع الخطابي وبن يوسف، واتفاق الأطراف الثلاثة حول "أهداف الكفاح المغاربي". ويؤكد في هذا الصدد أن الخطابي يرى في اتفاق "آكس لي بان"[4] مجرد مناورة لضرب المقاومة المسلحة بالمغرب وعزل الجزائر في كفاحها" وبناء على ذلك يؤيد "استمرار المقاومة حتى جلاء آخر جندي فرنسي من المغرب".

ويكشف خيضر بالمناسبة، أن الوفد الخارجي كان يومئذ يراهن إلى حد ما على صالح بن يوسف الذي "يسيطر على الوضع بتونس" حسب رأيه، مؤكدا في نفس الوقت أن علاقات الوفد بأنصار بن يوسف حسنة، خاصة مع الجناح المسلح بقيادة الطاهر الأسود.

ولم تكن جماعة العاصمة بقيادة عبان على نفس الخط، ويؤكد ذلك هذا الأخير صراحة في رده على رسالة خيضر بتاريخ 13 مارس الموالي

(3) بريد الجزائر – القاهرة 1954 – 1956 لمبروك بالحسين (دار القصبة).
(4) اتفاقية الفرنسيين مع الملك محمد الخامس في نوفمبر 1955.

بقوله: «لا نشاطركم نظرتهم حول استراتيجية التحالفات المغاربية.. فمواقفكم تبدو وكأنكم مغاربة قبل أن تكونوا جزائريين! في حين نفضل نحن أن نكون جزائريين أولا»!

2- في خلاف مع "جماعة الداخل"، مؤازرة للوفد الخارجي.. ويقول الوردي قتال في هذا الصدد: «إن عبد الكريم السوقي (هالي) اتصل بقيادة ناحية النمامشة -التي كان على رأسها الأزهر شريط- غداة مؤتمر الصومام منتقدا بعض القرارات الصادرة عنه ومحذرا في نفس الوقت من "السياسيين الذين يريدون الاستئثار بقيادة الثورة دون العسكريين»[5]..

ولما خرجت قيادة النمامشة إلى تونس لمزيد من التوضيح، سمعت نفس الموقف من علي مهساس باسم الوفد الخارجي..

3- في خلافات ثانوية:

- أولا: مع النمامشة مؤازرة لعباس لغرور الذي كان يحاول يومئذ الانفراد بقيادة الأوراس بالتحالف مع عاجل عجول..

وحسب الدكتور محمد العربي المداسي أن الخلاف مع النمامشة، بدأ مبكرا في صفوف الجزائريين الذين شاركوا في حركة "الفلاقة" بتونس. وقد توسط فيه مصطفى بن بولعيد عندما كان متوجها إلى طرابلس في أواخر يناير وبداية فبراير 1955.. وتمت التسوية مؤقتا بين الأزهر شريط وحمة لخضر الذي فضل الانسحاب بجنوده إلى شمال وادي سوف.

ويضيف بن عائشة عنصرا جديدا وهو أن جماعة عبد الحي كانت ضد إضافة صفة "النمامشة" إلى عنوان المنطقة الأولى (أوراس - النمامشة) أي مع "منطقة الأوراس" وكفى!

(5) كتابنا "فرسان الحرية" (دار هومة 2001).

وتطور التحالف مع لغرور بعد ذلك، إلى درجة محاولة تصفية قيادة النمامشة بتونس في سبتمبر 1956[6].

– ثانيا: مع الثنائي بن بلة ومهساس لأسباب لم نستطع تحديدها مع بن عائشة الذي يؤكد أن عبد الكريم تخاصم فعلا مع بن بلة.. ويفسّرها الوردي قتال بقضايا شخصية تتعلق بكل من عبد الكريم هالي وطالب العربي..

هذه الخلفية المضطربة، كانت تؤطر المشهد السياسي بتونس، عندما جاءها بن عائشة بطلب من صديقه عبد الكريم كما سبقت الإشارة.

وقد وصلها في 13 أوت 1956. وإذا لم تخني الذاكرة، فإن ذلك يصادف اعتقال عبد الحي، ذلك أن الشيخ توفيق المدني يؤكد[7]، أن بن بلة أخبرهم أثناء اجتماع بالقاهرة في نفس اليوم، «أن الحكومة التونسية ألقت القبض على عبد الحي». بعد أن تجبّر وطغى فاعتقل ممثلي الداخل وهما آيت حسن واروابحية.

عاش محدثنا في خضم دوامة الخلافات الرهيبة قرابة شهرين، ويذكر في هذا الصدد اجتماعا هاما، عقد في 30 سبتمبر الموالي بحضور عبد الحي ولغرور وأطراف أخرى، كان في نظره بمثابة "ندوة المصالحة"..

ومن القرارات التي أسفرت عنها: مباركة رغبة عبد الحي في العودة إلى ولاية الأوراس وإنابة محمود منتوري عنه بتونس. وهو من طلبة 19 مايو الذين خرجوا إلى تونس رفقة لغرور.. ويفهم من حديث بن عائشة، أنه كان ضمن هذه الهيئة المستخلفة ممثلا لهذا الأخير أيضا..

(6) كتابه الصادر أخيرا عن وكالة الإشهار بعنوان "Les Tamiseurs de sable".
(7) حياة كفاح (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع).

وبعد "ندوة المصالحة" تحرك لغرور والوحدات المرافقة له عائدا إلى ولايته، وفي الطريق هاجم وحدة فرنسية مرابطة على التراب التونسي مدمرا عددا من دباباتها!

وفي صبيحة الفاتح من أكتوبر، وجد بن عائشة ومعه عبد الكريم وعبد الحي، وغيرهم من بقية المشاركين في الندوة، محاصرين من وحدات من الجيش التونسي والحرس الجمهوري، مطالبين بتسليم أنفسهم بدون قيد أو شرط..

وقد حاول الشكيري من عناصر المجموعة الإفلات من الحصار، فقُتل أمام مرأى ومسمع رفاقه.. وتقدّمت للقبض على المجموعة عناصر من الحرس الجمهوري بقيادة قائده المحجوب بن علي شخصيا.

وكان مرفوقا بمهساس عن الوفد الخارجي.. وتم حبسهم بسجن زندالة (ولاية منوبة) الذي كانت بساحته مقصلة لإرهاب المعتقلين حسب مشاعر بن عائشة يومئذ..

وقد تدخلّ العقيد بن عودة باسم لجنة التنسيق والتنفيذ –المنبثقة عن مؤتمر الصومام– للإفراج عن بن عائشة طالبا منه أن ينجو بنفسه.

أما البقية فقد بقيت بالسجن بعض الوقت، وتمت محاكمتهم في غضون 1957 من طرف محكمة ترأسها بن طبال، بعد أن ضم إليهم كل من لغرور وشريط.. وكان الإعدام مصير الجميع.

وجاء هذا المصير، ليشهد على نكبة قيادة الولاية الأولى من السوافة (عبد الحي، عبد الكريم، طالب العربي..) والنمامشة (الأزهر شريط) وشاوية شرق الأوراس (لغرور).. وقد التجأ بن عائشة خوفا على نفسه –بعد الإفراج عنه– إلى أنصار بن يوسف الذين أخفوه بعض الوقت،

وبقي طوال تلك الفترة على هامش الجبهة.. وذات يوم اتصل به المجاهد محمد الشريف (الملقب بكروتشوف لصلعته) من باتنة، وطلب إليه أن يستأنف نضاله.

وكان ذلك انطلاقا من مراكز الجنود المعطوبين، بواسطة التعليم والرعاية المعنوية.

وقد استمر بن عائشة في النضال على هذه الجبهة الاجتماعية حتى الاستقلال.. وفي خريف 1962 تقدم بطلب العمل بكل من وزارتي التربية والعدل، فعينته الأولى مدرسا بحجوط (تيبازة) والثانية قاضيا بوادي الفضة (الشلف) لكنه فضل التعليم.

وبمناسبة ذكرى فاتح نوفمبر، أرسل بدراسة مطولة حول أزمة الثورة إلى الإذاعة الوطنية، استحسنتها مديرها آنذاك عيسى مسعودي فأرسل في طلبه..

وهكذا وجد نفسه من جديد على جبهة نضال من نوع آخر: النضال السياسي والإيديولوجي المتواصل سواء كانت البلاد في حالة حرب أو حالة سلم!

وهذا مشوار آخر، قد نعود إليه في مناسبة أخرى.

الفصل الثاني : تحـريـر.. التـاريـخ

- محمد الشريف الساحلي
- محمد حربي
- بيار شولي
- الطاهر قايد

• محمد الشريف السّاحلي:

من هو محمد الشريف الساحلي؟

– ولد محمد الشريف الساحلي في 6 أكتوبر 1906 بسيدي عيش ولاية بجاية. وبها درس المرحلة الابتدائية، ليلتحق بعد ذلك بالعاصمة لمواصلة دراسته في مدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة.

– بعد التخرج رغب في مواصلة دراسته الثانوية، فالتحق بثانوية العاصمة عوض الالتحاق ببرج بوعريريج للتعليم هناك.

– واصل دراسته الجامعية بوسائله الخاصة، فالتحق بقسم الآداب والفلسفة في السوربون التي تخرج منها عام 1930.

– عاد إلى الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية، حيث اضطر إلى التدريس في مدرسة توجة الإبتدائية. وفي الموسم الموالي (40–1941) نقل إلى قسنطينة للتدريس بمعهدها التقني..

– رفض التعاون مع قوات الاحتلال الألماني بفرنسا التي عاد إليها في صائفة 1942، والتحق بعد ذلك بحركة المقاومة في صفوف الشيوعيين.

– اتصل بحركة انتصار الحريات الديموقراطية بفرنسا غداة الحرب وساهم في تحرير صحفها، كما ساهم في تكوين مناضليها اعتمادا على التاريخ هوايته المفضلة.

– التحق باتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا في غضون النصف الثاني من عام 1955، وعمل في لجنة الصحافة والدعاية التي مالبثت أن أصدرت صحيفة المقاومة الجزائرية.

– ابتداء من 1957 انتخب للعمل في الجبهة الدبلوماسية لدى البلدان الإسكندنافية انطلاقا من ستوكولم. وقد ظل في موقعه هذا حتى الاستقلال.

– عمل بعض الوقت في الخارجية ثم تركها عائدا إلى فرنسا. وقد استدعى في أواخر 1965 لتعيينه سفيرا ببكين.. وقد شغل نفس المنصب ببراغ مابين 1971 و 1978، حين أحيل على التقاعد.

– توفي في 5 يوليو 1989 ودفن بمقبرة العالية.

– من مؤلفاته: رسالة يوغرطة، الجزائر تتهم، المؤامرة على الشعوب الإفريقية، عبد القادر فارس الإيمان، تحرير التاريخ، عبد القادر وخرافات الحركة الماسونية..

مع الأستاذ محمد الشريف الساحلي مثقف في دوامة السياسة والثورة(*)

1– حرية .. المعرفة

حياة الأستاذ محمد الشريف الساحلي الدبلوماسي المتقاعد، والباحث والكاتب الذي لا يعرف التقاعد إليه سبيلا، حياة نضال دائم في سبيل الحرية. حرية الذات في سياق النظام الاستعماري بواسطة نور المعرفة. ثم حرية الوطن في أطار الحركة الوطنية وثورة التحرير، وأخيرا حرية الفكر انطلاقا من تحرير التاريخ كأحد العوامل الأساسية لهذه الحرية. عبر ومضات سريعة من هذه الحياة الغنية بالمعاناة والمواقف، سنحاول تقديم الأستاذ محمد الشريف الساحلي لأجيال اليوم، كمثال لنضالات المثقف التي لا تنتهي في سبيل الحرية، لقد اكتشف محدثنا ونكتشف معه أن حرية الذات لامعنى لها بدون حرية الوطن، وحرية الوطن ناقصة بدون حرية الفكر، وهلم جرا..

التعليم في المدارس الفرنسية بالنسبة للطفل «الأهلي» مثل محمد الشريف، كان يبدو في أغلب الأحيان مزدوجا، ففي نفس الوقت الذي يتعلم الطفل الأبجدية الفرنسية، يكتشف في سلوكات «الكولون» حقائق مناقضة، يكتشف نفسه باعتباره واحدا من «الأهالي» ومايتعرض له هؤلاء من ظلم وتمييز.

(*) الشعب أعداد 8و9و10 أكتوبر 1985

وفي مدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة أصبح الشاب محمد الشريف موضوعا مباشرا لهذا الحيف والغبن. لقد اكتشف أن إدارة المدرسة لم تكن تراعي الأدب في المخاطبة إلا مع الأوروبيين.

أما تلامذة «الشعبة الأهلية» فلا حق لهم في غير المعاملة الخشنة!

وخطر للطالب المعلم ذات يوم – استعدادا لمهمته التربوية النبيلة والثقيلة في نفس الوقت– أن يقتني بعض الكتب الفلسفية من أجل المطالعة الحرة، ولكي ينمي معارفه العامة، فحجزت منه هذه الكتب.

ولاحظ استاذ الفرنسية بالمدرسة أن الطالب يسعى للتفوق في مادة الإنشاء فاستغرب ذلك منه ونهره يقول:« الانشاء ليس لأمثالك وماذا ينفعك أن تتعلم الكتابة! فلن تكون أكثر من معلم!!»

مثل هذه التصرفات مالبثت أن زرعت بذور التمرد في محمد الشريف الذي رفض بعد التخرج والحصول على الشهادة العليا الالتحاق بمنصبه كمعلم في برج بوعريريج، وقرر مواصلة دراسته الثانوية.

تفوق غير مجد:

كانت المرحلة الثانوية أخف وطأ. لم تكن هناك شعبة خاصة «بالأهالي»، ولم يكن الأساتذة عنصريين، بل وجد في أستاذ الفلسفة مشجعا له، لما رأى استعدادا طيبا منه وتفوقا على زملائه، وكان «الأهلي» الوحيد بينهم.

وألى جانب مادة الفلسفة كان محمد الشريف متفوقا كذلك في المواد التالية: الفرنسية، التاريخ، الجغرافيا. بفضل هذا التفوق كان الطالب ينتظر الحصول على منحة للدراسة بالجامعة، لكن خيبته كانت كبيرة بعد الحصول على البكالوريا، حين أدرك أن التفوق وحده لايكفي للحصول

على المنحة، وأن الشرط الأول في ذلك أن يكون من أبناء العائلات الموالية للنظام الاستعماري!!

غضب محمد الشريف غضبة جزائرية وأسرع– وهو اليتيم– إلى بيع حصته المتواضعة من الأرض التي تركها والده، ليواصل دراسته الجامعية. وبالمبلغ الحاصل سافر إلى باريس لتحضير شهادة الليسانس في السورربون، وقد أحرز عليها سنة 1930.

وقد أبت عليه همته أن يقف عند عتبة الدراسات العليا، فراح يخوض أغوارها، وراوده الحنين إلى التدريس فتقدم لامتحان التبريز، فلم يحالفه التوفيق في المحاولة الأولى.

نضال مثقف:

كانت الثلاثينات فترة خصبة في نضال الشعب الجزائري، شهدت ميلاد مختلف الحركات السياسية وفي مقدمتها نجم شمال افريقيا وحزب الشعب الجزائري. لقد أراد الاستعمار وهو يحتفل بالذكرى المئوية لغزو الجزائر، أن يوهم نفسه بأن الاحتلال أصبح واقعا لارجعة فيه، فكان رد القوى الوطنية أن جعلت من تلك الذكرى المشؤومة بداية النهاية للنظام الاستعماري.

وجد الطالب محمد الشريف نفسه في زحمة الحركة الوطنية الشاملة التي اجتذبته إليها من زاويتين:

الأولى– صحيفة «الأمة» الناطقة باسم نجم شمال إفريقيا.

وكان يتولى أمانة تحريرها يومئذ المناضل الكبير الحواس بوقدوم.

وقد قادته الصلة «بالأمة» إلى الاندماج في نشاط الحزب من خلال القيام

بمحاضرات في صفوف المناضلين تستهدف بالدرجة الأولى تعريفهم بتاريخ وطنهم.

الثانية– جمعية الطلبة الجزائريين: وهي جمعية كانت تضم حوالي 25 طالبا يدرسون بباريس وخارجها، وكانت في بدايتها في أيدي عناصر على صلة وثيقة بالولاية العامة في الجزائر.

فساهم محمد الشريف في معركة تحرير الجمعية من قبضتهم. وهي المعركة التي جعلته يصطدم بالشرطة الفرنسية التي اكتشفت بعد ذلك أن الطالب مطالب بأداء الخدمة العسكرية، وأنه في حالة تأجيل بسبب الدراسة.

وفي سنة 1936 أصبح محمد الشريف من هيئة قيادة الجمعية التي لم تدم طويلا حتى حلت نفسها لتدمج في جمعية طلبة شمال إفريقيا.

استمرت صلة الطالب بهذه الجمعية المغاربية حتى سنة 1939. في هذه السنة قررت الجمعية إنشاء مجلة دورية فأسندت مشروعها إلى طالبنا الذي بذل قصارى الجهد ليكون المشروع في مستوى الرسالة المتوخاة منه. غير أن الجمعية تراجعت أخيرا عن المشروع لضعف ميزانيتها فأصر صاحبنا على إصدار المجلة بإمكانياته الخاصة.

كان ذلك في ماي 1939. ويقول محمد الشريف في هذا الصدد: أن التجربة كانت مهمة رغم أنه لم يصدر من المجلة سوى أربعة أعداد. ومن ذكريات هذا المشروع القصير العمر، أن العقيد شون مسؤول المخابرات الفرنسية بالجزائر طلب الاشتراك في المجلة. وانعقد في تلك الفترة بقرطاج المؤتمر الأوشاريستي (مسيحي)، فكتبت المجلة مقالا تندد به،

وقد إثار المقال اهتمام احدى صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقامت بترجمته وإعادة نشره.

جامعي.. معلم ابتدائي!

• عشية الحرب العالمية الثانية (أوت 39) عاد محمد الشريف إلي الجزائر ليستقر بعض الوقت في مسقط رأسه سيدي عيش (بجاية) راضيا– وهو الجامعي الذي ترشح لنيل شهادة التبريز – بوظيفة معلم ابتدائي! وياليت القناعة كانت كافية لأبعاد عيون الاستعمار!

لقد عاد إلى وطنه ومعه لعنة الدفتر (ب) (سجل الأهالي الذين ينشطون سياسيا) الذي يعتبره انفصاليا! لذا ماأن مكث بعض الوقت بسيدي عيش حتى استدعاه حاكم البلدة ليقول له: «لدي ملف عنك»! أي مامعناه عليك بالكف عن أي نشاط مشبوه وإلا..!

وفي مدرسة توجة الابتدائية حيث عين كمعلم، كان نصيبه في البداية القسم المتوسط (السنة الخامسة)، لكن بعض الوقت فقط! لأن السيد المدير استقبل بعد الدخول المدرسي معلما فرنسيا فأستكبر القسم المتوسط على المعلم «الأهلي» وأعطاه إلى هذا الأخير، وكأن المسألة من الأهمية بحيث تمس «جاه فرنسا وهيبتها»!

لاحظ التلاميذ هذه الحركة المشبوهة، فتعاطفوا مع معلمهم بشكل مؤثر: «لقد نقلوك لأنك جزائري، أليس كذلك؟». فأجابهم المعلم: بما أنكم فهمتم، فلا تنسوا»!

وفي القسم الثالث الابتدائي الذي نقل إليه، وجد المعلم «الأهلي» نفس التعاطف» استغرب الأطفال الصغار ذات يوم كيف أن المعلم الجديد لايضربهم، بينما كانت السيدة فلانة لا تتحرج في استعمال

عصاها لأبسط الأسباب. فقال المعلم: ألم تفهموا السبب؟ إنها فرنسية، أما أنا فإني منكم، وما جئت لأضربكم ولكن لأربيكم.

ومنذ هذا الوقت لم يعد المعلم الأهلي بحاجة إلى فرض الطاعة في القسم، بعد أن تكون نوع من التواصل الخاص بينه وبين تلامذته. وبفضل هذا التواصل كان المعلم يلجأ أحيانا إلى استعمال اللهجة المحلية لتبليغ ما يناقض الإيديولوجية الاستعمارية أو التفسير الفرنسي للتاريخ، كما فعل في تدريس «معركة بواتيي» (بلاط الشهداء).

في الموسم الدراسي 40–1941 استرد معلم توجة بعض الاعتبار بعد أن نقل للتدريس بمعهد تقني في قسنطينة. وهنا أيضا لم يعرف الراحة إلا قليلا، لقد كانت الشرطة تلاحقه. كان يتردد على بعض معارفه من ذوي المحلات التجارية بعاصمة العمالة. فكانت الشرطة تضايق هؤلاء التجار بالتحقيق معهم تقريبا عقب كل زيارة!

وأمام هذه المضايقات المستمرة، وجد محمد الشريف نفسه مضطرا إلي قبول دعوة من شخص غامض، طلب إليه السفر فورا إلى فرنسا، لأن هناك مهمة سياسية هامة في انتظاره!!

2- حريــة.. الوطــن

«المهمة السياسية» التي كانت تنتظر الأستاذ محمد الشريف على جناح السرعة بفرنسا، كانت تندرج ضمن محاولة الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية الرامية إلى استخدام بعض الجزائريين لصالحهم، سواء بالجزائر أو فرنسا أو أوربا بصفة عامة!

كان الأستاذ على علم بهذه المحاولة، لكن لم يخطر بباله أن يستدرج إليها بتلك الطريقة المفاجئة. لقد نزل بالحي اللاتيني وأخذ يتردد على حانة لصاحب الدعوة الذي دعاه بعد فترة قصيرة لتناول الغذاء مع أحد التجار من معارفه.

وبعد الطعام عرض عليه التاجر القيام بجولة عبر باريس، وفي حي «تروكاديرو»، عرج به على أحدى العمارات. ودون سابق اشعار، وجد استاذ المعهد التقني بقسنطينة نفسه وجها لوجه مع ضباط ألمان. بادره أحدهم قائلا:– نحن بحاجة إلى رجال بإفريقيا الشمالية، فكان جواب الأستاذ على الفور: أعتقد أن هناك سوء تفاهم.

وانتهى الموقف عند هذا الحد، لكن التاجر العميل انزعج لهذا المآل وقال للأستاذ: «لقد لعبت برأسي»! فرد الأستاذ متعجبا: أينا لعب برأس الآخر؟!

بيد أن الألمان ظلوا يراقبونه، مما أدى بصاحب الفندق الذي كان يقيم به إلى طرده لهذا السبب.

موعد وهمي،، مع ريبان تروب»!

بعد هذه الحادثة، انصرف محمد الشريف للعمل كمحرر بوزارة التموين يومئذ، لكن لعنة الألمان ما انفكت تلاحقه، مرة أخرى يصطدم بهم.

لقد جاءه مناضل تونسي، وأوهمه بأن ريبان تروب (أحد أعوان هتلر البارزين) يريد التعاون مع ممثلي الأحزاب الوطنية بشمال إفريقيا، واستدرجه لمقابلة وهمية معه.

وبعد تردد وممانعة رافقه إلى الموعد ليجد نفسه ثانية أمام ضباط من المخابرات الألمانية، بادره أحدهم قائلا :

– هل لديكم أناس شرفاء بالجزائر؟!

– مثلما لديكم في ألمانيا.

– كنت أعتقد أن الجزائر بلد المتوحشين!

هذه النظرة للجزائر، كان من الطبيعي أن تغلق باب الحوار بسرعة، من أستاذ يستمد من تاريخ بلده كل أسباب الفخر. بل أكثر من ذلك، ساعدت في انضمامه إلى منظمة مقاومة شيوعية، كانت مهمتها محاربة الجزائريين المتعاونين مع النازية بالذات..

وغداة اندحار النازية سنة 1945، استأنف محمد الشريف مهنة التعليم بفرنسا، دون أن يقطع صلته بالحزب الشيوعي الفرنسي. غير أن هذه الصلة سرعان ما فترت، لتنقطع نهائيا بعد أقل من سنتين. ويعلل لك بقوله: «لقد لاحظت أنهم يريدون وضع المشكلة الجزائرية بين قوسين». وكانت بداية خيبة الأمل في الشيوعيين الفرنسيين، خطاب أندري مارتي (أحد زعمائهم) سنة 1946 أمام اللجنة المركزية.

وهكذا استأنف محمد الشريف علاقاته بالحركة الوطنية بواسطة الكتابة في صحف حركة الانتصار لا سيما «النجم الجزائري»، والمشاركة في التكوين السياسي للمناضلين. وقد دفعته هذه المشاركة إلى الاهتمام أكثر بتاريخ الجزائر، لا سيما بعد أن لاحظ مدى جهل المناضلين لتاريخ وطنهم، هذا الاهتمام تجسد في مجموعة من المؤلفات:

1 – رسالة يوغرطة (سنة 1947)، وقد أهداه للشيخ البشير الإبراهيمي.

2 – «الجزائر تتهم» (1949)، وقد حجز تحت الطبع.

3 – المؤامرة على الشعوب الإفريقية، وقد حجز أيضا.

4 – الأمير عبد القادر فارس الإيمان (1953).

كانت اتحادية حزب الشعب بفرنسا، تتولى تكوين المناضلين وترسلهم للعمل بالجزائر، وكانت عملية التكوين تؤكد على ضرورة تشديد المراقبة على المناضلين في القاعدة، لأنه «بدون مراقبة، يمكن أن يتوصل عميل شرطة إلى أعلى المراتب في الحزب»!

• لا.. للغة الألغاز!

وعرفت حركة الانتصار سنة 1949 أزمة داخلية حادة، انتهت بفصل عناصر قيادية بارزة، وكان لهذه الأزمة انعكاسات مباشرة في اتحادية فرنسا، حيث تفشى نوع من الخيبة والتشكك في قيادة الحزب. ولمعالجة الوضع جاء أحمد بودة وشوقي مصطفاي والنقيب السعيدي من الجزائر، وعقدوا اجتماعات للشرح والتوضيح.

وقد حضر أحد هذه الاجتماعات محمد الشريف وكانت خلاصة الاجتماع : الإعلان عن قرار إبعاد بعض المناضلين لأسباب انحرافية، وكان رأي محمد الشريف، أن الشرح غير كاف، ولا بد من تسمية الأمور بأسمائها وأولها ذكر «المنحرفين» بأسمائهم، ووجوب معاقبتهم بطريقة نظامية وعلى مرأى ومسمع من القاعدة.

وتلا ذلك نوع من الفتور في علاقة الأستاذ النظامية بالحزب، وإن ظل قلمه مجندا لخدمة القضية الوطنية.

• المدرسة – التي أصبحت ثكنة

وجاءت ثورة فاتح نوفمبر 1954 لتذيب الخلافات الثانوية بالنسبة للوطنيين، وتعيد مياه النضال الوطني إلى مجاريها.

فقبيل شهرين من ذلك، كان محمد الشريف بضواحي سيدي عيش، يقضي بقايا عطلة الصيف، ولاحظ أن هناك مشروع بناء أول مدرسة للبنات بالناحية، فعلق عليها بوحي من الجو السائد يومئذ، متنبئا بأن المشروع «لن يكون مدرسة للبنات، بل سيكون ثكنة»! وفعلا تحولت المدرسة إلى ثكنة، بفعل تسارع الأحداث التي فجرتها ثورة نوفمبر.

وفي فرنسا التي عاد إليها محمد الشريف بعد العطلة الصيفية، كان الغموض المطبق يغلف هذا الحدث التاريخي العظيم. ومرد ذلك، نشاط العناصر المصالية التي استطاعت أن توهم بعض المناضلين في القاعدة بأن «جبهة التحرير الوطني» من صنع مصالي.

لكن مع مطلع 1955 اتضح الموقف، وتمايزت الصفوف، فانضم محمد الشريف إلى لجنة الصحافة والدعاية لاتحادية الجبهة بفرنسا، وكانت هذه اللجنة تصدر صحيفة «المقاومة الجزائرية» لسان جبهة التحرير الوطني قبل صدور المجاهد في جوان 1956. وكانت اللجنة تضم من بين عناصرها مناضلون أمثال أحمد طالب وعبد المالك بن حبيلس والعربي دماغ العتروس...

وإلى جانب هذا العمل «السري» كان صاحبنا يعمل عملا إضافيا معلنا للتضليل والتمويه، بعد أن ترك التعليم في بداية الموسم 55 – 56.

وذات مرة اتصل به المرحوم عمر أوزقان، وطلب منه الاتصال بالدكتور تامزالي العضو بمجلس الشيوخ الفرنسي الذي سلمه بعض الوثائق، ليرسلها إلى ممثلي لجنة التنسيق والتنفيذ بتونس.

وفي تلك الأثناء حدث تغيير على رأس لجنة اتحادية الجبهة، حيث عين السيد محمد لبجاوي (غير محمد بجاوي الحقوقي المعروف) على رأسها، وذلك بقرار من لجنة التنسيق والتنفيذ.

ولم تدم عهدة لبجاوي طويلا حتى ألقي عليه القبض. وقبيل أيام معدودة من ذلك، كان لبجاوي على موعد مع محمد الشريف ومناضل آخر يدعى علي دبابش بإحدى مقاهي باريس، وقبل الموعد بقليل وصل محمد الشريف المقهى المذكور، فلاحظ وجود عنصر من الشرطة السرية يراقب المكان، فعاد أدراجه دون أن ينتبه له.

وبفضل ذلك نجا من عملية القبض على بجاوي ومجموعة من المناضلين كانوا على صلة به.

استمر محمد الشريف في مهمته النضالية المتمثلة في الكتابة والدعاية والاتصال حتى نهاية 1957، حين دعي إلى مهام أخرى سنتعرض لها في الحلقة الثالثة والأخيرة، وقبل ذلك تلقى طلبا من الولاية الخامسة يدعوه إلى الالتحاق بوجدة، فعرض الأمر على اتحادية الجبهة، غير أن أوامر لجنة التنسيق والتنفيذ كانت أسبق وأولى..

ويقول محمد الشريف عن هذه الفترة النضالية الممتدة حتى نهاية 1957، أنها كانت تطوعية! لأنها لم تحسب له ضمن سنوات النضال! لسبب بسيط وهو أنه لم يكن وقتها يتقاضى أجرا من الجبهة!

3- تحرير.. التاريخ

قضى محمد الشريف بسلام المرحلة الباريسية من النضال في صفوف اتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، فلم يكتشف أمره، لاسيما مساهمته الفعالة في تحرير صحيفة «المقاومة الجزائرية» التي استمرت في الصدور حتى منتصف جويلية 1957.

ومع نهاية هذه السنة انتدب الكاتب الصحفي للعمل الدبلوماسي والدعائي لفائدة القضية الجزائرية، في جبهة كانت تبدو شديدة في مواقفها من هذه القضية، ألا وهي جبهة البلدان الاسكندنافية.

لم تكن هذه الجبهة محايدة ولو سلبيا، وأن كانت تبدو على استعداد لتقبل دعوة الجبهة، لذا قررت لجنة التنسيق والتنفيذ انتداب محمد الشريف، لفتح هذه الجبهة أمام القضية الجزائرية.

اتخذ محمد الشريف من العاصمة السويدية منطلقا له في أداء مهمة متعددة الإبعاد.

• أول هذه الإبعاد الاتصال بوسائل الإعلام، بهدف التعريف بالقضية عن طريق الكتابة في الصحف تارة والادلاء بالتصريحات و الاستجوابات تارة أخرى. ومن ذكريات المناضل الصحفي أنه بعث ذات يوم مقالا لصحيفة ناطقة بأسم الحزب الاجتماعي الديموقراطي في الدانمارك فنشر المقال، مرفوقا بتعقيب يتضمن تنصلا مما ورد فيه من مواقف! وكان ممثل الجبهة قد تلقى قبل لك صكا من نفس الحزب كمساعدة فما كان من صاحبنا إلا أن رد إلى الحزب مساعدته المالية، موضحا لقادته «أن الجبهة بحاجة إلى تعاطفكم وليس إلى مالكم»!

• البعد الثاني كان يتمثل في أعداد نشرة شهرية، هدفها متابعة اهتمام الرأي العام الاسكندنا في بالقضية الجزائرية، ومده بكل التوضيحات اللازمة في الوقت المناسب، بالإضافة إلى الدعوة للقضية الجزائرية ومحاربة الدعاية الفرنسية.

وقد صدر عدد خاص لهذه النشرة عن التعذيب في الجزائر، لقي صدى كبيرا في الأوساط الإعلامية والسياسية بالبلدان الاسكندنافية.

• البعد الثالث، كان يتمثل في مواصلة استغلال المنبر الباريسي، بالكتابة في بعض الصحف والمجلات التي يتسع صدرها لذلك، وكان الهدف منها التأكيد على أن الجزائر أمة لها كامل المقومات، مع كل مايعني ذلك من حقوق سياسية بالدرجة الأولى. هذه الكتابات وجدت قليلا من رحابة الصدر لدى صحيفة «الجواب» البروتستانية، ومجلة «الأزمنة الحديثة» السارترية، في حين وجدت العكس لدى «فرانس أو بسرفتور» والفكر (أيسبري).

• استمر نشاط ممثل الجبهة في استوكولم حثيثا على هذا النحو- لاسيما بعد أن انضم إليه مولود قاسم- حتى عشية الاستقلال. ففي 22 جوان 62، تلقى برقية من الحكومة المؤقتة تطلب منه اغلاق البعثة ودخول الجزائر! وفي ذات الوقت تقريبا بلغته برقية من بن بلة، يطلب منه مبايعته والإنضمام إليه!

لكن ممثل الجبهة فضل التريث والتزام الحياد حتى تتضح الأمور في الجزائر، وربما بسبب ألتزام الحياد- في وقت غير مناسب!- عاش محمد الشريف حوالي سنة ونصف، حالة يلخصها في العبارة التالية:

«لم أطلب شيئا، فلم أحصل على شيء!»

«الهجرة إلى التاريخ!»

غير أن حقيقة الأمر أن صاحبنا طلب ولم يظفر! لقد اقترحه السيد روني ماهو المدير العام السابق لليونسكو للعمل معه، ورغب هو في ذلك، لكن حاشية بن بلة سدت الباب في وجهه، مفضلة مرشحا آخر!

واستمر الحظ العاثر يلاحق صاحبنا: ففي نهاية 1963 عين كوزير مفوض مسؤولا على مصلحة بوزارة الخارجية لم تكن موجودة هي مصلحة الوثائق والدراسات. فأنكب على تكوينها مع مساعدين كان همهم الوحيد، متى يلتحقون بمناصب في الخارج!

ومع ذلك فقد استطاعت هذه المصلحة أن تعد شيئا هاما للوطن: الملف التاريخي للحدود الجزائرية المغربية.

غير أن حال المصلحة زادت تدهورا عندما وضعت تحت تصرف مسؤول لم يكن يقدر المصلحة حق قدرها. ومع تلاشي الاهتمام الجدي «بالوثائق والدراسات»، لم يجد محمد الشريف بدا من الاستقالة والهجرة إلى باريس مجددا، للاهتمام بكتابة التاريخ هذه المرة!

تستر على ماض مقيت

استمرت الهجرة الجديدة حتى أواخر 1965، وقد عرف أثناءها المناضل الباحث نوعا جديدا من المعاناة تتمثل في صعوبة الحصول على المراجع والمصادر التي تهمه، لقد أصبح القائمون على المكتبات بفرنسا، يتعمدون وضع العراقيل أمام الباحث الجزائري، سعيا للتستر واخفاء مخازي الاستعمار الفرنسي بالجزائر، ويسوق الباحث مثالا لذلك كتاب العقيد دي ميريسات «قنص الانسان»، وهو كتاب يتضمن صورا رهيبة عن تقتيل الجزائريين العزل والتمثيل بهم».

وقد أثمرت هذه الفترة من البحث والمعاناة أشهر كتاب للأستاذ محمد الشريف الساحلي وهو «تحرير التاريخ من الاستعمار» الصادر سنة 1965، هذا الكتاب الهام لم يعرف لسوء الحظ نشرا واسعا، وأن ساعد في إخراج مؤلفه من طي النسيان!

ففي ديسمبر من نفس السنة، عين سفيرا ببكين التي مكث بها لغاية جوان 1971

كانت هذه الفترة غنية من ناحية التحصيل الذاتي، كما كانت غنية بالذكريات الطيبة، أما من حيث الانتاج فقد شهدت كتابة مقدمة جديدة لرسالة يوغرطة سنة 1966.

ومن بكين انتقل إلى براغ التي بقي بها حتى 1978، حيث أحيل أثرها على التقاعد.

سألت في الأخير الأستاذ محمد الشريف الساحلي عن مشاريعه في التأليف والكتابة،، وهو سؤال يبدو مثيرا لشخص نيف على السبعين. ومع ذلك فقد وجد الأستاذ الساحلي السؤال هاما بل أساسيا! فهو يقول «إن النشاط الثقافي والرياضي ضروري لتماسك الانسان»، أي أنه من الطبيعي جدا أن تكون له مشاريع، بل هناك مشروع جاهز للنشر موضوعه:

«الأمير عبد القادر والخرافات التي اختلقها الاستعمار حوله».

ويتضمن فصلا خاصا عن الأمير والحركة المأسونية، حول هذا الفصل الأخير، ألقى الأستاذ الساحلي محاضرتين في جوان الماضي بالنفق الجامعي ومتحف الجهاد، هزتا الأوساط المأسونية بباريس التي بادرت إلي الرد عليه واتهامه «بالوطنية الضيقة»![1].

---

(1) صحيفة «لوموند» العدد 12633 الصادر بتاريخ 11 سبتمبر 1985 (ص1)

ويذكرنا هذا المخطوط الجاهز للطبع أيضا، بمشروع البحر الداخلي الذي يربط جزءا من جنوب شرق الجزائر وجنوب تونس بالبحر الأبيض المتوسط عبر شطوط ملغيغ والجريد ليصب في خليج قابس، وقد فكر في هذا المشروع المهندس فردينان دي ليسبس – صاحب قناة السويس– وطلب يد المساعدة من الأمير بواسطة نداء موجه للأهالي، قصد تطمينهم وضمان مساعدتهم.

وهناك مشروع ثان للكاتب موضوعه «فضائل المثل في فن الحكم». ويتضح من هذا العنوان أن المشروع خلاصة ووصية في نفس الوقت: خلاصة تجربة عبور طويلة بصحاري السياسة والثورة وزوابعها! ووصية للحكام الذين يتحملون مسؤولية ثقيلة، ليس بإمكانهم النهوض بها دون تعاون الشعوب معهم، وهو تعاون مشروط في جميع الحالات بإعطاء المثل، فالقيادة تعني القدوة الحسنة، في كل موقف وفي كل حين.

• محمد حربي

– ولد محمد حربي بالحروش في 16 يونيو 1933، وبها درس المرحلة الابتدائية في المدرسة الفرنسية قبل أن يواصل دراسته الثانوية بسكيكدة ثم بفرنسا، حيث استكمل دراسته الجامعية.

– احتك بالحركة الوطنية في الحروش وسكيكدة قبل أن ينخرط في صفوف حركة الانتصار في بداية الخمسينات من القرن الماضي.

– انحاز إلى "المركزيين" في أزمة حركة الانتصار قبيل ثورة نوفمبر 1954، وقد عمل ابتداء من 1955 في إعلام اتحادية الجبهة بفرنسا قبل أن يلتحق بتونس سنة 1958.

– عمل في مصالح وزارة الخارجية للحكومة المؤقتة، وبهذه الصفة شارك كخبير في مفاوضات إيفيان التي تم التوقيع عليها في 18 مارس 1962.

– عمل بعد الاستقلال في حقلي الإعلام والسياسة وأصبح من المقربين للرئيس أحمد بن بلة.. وكان غداة الإطاحة به في 19 يونيو 1965 من مؤسسي "منظمة المقاومة الشعبية" المعارضة للانقلاب.

– اعتقل ثم وضع تحت الإقامة الجبرية، إلى أن تمكن سنة 1970 من الهروب إلى فرنسا حيث ما لبث أن أصبح أستاذا بإحدى جامعات باريس.

– لمحمد حربي عدد من المؤلفات التي تجمع بين الشهادة والتأريخ والتوثيق والتحاليل السياسية الاجتماعية. ما يشكل مادة أولية مفيدة، للمؤرخين والباحثين في العلوم الإنسانية بصفة عامة.

مذكرات حربي:

1- في ركاب.. المركزيين..!

من "مفاجآت" محمد حربي في مذكراته التي صدرت أخيرا بكل من الجزائر وباريس(*)، أنه كان في صف اللجنة المركزية خلال أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي طفت على السطح مع مطلع 1954، وانتهت بانقسام الحزب في صائفة السنة نفسها[1].

طبعا هذه "المفاجأة" اضطرت الكاتب إلى تفسير اختياره الذي لم يكن اختيارا سلبيا، بل كان فاعلا من خلال المساهمة النشيطة إلى جانب عناصر قيادية بارزة في هذا الاتجاه، مثل المرحوم حسين لحول وامحمد يزيد (رحمه الله).

ترى لماذا هذا الاختيار؟

من الأسباب التي يذكرها الكاتب المناضل:

- «انفتاح المركزيين.. وانغلاق خصومهم».. بسبب «الطاعة العمياء» لزعيم الحزب الحاج مصالي.. ويؤكد الكاتب في هذا السياق، أن مطلب «الصلاحيات المطلقة» - الذي كان يطالب به زعيم الحزب بدعوى تصحيح الانحرافات على مستوى الأمانة العامة للجنة المركزية- هذا المطلب صدمه، رغم تقبله لانتقادات مصالي لبن خدة ورفاقه بصفة عامة.

(*) الشروق عدد 13و 20 ديسمبر 2001

(1) صدر الجزء الأول تحت عنوان: UNE VIE DEBOUT (حياة واقفة) ويغطي الفترة مابين 1945و 1962.

بل إن هذا المطلب صدم في البداية -حسب الكاتب- علي مصالي نفسه الذي فوجئ بصدور مثل هذا المطلب عن والده!

- تأثره بتهمة «عبادة الشخصية» التي كانت الأمانة العامة للحركة تلصقها بمصالي، وكانت هذه التهمة يومئذ رائجة في الأوساط الطلابية اليسارية خاصة، بسبب استعمالها من خصوم ستالين غداة وفاته سنة 1953.

وكان لامحمد يزيد أيضا دور في انحياز حربي إلى المركزيين، وينقل عنه في هذا الصدد قوله: «سنقصف مصالي بطوربيد يضع الثقال على كاهله وشيكا!» في إشارة إلى تحركات العناصر الثورية بقيادة بوضياف ومهساس.

ويتناول حربي في مذكراته أزمة حركة الانتصار ذاتها، فيشير إلى بعض خلفياتها مثل:

- احتدام الجدل حول جدوى التحالف من جديد مع "البيانيين" و"العلماء". فبينما كانت الأمانة العامة تطرح فكرة "المؤتمر الوطني" كضرورة لمواجهة تطور الأحداث، كان زعيم الحزب وأنصاره لا يرون من فائدة في ذلك، انطلاقا من القناعة بأن «الوطنية المعتدلة لا يمكن أن تكون لها مصداقية كقوة سياسية».

يذَكّر في ها الصدد أن "البيانيين" و"العلماء" كانوا يشترطون التحالف مع حركة الانتصار بالكف عن التفكير في وسائل العمل غير الشرعية وأسلوب التحريض الجماهيري..

–«مصادقة المؤتمر الثاني لحركة الانتصار (أبريل 1953) على قانون أساسي جديد، يمنع رئيس الحزب عمليا من الاعتراض على رغبة الأغلبية، أي أن القانون أصبح يتيح فرص المواجهة بين زعيم الحزب والأمانة العامة، لاسيما بعد أن تجرأت هذه الأخيرة على وضع أنصار الزعيم في موقع الأقلية (القليلة جدا!)، عند طرح مسألة "الصلاحيات المطلقة" في دورة سبتمبر 1953 للجنة المركزية.

– تحفز جزء من المناضلين لتجاوز حالة المراوحة بالتوجه نحو العمل الثوري مباشرة. ويسوق الكاتب في هذا الصدد الواقعة التالية: ألقى الكاتب في أوت 1953 محاضرة في سكيكدة حول قرارات المؤتمر الثاني لحركة الانتصار، استعمل خلالها بعض المصطلحات مثل "التاكتيك" و"الاستراتيجية"، وما أن ختم محاضرته حتى فوجئ بجمع من المناضلين يلتفون حوله متوسلين إليه «ألا ينساهم»!

أي أن يسجل أسماءهم في قائمة المتطوعين للمشاركة في التنظيم شبه العسكري! بعد أن فهموا بعض ما جاء في المحاضرة، كإيحاء بالشروع في تحضير الثورة المسلحة!

ومعروف أن مصالي بادر بطرح الخلاف مع الأمانة العامة على المناضلين في أواخر 1953 خلال ندوة اتحادية الحركة بفرنسا (27 ديسمبر) بواسطة أحد ثقاته المرحوم عبد الله فيلالي، وكانت المكاشفة في شكل اتهام للأمين العام بن يوسف بن خدة ورفاقه، «بالانحراف والسير بالحزب نحو الإصلاحية».

ويذكر بعض أطوار هذه الأزمة مثل:

– الندوة الوطنية التي دعت إليها اللجنة المركزية في فاتح يوليو 1954، حضر حربي هذه الندوة كمندوب عن قسمة سكيكدة رفقة مسعود قدروج، كما حضرها من طلبة باريس بن حبيلس وماضي، ومن الثوار الشهيد مصطفى بن بولعيد.

ومن وقائع هذه الندوة: أن حربي فوجئ بأن اللجنة المركزية لم تكن على موجة واحدة مع الثوار! فقد قام الزبير بوعجاج (من جماعة الـ 22) يعاتب اللجنة بعنف، لأنها في رأيه «خانت روح اللجنة الثورية للوحدة والعمل» من خلال السعي إلى عقد مؤتمر مواز لمؤتمر المصاليين– الذي انعقد بهورنو بعد أقل من أسبوعين.

وأمام اندهاش حربي – بسبب ما كان يشيعه يزيد حول علاقة المركزيين بالثوار – أفهمه المرحوم علي منجلي الذي كان بجواره: «أن الثورة هي الشغل الشاغل للثوار، وأن علاقتهم باللجنة المركزية كانت زواجا ظرفيا». وتولى الرد على بوعجاج المراقب العام للحزب رمضان بوشبوبة (عضو اللجنة الثورية) ليقول: «إن اللجنة الثورية انتهت.. لقد انشئت بهدف تفادي انقسام الحزب.. لكنها فشلت في مهمتها».

ويؤكد بوشبوبة بهذا التصريح أن اجتماع ال 22 الذي جاء كنتيجة لهذا الفشل انعقد قبل فاتح يوليو. والجديد في الموضوع أن حربي يذكر تاريخ 3 يونيو كموعد لهذا الاجتماع التاريخي، دون أن يشرح لنا كيف وصل إلي ذلك.. علما أن معظم الشهادات تجمع على أواخر يونيو.

– مؤتمر المركزيين في منتصف أوت الذي حضره حربي أيضا مندوبا عن المناضلين المناصرين للأمانة العامة بسكيكدة.. ويكشف الكاتب أنه ترشح لعضوية اللجنة المركزية، لكن أمحمد يزيد تدخل

لترجيح كفة مسعود قدروج، معللا ذلك بأن القيادة ساعدت كثيرا فيما مضى النخبة المثقفة على حساب العمال والكادحين، في إشارة إلى التصفيات التي تمت في المؤتمر الثاني للحركة قبل أكثر من سنة. فوجئ حربي عند عودته إلى سكيكدة، بردود فعل في القاعدة مناوئة للمشاركين في مؤتمر المركزيين، ومالبثت العناصر الموالية لمصالي أن استقطبت هذه الردود الغاضبة لصالحها، ومن العناصر التي برزت في هذه العملية: جفال ومغلاوي وكرومة..

– شارك حربي أيضا إلى جانب حسين لحول– من أقطاب المركزيين– في حملة باتجاه بعض القسمات التي التزمت الحياد – في البداية– بكل من الحروش والقل والعلمة بأمل كسبها إلى صف اللجنة المركزية.. وفي العلمة يذكر الكاتب أن لحول تحادث مع الدكتور الأمين الدباغين الذي كان مرفوقا بالحواس بوقدوم وعرض عليهما استئناف نشاطهما في التنظيم الجديد لكنهما اعتذرا عن ذلك.

– في أواخر أكتوبر 1954 حضر حربي لقاء بباريس، رفقة عدد من الإطارات الموالية لتيار المركزيين، نشطه كل من لحول ويزيد اللذين كانا في الطريق إلى القاهرة. وفي نهاية اللقاء خلا يزيد بحربي ليسر لهما: «نحن ذاهبان إلى القاهرة لإقناع بن بلة وخيضر وآيت أحمد بتأجيل تاريخ الإعلان عن الثورة.. فإذا لم نوفق فأنتم أحرار في تحمل مسؤولياتكم كما تشاؤون»!

ظل حربي إذا وفيا للجنة المركزية، لغاية اندلاع الثورة ليلة الفاتح نوفمبر 1954، وهو مايحاول تبريره بنوع من الاعتذار بقوله: «إن ثقافتي السياسية يومئذ لم تكن تسمح لي بفهم دور القادة الكبار في ظروف تاريخية معينة، وكانت نزعتي العلمانية في نفس الوقت تدفعني إلى تجاهل تأثيرات العامل الديني».

ولتوضيح مايقصده يضيف:« فالجزائر على غرار مجتمعات العالم الثالث، لم تكن تخضع لنفس المقياس الزمني للمجتمعات الأوربية التي استمد منها الأطر التحليلية».

في أواخر الستينيات، وبعد سلسلة من الفشل في محاولة فهم الواقع الجزائري، باستعمال هذه الأطر (المستوردة)، أخذ حربي يفكر في «نشأة وهيكلة المسار السياسي بالجزائر»، مما جعل الظاهرة المصالية تبدو أمامه «بوجه آخر» حسب اعترافه.

لقد استطاع أن يكتشف أنماطا سياسية جديدة، تكون المؤسسات فيها من صنع القادة، قبل أن ترقى هذه المؤسسات إلى مرحلة تكوين القادة، «فمصالي كان هو الحزب.. وكان يستمد زعامته إلى حد ما من المشاكل التي تواجه الجزائر: تجاوز الفوارق الاجتماعية والجهوية، تأسيس الوحدة الوطنية، إقامة أسس الشرعية، بناء نظام سياسي جديد».

ويضيف الكاتب في السياق نفسه:«كان مصالي في مجتمع يواجه مشكلة تحرر وطني، وكان يبدو في نظر الشعب مقاوما صامدا رغم معاناته.. وكان مسعاه السياسي على قدر كبير من التطابق مع المثل العليا الشعبية، الأمر الذي أكسبه تلك الدرجة من الإشعاع والتأثير».

والواقع أن أطروحة«الزعيم– المؤسسة» تصدق أيضا على فترة الإستقلال، من خلال «حالة» كل من الرئيسين أحمد بن بلة وهواري بومدين بصفة خاصة.. فكلاهما كان– بدرجات متفاوتة طبعا– «مؤسسة المؤسسات» بدون منازع.

وللحديث بقية...

2- مثقف.. في دور مخربش!

إذا كان المناضل محمد حربي قد ركب قطار المركزيين في محطة فاتح نوفمبر 1954، ترى في أي قطار دخل الجزائر غداة الاستقلال؟

يكشف حربي في مذكراته عن تسابق محموم بين الطامحين إلى الاستيلاء على مقاليد الحكم، لكسب ود المخربشين واستعمالهم لتعزيز حظوظهم في ذلك السباق!.

كان حربي يومئذ في الادارة المركزية لوزارة الخارجية، تحت رعاية المرحوم سعد دحلب، واحد من أبرز الوجوه في جناح المركزيين.. وكان دحلب قد خلف كريم في هذا المنصب، عند تشكيل الحكومة المؤقتة الثالثة- والأخيرة- برئاسة بن يوسف بن خدة في أوت 1961.

كان بلقاسم كريم- الرجل القوي في الحكومة المؤقتة يومئذ- يرى في نفسه المرشح الجديد بالفوز في سباق السلطة، باعتباره الوحيد من بين التاريخيين الستة[2] الذي لم يستشهد أو يقع في قبضة العدو، وأنه لهذا السبب بالذات عمل أكثر من الجميع، في سبيل استقلال الجزائر، ناهيك أن الزعماء الخمسة[3] أوصوا بتعيينه على رأس المفاوضين الجزائريين بدءا من إيفيان الأولى[4].

وبناء على هذا الطموح المشروع، كان يخطط لكسب معركة العاصمة.. ويقول حربي في هذا الصدد: أن المرحوم عمر أو صديق

---

(2) هم بوضياف، بن بولعيد، ديدوش، بن مهيدي، بيطاط كريم.

(3) هم بوضياف وبيطاط بالإضافة إلى وفد القاهرة الذي يضم خيضر، آيت أحمد، بن بلة.

(4) كريم ومعه كل من طبال وبوصوف

اتصل به في بداية 1962 بتونس، ليفهمه باختصار أن مصير السباق من أجل السلطة سيتقرر داخل البلاد..

وبناء على ذلك، فقد وجد رفقة الرائد عز الدين (رابح زراري) مسلكا للدخول إلى الجزائر وتنظيم المناضلين استعدادا ليوم الحسم. وعرض عليه طبعا أن كان يرغب في الانضمام إليهما!.

بعد وقف القتال (19 مارس) أعاد أوصديق الكرة، ولم يكتف بذلك بل سلمه وثائق مزورة لدخول الجزائر، تحمل ختم سلطات الاحتلال بدائرة برج بوعريريج..

هذا الموقف، أحرج الكاتب الذي لم يكن يرغب- حسب قوله- في دخول الجزائر معمض العينين، في عملية تمسك بخيوطها قوى مجهولة، ويذهب إلى حد التساؤل: كيف أمكن الحصول على مثل هذه الوثائق، بدون تواطؤ السلطات الفرنسية؟!.

هذا الحرص من كريم وجماعته، لم يكن يضاهيه سوى حرص العقيد هواري بومدين، قائد هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني.

وقد بدأت هذه الهيئة في البروز كفريق منافس للثلاثي[5] المهين على مقاليد السلطة في الحكومة المؤقتة، بفضل نجاحها في صهر قوات الولايات المرابطة على الحدود الشرقية والغربية. ويقول حربي في هذا الصدد: «إن نجاح عملية الانصهار في وقت قصير نسبيا (مابين 1960 و1961)، دليل على كفاءة بومدين ورفاقه في تجميع القوات الولائية وفرض الانضباط في صفوفها».

---

(5) مايو- يونيو 1961.

ويعتبر الكاتب أن طموح هيئة الأركان ظهر في مذكرة 15 يوليو 1961 المرفقة برسالة الاستقالة[7] التي تضمنت حسب قوله: نداء ضمنيا للزعماء الخمسة ضد قيادة الحكومة المؤقتة وكريم بصفة خاصة.

وتأكد هذا الطموح، من خلال محاولة كسب الزعماء الخمسة وقطع الطريق على الحكومة المؤقتة. ويكشف حربي في هذا السياق: أن بن طبال زار الخمسة في أواخر ديسمبر 1961، ففوجئ بأن بوتفليقة سبقه إليهم!..

وما لبثت أصداء هذا الطموح، أن بلغت الكاتب نفسه الذي يكشف أن المرحوم الرائد علي منجلي عرض عليه التحالف مع هيئة الأركان.. لكنه لم يكن متحمسا لذلك، لأن الخطاب الراديكالي الذي كان يميز أقطاب هذه الهيئة، كان يخفي مسعى تسلطيا لم يكن من الصعب تبنيه.

وعلى هذا الأساس، لم يكن يساير بن بلة الذي اختار التحالف مع هيئة الأركان، غداة الأفراج عنه ورفاقه مساء 18 مارس 1962.

كان بن بلة مدعوما في هذا المسعى بكل من خيضر وبيطاط، وقد هتف خيضر في فبراير 1962، من قصر أولونوا– المحطة الأخيرة في حبس الزعماء– إلى بن حبيلس، بعد استقالة حربي وبعض رفاقه من الإدارة المركزية لوزارة الخارجية، هتف له ليدعوه وزملاءه إلى الصبر، لأن ساعة الفرج قد أذنت! حسب قوله.

ويقول حربي، أنه فهم من هذه المكالمة أن التوقيع على اتفاقيات ايفيان بات وشيكا» أما بن حبيلس فقد علق عليها بقوله: أنهم بدأوا يبحثون عن مخربشين منذ الآن!

(6) تذرع بومدين ورفاقه لتقديم استقالتهم بحادثة الطيار الفرنسي الذي سلمته الحكومة المؤقتة تحت ضغط الحكومة الفرنسية.

وحاول بن بلة نائب رئيس الحكومة المؤقتة أن يواصل المهمة التي بدأها خيضر، بعد الإفراج عن الزعماء الخمسة. ويذكر حربي في هذا الشأن، أن بن بلة زار مكاتب الخارجية بالقاهرة في أفريل 1962. وحاول استغلال حادثة الإستقالة بدوره، حين سأل حربي ورفاقه هانحن الآن بينكم. ترى ماذا حدث؟! فرد عليه الشاهد باسم المجموعة: الحكومة على علم بالمشاكل التي تتخبط فيها، وأمام إلحاح بن بلة، أضاف قائلا: نحن مناضلون، لكن الجميع يتعامل معنا كموظفين لاغير!.

وظن بن بلة أنه معني بهذه الملاحظة، فانصرف غاضبا!.

بيد أن هذا الانطباع السيء عن حربي، لم يمنع بن بلة من محاولة كسبه في النصف الثاني من يوليو. فقد زار الكاتب تلمسان مقر قيادة بن بلة وأنصاره مرتين: في 16و 26 يوليو، رفقة وزيري خارجية غنيا ومالي اللذين جاءا في محاولة التوسط بين الفرقاء.. فعرض عليه الالتحاق به، محاولا اغراءه قائلا: لماذا لاتكون أنت في وزارة الخارجية وبن حبيلس في وزارة الفلاحة؟!

لكن حربي رغم هذه الممانعة الأولية، ما لبث أن التحق بصف أول رئيس للجزائر المستقلة، وذلك بعد إصدار مراسيم مارس 1963 الشهيرة حسب قوله. وقد أصبح مع مرور الأيام من أنصار بن بلة الأوفياء، حتى أنه أصبح بعد الإطاحة به في 19 يونيو 1965، من مؤسسي منظمة المقاومة الشعبية التي حاولت اعتراض سبيل الانقلابيين، لكن بدون جدوى!.

لكن ماذا عن علاقات حربي ببوضياف؟

عمل حربي قرابة شهر (أوت– سبتمبر 1962) مع المرحوم محمد بوضياف– منسق التاريخيين الستة– في العلاقات الخارجية لجبهة

التحرير الوطني– قبيل تشكيل حكومة بن بلة الأولى.. وكان بوضياف قد التحق بكريم الذي سبقه في توقيع اتفاق2 أوت، وبناء على ذلك قبل عضوية المكتب السياسي –بشروط– فكلف بالعلاقات الخارجية.

وقد ترك بوضياف خلال هذه الفترة القصيرة، انطباعا حسنا لدى الكاتب الذي يصفه بأنه: رجل نظام، كان يشركنا في جميع المحادثات التي يجريها مع الدبلوماسيين الأجانب.

وقبل ذلك كان الكاتب قد تعرف على بوضياف بتونس في أبريل 1962 وحاول أن ينبهه من مغبة التحالف مع كريم، نظرا لقوة معارضيه الذين كان في مقدمتهم بن بلة المدعوم بهيئة الأركان العامة لجيش التحرير.

ويعترف الكاتب أنه لم يعرف بوضياف قبل فاتح نوفمبر 1954، وأضاع فرصة التقرب إليه، عندما رفض عرضا من مراد طربوش– أول منسق لاتحادية الجبهة بفرنسا– للالتحاق بالثورة عام1955– لأنه لم يكن مهيئا لذلك من الناحية المعنوية!

وحاول تدارك مافاته، بواسطة موسى بوضياف– شقيق المرحوم– الذي كان على رأس مجموعة من الفدائيين بضواحي باريس. فقد التقى به خريف 1956 غداة مؤتمر الصومام، ونبهه إلى وجود خلافات بين الجزائروالقاهرة، وعرض عليه موعدا مع شقيقه الذي استأنف يومئذ نشاطه انطلاقا من اسبانيا، بعد فترة قضاها بالمستشفى هناك لمعالجة مرض السل.

وتم ضبط الموعد فعلا حسب الكاتب، لكن عملية اختطاف الطائرة التي كانت تقل بوضياف ورفاقه باتجاه تونس في 22 أكتوبر، أجلت اللقاء مابين الرجلين إلى ما بعد وقف القتال!

وكان لقاء عابرا لأن بوضياف لم يكن يشكل قطبا قويا يمكن الرهان عليه في سباق شرس من أجل وراثة إدارة الاحتلال الفرنسي!

وشأن بوضياف في ذلك لايختلف عن شأن شخصيات مثل بن خدة ويزيد ودحلب، هذه الشخصيات التي لم يكن حربي يراهن عليها أيضا، رغم التقدير الخاص الذي يكنه لها حسب قوله..

لكن– هل أحسن الكاتب– أو المخربش! الرهان على القوة الحقيقية في السباق من أجل السلطة في صائفة 1962؟

لا طبعا! لقد راهن على قوة بالوكالة، ما انفكت أن سقطت بمجرد سحب هذه الوكالة المؤقتة– التي لم تدم أكثر من ثلاث سنوات!

• الطـاهـر قـايـد

– ولد الطاهر قـايـد في 22 أكتوبر 1929 ببني يَعْلَى (سطيف)، وترعرع في بلكور (بلوزداد) أحد معاقل الحركة الوطنية بالعاصمة.

– تعرف على حزب الشعب الجزائري خلال الموسم الدراسي 1943–1944، بثانوية المدية التي كانت بها خلية نشيطة من بين عناصرها علي مصالي (ابن الحاج مصالي).

– عاد إلى العاصمة ليواصل دراسته بالمدرسة الثعالبية التي كان طلبتها على صلة بالوسط الجامعي وطليعته المناضلة.

– كان سنة 1954 على صلة بكل من بوضياف وبيطاط من قادة التيار الثوري، لكنه حضر مؤتمر المركزيين في منتصف أوت، بتكليف من زملائه الطلبة المناضلين في حركة الانتصار.

– أدركته الثورة وهو مدرس في تيغنيف (سيدي بلعباس)، ومالبث أن نقل إلى العاصمة فاتصل بعبان بواسطة الطالب رشيد عمارة.

ساهم بتكليف من عبان في استقطاب «المعتدلين» وضمهم إلى صفوف الثورة، بدءا بقيادة حزب البيان وزعيمه فرحات عباس.

– كلف بعد تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (1956/2/24) بمتابعة نشاط هذه المنظمة الجديدة، لكنه أعتقل في أواخر مايو ولم يفرج عنه إلا بعد وقف القتال في 19 مارس 1962.

– انتخب غداة الاستقلال أمينا عاما لنقابة المعلمين، قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي حيث عمل سفيرا للجزائر بكل من غانا وتانزانيا.

عندما أمر عبان بتصفية السعدي ياسف!

كان التلميذ الطاهر قايد(*) وهو في الخامسة عشرة من عمره مهيأ تماما للالتحاق بركب الحركة الوطنية. فثانوية المدية التي التحق بها في الموسم 1943–1944، كانت تضم خلية نشيطة من بين عناصرها علي مصالي– ابن زعيم حزب الشعب الجزائري الذي كان يومئذ تحت الاقامة الجبرية بقصر البخاري ثم بقصر الشلالة..[1]

وكان هذا التلميذ قد نشأ وسط عائلة مناضلة إذ كان أخوه الأكبر مولود[1] من عناصر حزب الشعب قبل أن يترعرع في حي بلكور (بلوزداد حاليا)، أحد معاقل الحركة الوطنية بالعاصمة.

هذا الالتزام المبكر كلفه ثلاثة أيام من الحبس بمركز شرطة المدية، خلال أحداث 8 مايو 1945 الأليمة.

ومن المدية واصل دراسته ببرج بوعريريج ثم بالمدرسة الثعالبية في العاصمة. وكان طلبة هذه المدرسة على احتكاك بالوسط الطلابي الجامعي وطليعته المناضلة.

وككل مناضل عاش محدثنا ابتداءا من سنة 1949 ماعرف يومئذ بـ «الأزمة البربرية» التي يقول عنها: أنه وقف آنذاك ضد العناصر المتهمة

(*) الفجر: عدد 24 يونيو 2002

(1) مولود قايد التحق بحزب البيان سنة 1946.

• الطاهر قايد

– ولد الطاهر قايد في 22 أكتوبر 1929 ببني يَعْلَى (سطيف)، وترعرع في بلكور (بلوزداد) أحد معاقل الحركة الوطنية بالعاصمة.

– تعرف على حزب الشعب الجزائري خلال الموسم الدراسي 1943–1944، بثانوية المدية التي كانت بها خلية نشيطة من بين عناصرها علي مصالي (ابن الحاج مصالي).

– عاد إلى العاصمة ليواصل دراسته بالمدرسة الثعالبية التي كان طلبتها على صلة بالوسط الجامعي وطليعته المناضلة.

– كان سنة 1954 على صلة بكل من بوضياف وبيطاط من قادة التيار الثوري، لكنه حضر مؤتمر المركزيين في منتصف أوت، بتكليف من زملائه الطلبة المناضلين في حركة الانتصار.

– أدركته الثورة وهو مدرس في تيغنيف (سيدي بلعباس)، ومالبث أن نقل إلى العاصمة فاتصل بعبان بواسطة الطالب رشيد عمارة.

ساهم بتكليف من عبان في استقطاب «المعتدلين» وضمهم إلى صفوف الثورة، بدءا بقيادة حزب البيان وزعيمه فرحات عباس.

– كلف بعد تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (1956/2/24) بمتابعة نشاط هذه المنظمة الجديدة، لكنه أعتقل في أواخر مايو ولم يفرج عنه إلا بعد وقف القتال في 19 مارس 1962.

– انتخب غداة الاستقلال أمينا عاما لنقابة المعلمين، قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي حيث عمل سفيرا للجزائر بكل من غانا وتانزانيا.

مع الطاهر قايد

عندما أمر عبان بتصفية السعدي ياسف!

كان التلميذ الطاهر قايد(*) وهو في الخامسة عشرة من عمره مهيأ تماما للالتحاق بركب الحركة الوطنية. فثانوية المدية التي التحق بها في الموسم 1943–1944، كانت تضم خلية نشيطة من بين عناصرها علي مصالي– ابن زعيم حزب الشعب الجزائري الذي كان يومئذ تحت الاقامة الجبرية بقصر البخاري ثم بقصر الشلالة..[1]

وكان هذا التلميذ قد نشأ وسط عائلة مناضلة إذ كان أخوه الأكبر مولود[1] من عناصر حزب الشعب قبل أن يترعرع في حي بلكور (بلوزداد حاليا)، أحد معاقل الحركة الوطنية بالعاصمة.

هذا الالتزام المبكر كلفه ثلاثة أيام من الحبس بمركز شرطة المدية، خلال أحداث 8 مايو 1945 الأليمة.

ومن المدية واصل دراسته ببرج بوعريريج ثم بالمدرسة الثعالبية في العاصمة. وكان طلبة هذه المدرسة على احتكاك بالوسط الطلابي الجامعي وطليعته المناضلة.

وككل مناضل عاش محدثنا ابتداءا من سنة 1949 ماعرف يومئذ بـ «الأزمة البربرية» التي يقول عنها: أنه وقف آنذاك ضد العناصر المتهمة

(*) الفجر: عدد 24 يونيو 2002.

(1) مولود قايد التحق بحزب البيان سنة 1946.

فيما، وساهم مع رفاقه من الطلبة في عزلها وإبعادها من صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

لكن تبين فيما بعد أن العناصر المتهمة بالنزعة البربرية، كانت مدفوعة برغبة في تجديد الحزب ومحاولة إثراء المحتوى الأيديولوجي لبرنامجه والانتقال من شعار الاستقلال إلى التفكير في مضمونه الاجتماعي.

ويستدل على ذلك بالتحاق معظم العناصر المتهمة بالحزب الشيوعي الجزائري، وهو ذو نزعة أممية ترفض الوطنيات فما بالك الجهويات! والمشكلة أن شبهة البربرية مالبثت أن ألصقت بالمناضل الطاهر قايد نفسه، لمجرد أنه حاول تفهم الدوافع التي كانت وراء أزمة 1949.. وهكذا وجد نفسه مهمشا قرابة السنة! وفي مطلع 1954 عرفت حركةالانتصار أزمة أشمل وأخطر، أدت إلى انقسام قيادتها بين مناصرين لزعيم الحزب الحاج مصالي، ومؤيدين للأمانة العامة ومن ورائها أغلبية أعضاء اللجنة المركزية.

وفي تلك الأثناء ظهرت اللجنة الثورية للوحدة والعمل كمحاولة لرأب الصدع ومعالجة هذا الانقسام الخطير. وكان الطالب قايد على صلة بإثنين من عناصرها البارزة وهما بوضياف وبيطاط.

ويقول في هذا الصدد: إن بوضياف اتصل به في يونيو 1954، ليطلب منه تبليغ التنظيم الطلابي التابع لحركة الانتصار بتجميد الاشتراكات ريثما يتضح الموقف.. وكان جوابه وأية أموال في رصيد الطلبة ياسي الطيب؟!

وحسب روايته أن طلبة العاصمة وقفوا مبدئيا على الحياد بين المصاليين والمركزيين. وقد اتخذ هذا الموقف في اجتماع بحضور قايد

وخان وسحنون وعسلة[2].. وبناء على ذلك تقرر أن يشارك خان في مؤتمر المصاليين الذي انعقد في منتصف يوليو بمدينة هورنو (بلجيكا)، ويشارك قايد في مؤتمر المركزيين الذي انعقد في مؤتمر أوت الموالي على أن يكون الموقف النهائي مع بداية الموسم الجامعي 1954–1955، علما أن معظم الطلبة كانوا قد عادوا إلى مواطنهم بسبب العطلة الصيفية.

وإلى جانب ذلك ظل محدثنا على صلة ببيطاط الذي كان يلتقي به في معظم الأحيان بمحل مناضل خياط في أعالي القصبة. وقد رافقه ذات يوم من سبتمبر، في جولة عبر مكتبات العاصمة بحثا عن كتاب في الكيمياء. وفهم من ذلك أن الجماعة بصدد تحضير عمل ماحسب قوله. في بداية أكتوبر انتقل المناضل قايد إلى تيغنيف (سيدي بلعباس) للتدريس بإحدى مدارسها وهناك اتصل بخلية حزب الشعب– حركة الانتصار، وكانت أغلبية عناصرها موالية لزعيم الحزب مصالي وكان خلال حواره معهم ينبههم إلي أن الثورة إذاما اندلعت فستكون بمبادرة من عناصر اللجنة الثورية للوحدة والعمل. وكان لسان حال عامة المناضلين يومئذ: من يفجر الثورة سنكون معه.

وغداة اندلاع الثورة، ساهم قايد مع المناضل بن نعوم في تكوين خلية من 21 شخصا، تمكنت من الاتصال بعناصر من جيش التحرير بالناحية ومدها بما يمكن من المساعدات والمعلومات.

وفي أفريل 1955 عين المناضل قايد للتدريس بالعاصمة فكانت في ذلك فرصة لتوطيد علاقاته بالثورة المسلحة، بعد أن استطاع الاتصال بسي أحمد (رمضان عبان) بواسطة الطالب عمارة رشيد. وقد ساهم

(2) أصبح طبيبا وقد استشهد ابان ثورة التحرير.

بدوره في تجنيد بعض الطلبة وتقديمهم إلى عبان، ومن هؤلاء محمد سحنون وعلى عبد اللاوي. ويصف بداية الثورة في العاصمة بقوله إن الظروف يومئذ كانت معقدة وصعبة جدا فالجزائري كان مترددا ازاء الثورة وآفاقها والظروف الغامضة التي انطلقت فيها، كما كان مترددا بين الولاء لجبهة التحرير والولاء لحركة مصالي.

عمل قايد بعض الوقت مع بن مقدم مسؤول منطقة العاصمة يومئذ فضلا عن المهام التي كان يؤديها بأمر من عبان مباشرة. ويذكر في هذا الصدد عددا من الوقائع نكتفي ببعضهما مثل:

– إنه ورفاقه كانوا يدعون إلى جبهة التحرير باستعمال صورة لأوعمران مرفوقا بعدد من المجاهدين الملثمين. وقد كتب على لوحة أمامهم جبهة التحرير الوطني– جيش التحرير الوطني.

– إن عبان أمر بتجنب العمليات الفدائية بالعاصمة حتى تظل مجالا للمناورة والانسحاب والعلاج أو الاختفاء، فضلا عن النشاط السياسي والاعلامي.

– ان السعدي ياسف اعتقل في ربيع 1955 ببروكسل ثم سلم إلى الأمن الفرنسي بباريس الذي راوده على التعاون معه لاختراق جبهة التحرير..

وقد تظاهر بقبول ما عرض عليه فأفرج عنه.

لكن عندما عاد إلى العاصمة، اختفى عن الأنظار بعض الوقت دون أن يبلغ عبان بنتائج المهمة التي كلف بها لدى بوضياف خاصة. وظن عبان بعد أن علم بوجود ياسف في العاصمة أنه ضعف أو خان فأمر بتصفيته.. لكن لحسن الحظ أن أحد أقاربه وهو الشهيد بوزرينة شفع له

لدى عبان بعد أن بدد ماتراكم من لبس وسوء تفاهم. وهكذا استأنف نضاله دون أن يستعيد ثقة عبان فيه تماما.

– إن مسألة ضم المعتدلين إلى الجبهة كانت موضوع نقاش مطول بين عبان ومساعديه. وقد حضر محدثنا في هذا الاطار في خريف 1955 اجتماعا ببيت أخيه صالح بشارع:لافونتين ببلكور مع عبان ورشيد عمارة واثنين آخرين لا يتذكر اسميها لبحث موضوع مجموعة الـ ب61 من (المنتخبين).. وكان الاتجاه الغالب في البداية، مع تجنب ضم هؤلاء المعتدلين، وكل المرشحين للقيام بدور «القوة الثالثة».. وكان رأيه الشخصي: «كفانا من فتح الباب على مصراعيه أمام هؤلاء!».

لكن عبان ما لبث أن فرض رأيه المؤيد للانفتاح على «المعتدلين».

ويعلق محدثنا على ذلك بأن الأيام كشفت أن عبان كان على حق. فالثورة ربما كانت تواجه مصاعب خطيرة، لو لم يبادر بسحب البساط من تحت أقدام "سوستيل" و"لاكوست" و"دوغول" بعد ذلك.

– أن قيادة الثورة بالداخل أصدرت منشورا سريا، يهدد المترشحين لتشريعات 2 يناير 1956 وأن عبان كلفه شخصيا بتكوين أفواج من الفدائيين لوضع هذا التهديد موضع التنفيذ إذا اقتضى الأمر.

وقد أدى ماطلب منه وأعد قائمة بالأفواج حسب كل حي، لكن عندما كان يتأهب لتسليم هذه القائمة الرقمية ألقي عليه القبض في 8 ديسمبر 1955 غداة اعتقال الطالب رشيد عمارة. وكان هذا الأخير رفقة محدثنا يقومان بمساع لدى قيادة حزب البيان بهدف الالتحاق بجبهة التحرير.

ولحسن الحظ أنه أفرج عنه هذه المرة بعد ثلاثة أيام فقط.

وغداة تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين في 24 فبراير 1956 كلف المجاهد قايد بمتابعة نشاط هذه المنظمة الجديدة بنية الاستفادة من الغطاء النقابي في نفس الوقت لكن عيون الشرطة ظلت تتابع تحركاته فما كان من عبان إلا أن أمره بالصعود إلى الجبل. وقد تقرر أن يكون ذلك في 28 مايو من نفس السنة عن طريق بني منصور في المنطقة الثالثة. غير أن الشرطة كانت له بالمرصاد فسارعت باعتقاله، قبل أربعة أيام من ذلك الموعد..

وهكذا بدأت رحلته الطويلة مع السجون التي لم تنته إلا بعد وقف القتال في 19 مارس 1962. بدأت هذه الرحلة بالبرواقية.. وانتهت بسيدي الشحمي (وهران) وبين هذا وذاك مر بمعظم سجون ومحتشدات وسط وغرب البلاد.

غداة الاستقلال استأنف نشاطه في النقابة، إذ كان أول أمين عام لنقابة المعلمين.. وبهذه الصفة كان عضوا قياديا أيضا في الاتحاد العام. لكن بعد أقل من سنة عاشت النقابة المركزية انقلابا، من تدبير المكتب السياسي الذي كان يحاول بسط نفوذه على جميع التنظيمات والمؤسسات.

وكانت النتيجة اقصاء المناضل قايد وبعض رفاقه الذين رفضوا الرضوخ لقيادة من بين عناصرها عبد الرحمان فارس!

أصبح محدثنا في صف المعارضة النقابية وذات يوم جاءه صديق له بالخارجية، ليسر إليه بأن الرئيس بن بلة وحاشيته ينوون به شرا لو استمر على هذا المنهج.. وتفاديا لسوء العاقبة من جراء شبح السجن المرتسم في الأفق، اقترح عليه الالتحاق بالسلك الدبلوماسي. وهكذا وجد نفسه بعد فترة وجيزة، سفيرا للجزائر بغانا ثم بتانزانيا.

• بيار شولي Pierre Chaulet

– ولد بيار شولي بالعاصمة سنة 1930، ونشأ وسط عائلة كاثوليكية مناضلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة من مجتمع المستوطنين الأوروبيين.

– درس في مدارس الآباء اليسوعيين، وفي نهاية المرحلة الثانوية بدأ يحتك بالحياة العامة عبر حركة "الشبيبة الطلابية المسيحية" وكان قبل ذلك من نشطاء "كشافة فرنسا".

– صدم في أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات من القرن الماضي بحقائق "الوجه الآخر" للظاهرة الاستعمارية. تلك الصدمة العنيفة التي أخرجته –حسب قوله– «من جنة المستوطنين الذين كانوا يرون الجزائريين يوميا دون أن يعرفوهم!»..

– احتك ابتداء من سنة 1951 بالطلبة الوطنيين، كممثل "للجمعية الكاثوليكية للطلبة".. وقد فتح أمامه هذا الاحتكاك باب التعاطف مع القضية الوطنية الجزائرية، قبل أن يتحول هذا التعاطف إلى "التزام استثنائي" حسب قوله.

– التحق بجبهة التحرير في أواخر سبتمبر 1955، وعمل في مصالح الاتصال والنقل والعلاج.. وكانت تشاركه في هذه المهام الخطيرة زوجته كلودين.

– اعتقل مرتين: بعد اختطاف طائرة بن بلة ورفاقه (1956/10/22)، وغداة إضراب الأيام الثمانية (28 يناير – 4 فبراير 1957)، قبل نفيه إلى فرنسا في ربيع 1957.

التحق بالجبهة في تونس أواخر 1957، حيث عمل بمصالح الإعلام والصحة إلى غاية الاستقلال.

– استأنف حياته بعد الاستقلال في القطاع الصحي –لاسيما بمستشفى بني مسوس– إلى أن أحيل على التقاعد.

1– «التـزام... "استثنائي"

يقول الدكتور بيار شولي عن مسيرته النضالية سواء قبل ثورة التحرير أو أثناءها، أنها تستجيب لعوامل تاريخية متميزة تعود «إلى الوسط العائلي المتفتح على المسألة الاجتماعية بصفة عامة، وإلى المشاركة النشيطة في الحركة النقابية الطلابية وفي حركات الشبيبة، فضلا عن الصداقات التي عقدها..» وكانت «صداقات استثنائية بأتم معنى الكلمة»(*).

ولد الدكتور شولي بالعاصمة سنة 1930، ونشأ وسط عائلة كاثوليكية مناضلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة من مجتمع المستوطنين الأوروبيين. فقد كان والده من مؤسسي الحركة النقابية المسيحية في الجزائر ثم شمال إفريقيا بعد ذلك. حتى أن أباه ألكسندر أصبح عضوا قياديا في "الكونفدرالية الفرنسية للعمال المسيحيين" بباريس، وعين بهذه الصفة عضوا في "المجلس الاقتصادي والاجتماعي".. هذه المكانة المتميزة لأبويه، فتحت أمامه أبواب المدارس الخاصة التابعة "للآباء اليسوعيين"، بدءا من مدرسة محمد الخامس الابتدائية إلى ثانوية بولوغين.

غير أن هذه "الحظوة" ما لبثت أن ولّدت لديه ردود فعل سلبية: لقد اكتشف في مدرسة محمد الخامس (سان سانس سابقا) وضعيته الطبقية المتواضعة، قياسا بأنداده من أبناء الموسرين تسببا الذين يقول عنهم: «إنهم زرعوا فيّ دون أن يشعروا، الوعي بالتفاوت الاجتماعي والنظرة الاستعلائية للأغنياء».

(*) الشروق: 20و27 يناير 2003.

وعشية الحرب العالمية الثانية التحق بالسنة الأولى من التعليم التكميلي، وكان عليه أن يختار لغة حية فرغب في تعلّم العربية اقتداء بوالده. لكنه اختار الألمانية مضطرا لأنه لم يكن بثانوية الآباء اليسوعيين، لا أستاذ لهذه اللغة ولا طالب آخر يرغب فيها!.

وفي نهاية المرحلة الثانوية، بدأ التلميذ بيار شولي يحتك بالحياة العامة عبر حركة "الشبيبة الطلابية المسيحية". وكان قبل ذلك من نشطاء "كشافة فرنسا" التي يقول عنها بأنها "كشافة كاثوليكية شبه عسكرية إلى حد ما».

هذه النشأة "الكاثوليكية الاجتماعية" جعلته وهو يحتك بالواقع الجزائري في أواخر الأربعينيات، يعيش صدمتين حسب قوله:

- **الصدمة الأولى:** أحدثها القانون الخاص بالجزائر الصادر في سبتمبر 1947 الذي جعل الطالب بيار «يكتشف اللامساواة السياسية والكذب المؤسساتي المكرس في هذا القانون!».

- **الصدمة الثانية:** كانت بسبب اكتشاف البؤس الاجتماعي في الأحياء القصديرية بالعاصمة.

في شتاء 1949 – 1950 بادرت مؤسسة خيرية تعرف بمؤسسة "الخدمة المدنية" بفتح ورشة بحي "بيراردي" القصديري في حسين داي. وكان بيار من طلبة كلية الطب الذين هبوا لمساعدة بؤساء هذا الحي.

ويعلق الدكتور شولي على هذا الاكتشاف المفاجئ للوجه الآخر من الواقع الاستعماري، بأنه أخرجه من "جنة المستوطنين الذين كانوا يرون الجزائريين يوميا دون أن يعرفوهم!». فقد بدأ يدرك منذ ذلك الحين «أن هذا البؤس العميق لا يمكن أن يعالج ببرامج اجتماعية وأعمال تطوعية».

لأن هذا البؤس باختصار «ظاهرة غير طبيعية ناتجة عن نظام الاستغلال الذي لا يمكن تجاوزه بدون تغيير سياسي عميق».

وما لبثت الآثار التراكمية لهذه الصدمات المتتالية، أن بعثت في الطالب الإنساني «الشعور بالحاجة إلى الالتزام، والتحرك لعمل شيء ما» حسب قوله.

وفي سنة 1951 بدأ يحتك بطائفة من الشباب الجزائري، ساعدته في اكتشاف طريق الالتزام السليم في جزائر ما قبل ثورة التحرير. وكانت البداية في شتاء هذه السنة من خلال لقاءات مفتوحة بين ممثلي منظمات شبانية متعددة الديانات والأعراق.. وكان طالب كلية الطب يشارك في تلك اللقاءات باسم "الجمعية الكاثوليكية للطلبة" ويشاركه فيها:

- من الكشافة الإسلامية: عمار الآغا، قداش، الوانشي، بسطانجي، دراني.
- من أطفال الكشافة: الطاهر التيجاني.
- من طلبة حركة الانتصار: بلعيد عبد السلام، الأمين خان.
- من طلبة حزب البيان: العياشي ياكر والحسن بورويبة.
- من الطلبة الشيوعيين: كرابة، وهنري مايو.

وقد تمخضت هذه اللقاءات بعد قرابة السنة عن فكرة إنشاء منظمة مشتركة مرنة، يكون الانخراط فيها بصفة فردية أو نيابة عن إحدى الجمعيات المذكورة. وكان الهدف من ذلك: إيجاد "فضاء للحرية" يجمع ذوي الإرادات الحسنة من الشباب، على أساس قاسم مشترك هو: "محاربة البؤس". وهكذا تم تأسيس جمعية الشبيبة الجزائرية للعمل الاجتماعي التي كانت تنظم ملتقيات دورية حول مواضيع حساسة مثل "الجوع"،

"البطالة"، "التمدرس"، "الظاهرة الاستعمارية"، "الخوف في الجزائر". وكانت الجمعية تعقد ملتقياتها عادة بسيدي فرج، باستثناء آخر ملتقى الذي عقد بعين طاية في يناير 1956 ونشطه الدكتور فرانز فانون.

هذه النشاطات المشتركة جعلت الطالب بيار شولي يرتبط بصلات حميمية مع أصدقائه الجزائريين.. وهي «حالة استثنائية» بمنظور الوضع القائم آنذاك والذي كان يرى في مصادقة الجزائريين «عملا تخريبيا»! وهكذا أخذت علاقات الصداقة تتحول شيئا فشيئا إلى رابطة تضامن مع «القضية الجزائرية» التي عبرت عنها لوائح المؤتمر الثاني (أفريل 1953) لحركة انتصار الحريات الديمقراطية أحسن تعبير، لقد وضعت هذه اللوائح تصورا متكاملا لدولة جمهورية ديمقراطية، تقضي على كل أشكال التمييز على أساس الدين أو العرق أو الطبقة الاجتماعية.

وقد اقتنع الطالب شولي بهذه الأطروحات، إلى درجة أنه رغب في الانخراط في حركة الانتصار!.. ويؤكد ذلك بقوله: «لقد أصبحنا ضد النظام الاستعماري بكل عزم وبدون تردد..» وأصبحنا نشاطر الوطنيين «رفضهم النظام القائم والحياة السياسية والمؤسسات المبنية على الكذب».

وكان مشروع الوطنيين يبدو في نظره يومئذ «المشروع المتوازن الوحيد الذي يتيح لجميع الجزائريين المكانة المناسبة حسب كل طائفة منهم».

وللدعوة إلى مثل هذه الأطروحات، ساهم الطالب في تأسيس مجلة «الوعي المغاربي» التي صدر عددها الأول في مارس 1954... وكان العدد الثالث الصادر في أكتوبر من نفس السنة، يتضمن افتتاحية للأستاذ أندري مندوز بعنوان مثير: «النجدة يا سادة! فالجزائر هادئة!».

ونظرا لعلاقات محدثنا الوثيقة ببعض أعضاء اللجنة المركزية لحركة الانتصار، فقد كان من الطبيعي أن يعايش أزمة الحركة منذ مطلع 1954، كما عاش معهم هزيمة الجيش الفرنسي بمعركة "ديان بيان فو" الشهيرة. ويذكر في هذا الصدد أنه جلس مساء 8 ماي من هذه السنة، بمطعم «الوداد» يعلق على ما حدث البارحة بالهند الصينية، رفقة درارني، والوانشي ودحلب ودماغ العتروس، والجيلاني مبارك.

ومع هؤلاء وأمثالهم عاش أطوار الأزمة حتى اندلاع الثورة في فاتح نوفمبر.

وتؤكد الشواهد السابقة أن هذا الطالب الإنساني كان عشية اندلاع الثورة على وشك القطيعة مع مجتمعه الأصلي: مجتمع المستوطنين الأوروبيين. فقد كان في تلك اللحظة الفاصلة، يدرك تمام الإدراك بأن الأغلبية الساحقة من "الكولون" لا يمكن أن تقاسمه القناعات التي انتهى إليها والتي تشكل في جوهرها حكما نهائيا على نظام الاحتلال الفرنسي بالجزائر. فقد عاشت هذه الأغلبية حسب قوله: «في ظل الهيمنة الاقتصادية والسياسية، وليس من الطبيعي أن تتخلى عن ذلك فجأة، لأنه يشكل نوعا من الانتحار».

وبعبارة أخرى فهذا الشاب لم يكن واهما، ذلك أن إمكانية التفاهم بين الوطنيين وأغلبية المستوطنين كانت تبدو منعدمة منذ الوهلة الأولى، «لأن التناقض القائم آنذاك لا تجدي معه الحلول الوسطى».

ولم يكن التحرر من جاذبية «المجتمع الأصلي» ورقابته أمرا سهلا، فقد كان يستوجب دوافع قوية استمدها شخصيا من «أخلاقه الدينية». في حين لعبت الأخلاق السياسية دورا في دوافع عدد من الشيوعيين والمناهضين للاستعمار عامة.

ويعترف محدثنا بأن هؤلاء جميعا كانوا مجرد «استثناء»، ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك. ويكشف في نفس الوقت عن وجود خلافات جوهرية في صفوف تلك الفئة القليلة من المستوطنين الذي تجشموا عناء مناصرة القضية الجزائرية منذ البداية.

ويقول في هذا الصدد: «ذهبت إلى الأستاذ مندوز رفقة كل من روش وبوبي[1] لنقول له لا يمكن أن نظل ماسكين بالعصا من الوسط إلى ما لا نهاية، وعلينا أن نختار بين حلول ثلاثة:

– الالتزام التام مع الجزائريين.

– محاولة التأثير على أوروبي الجزائر لقبول تغيير جذري في النظام القائم.

– مساندة استقلال الجزائر، لكن مع الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية، والبقاء في إطار سياسة التعاون أو العودة إلى فرنسا.

وكان رأينا أن مواصلة العمل على الجبهات الثلاث في آن واحد لم يعد ممكنا، ولا مفر من التموقع في واحدة منها.

وكان شولي ضمن النواة الصلبة التي اختارت الحل الأول، وما يمكن أن يؤدي إليه من استقلال وعيش في كنفه كعامة الجزائريين. في حين كانت أغلبية هذه الفئة القليلة، تؤيد الاستقلال لكن مع الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية والبقاء بالجزائر المستقلة كمتعاونين أو العودة إلى فرنسا نهائيا.

من ناحية الاستعداد النفسي إذن، لم يكن فاتح نوفمبر 1954 مفاجأة للطالب شولي، وكان همه الوحيد يومئذ مثل عامة الجزائريين هو: هل المسألة جدية؟! و«إلى متى ستستمر؟!».

(1) بوبي محام اغتالته منظمة الجيش السري (او.ا.س) الإرهابية سنة 1961.

وكان المناضل الصحفي محمد العيشاوي[2] من الذين طمأنوا بيار بأن الأمر جدي هذه المرة!

تواصلت لقاءات محدثنا بصورة عادية مع أصدقائه الجزائريين غداة اندلاع الثورة، وكان يومئذ بصدد تحضير مسابقة التربص في المستشفيات. وذات مساء من أواخر نوفمبر، بينما كان عائدا من جولة إلى سيدي فرج رفقة صديقين من أعضاء اللجنة المركزية لحركة الانتصار هما: صالح الوانشي وعبد الحميد مهري، عرف أن مصالح الأمن جاءت تفتش عنهما بمقر إقامتهما. ترى ما العمل؟! لقد عرض على الطريدين بدافع الصداقة والالتزام بالقضية المشتركة – قضية الاستقلال – إيواءهما بمنزله في ديار المحصول. وهكذا وجد نفسه تلقائيا تقريبا في دوامة الثورة.

ويعتبر الدكتور شولي هذا الاختيار المصيري أمرا طبيعيا، بدون قطيعة ولا تأنيب ضمير بالنظر إلى التزامي السابق.

وكانت خطواته الأولى في العمل لصالح جبهة التحرير الوطني، تتمثل في تأسيس لجنة سرية لإغاثة ضحايا القمع بعد حل حركة الانتصار والجمعيات التابعة لها. كما ساهم في «نادي الصداقة الجزائرية» إلى جانب جماعة شوفاليي وكل من كيوان وساطور.

وقد توطدت علاقته بالجبهة أكثر، عندما استطاع كل من درارني والوانشي، أن يتصلا مباشرة بنظام العاصمة، بعد أن استقر بها رمضان عبان، وأخذ يتصل بمختلف الأحزاب والجمعيات بهدف توسيع الجبهة كإطار لتوحيد جميع الجزائريين ضد العدو المشترك: الاستعمار الفرنسي.

(2) كان الصحفي الشهيد قد عاد لتوه من قرية إيغيل ايمولا (تيزي وزو)، حيث تم رقن وسحب بيان فاتح نوفمبر، وقد أكد للدكتور شولي بالمناسبة أن الثورة ليست من هؤلاء (المركزيين) ولا اولئك (المصاليين) في إشارة إلى أنها مبادرة من «الحياديين»

2 – «رقباء قادرون.. على تأسيس جمهورية!».

وجد الدكتور بيار شولي نفسه في دوامة الثورة[1] التحريرية، من خلال علاقته الوثيقة ببعض المناضلين والقياديين من «المركزيين» خاصة، على غرار الوانشي ومهري ودماغ العتروس ودرارني. وفي هذا السياق كان له لقاء برمضان عبان في أواخر سبتمبر 1955 بمنزل المناضل الكبير أحمد بودة بوادي كنيس (اروبسو). وكان مرفوقا بالوانشي ودرارني ولخضر رباح. ويبدو أن عبان حاول «استفزاز» هذا «المتطوع من الضفة الأخرى» فرد عليه: «أنا جزائري! فاعتبروني واحدا منكم!».

فأجابه عبان – إمعانا في الاستفزاز: «هذا ليس صحيحا!». وعندها قال الطالب شولي: «ومع ذلك نحن على استعداد للمساهمة بما نستطيع».

لاحظ عبان إصرار الطالب فرد قائلا: «سنرى ذلك».

بعد يومين ضرب عبان لهذا «المتطوع النادر» موعدا بالقرب من مستشفى مصطفى باشا لنقله إلى مكان ما. وقد جاء إلى الموعد متنكرا، يحمل علبة حلويات لإخفاء مسدسه!

ومنذ ذلك الحين اطمأن لمرافقه، لاسيما بعد أن اكتشف مسكنه بديار المحصول، واتخاذه ملجأ له تارة ونقطة لمواعيده تارة أخرى.

ويقول الشاهد في هذا الصدد: «لقد عشنا مع عبان ابتداء من فبراير 1955 وطوال عام 1956، وواكبنا معه عملية تجميع القوى السياسية

والاجتماعية من «البيانيين» والعلماء والتجار والعمال والطلبة وتلامذة الثانويات... الخ.. وكان الحوار والمناشير من أهم أسلحته في هذه العملية الحاسمة.

وتتميز مشاركة محدثنا في الثورة التحريرية بتعدد أوجهها، نظرا لتعدد إمكانياته الفكرية والمهنية والإنسانية. فهي لم تقتصر على دائرة تخصصه وحدها، بل امتدت كذلك إلى الاتصالات والتجنيد والصحافة، فضلا عن الإيواء والنقل كما سبقت الإشارة.

• فعلى الصعيد الصحي يقول محدثنا: «إن عبان أبدى حرصا كبيرا على تنظيم مصلحة تتكفل بالجرحى خاصة، لاسيما بعد استشهاد المناضل الكبير حنفي فرنان (على الأرجح) إثر إصابته في بطنه.

وكانت الدكتورة نفيسة حمود قد بدأت تقوم بالتجنيد في الوسط الطبي، بعد أن أقنعت بعض زملائها أمثال مهدي بودربة، ومجاوي. وقد أبدى في نفس الوقت عدد من الأطباء – من بينهم بيار روش – استعدادهم لمعالجة الجرحى، وتوفير أماكن آمنه لهم بالقبة وحسين داي خاصة.

وبعد أن تمت تهيئة هذه الأماكن فعلا، أصبح الطبيب الطالب يقوم بتفقد المصابين الذين كلفت بعض الممرضات المتربصات برعايتهم.

ومن المشاهد المؤلمة التي انطبعت في ذاكرته عن تلك الفترة المليئة بالتضحيات، ذلك الجريح الذي جاء إلى مزرعة بن ونيش[3] من الولاية الرابعة وقد تعفنت ساقه إلى حد الركبة.. ومع ذلك تحمل عناء السفر – مشيا على العظم! – من أعالي المدية إلى برج الكيفان!

(3) أصبحت المزرعة مقرا للعيادة ميدانية لعلاج جرحى المنطقة الرابعة خاصة.

• ولم يكن دور الطبيب الطالب بأقل شأنافي ميدان الاتصالات الخطيرة– بفضل «ذات الحصانين» الشهيرة!فقد كان يتنقل ببعض المسؤولين، وينقل الرسائل إلى التجاروالأعيان، ويرافق الراغبين في الالتحاق بالجبال، كما ساهم في تجنيد المتطوعين! ومن ذكرياته في هذا الصدد:

– أنه نقل رسالة ذات مرة إلى تاجر ميزابي بقلب العاصمة، وكان مرفوقا بزوجته كلودين التي اصطنعت بالمناسبة دور الزبون. ولما سمع منهما التاجر كلمة السر ذهل لأول وهلة خشية أن يكون أمام فخ بوليسي!

– أنه كلف بنقل قرارات الصومام إلى بلقاسم كريم بالولاية الثالثة، بعد نشرها في العدد الرابع من صحيفة «المجاهد». وكان في هذه الرحلة الخطيرة مرفوقا بزوجته ورضيعهما لوقا.وقد سلم الأمانة إلى المناضل مزيان الوانشي الذي تولى إيصالها إلى كريم.

وقام أيضا بإرسال نص القرارات إلى صحيفة «لاكسيون» (التونسية)– التي يتعاون معهامنذ أواخر 1955، وقد أرسل الوثيقة إلى رئيس التحرير البشير بن يحمد مع التعليق التالي:« رقباء قادرون على تأسيس جمهورية!»

وهي ملاحظة في معرض الرد على الرئيس بورقيبة الذي نسب إليه قوله عن قادة الثورة يومئذ استخفافا:«رقباء يريدون تأسيس جمهورية!»

– أنه ساهم في ترتيب التحاق الدكتور فرانز فانون بالثورة في تونس. وحسب روايته أن فانون كان في البداية ينشط بفرع «نادي الصداقة» في البليدة، رفقة ابن ضيف الله وبعض أعيان المدينة. وقد

لاحظ نقابيون جبهويون بمستشفى الأمراض العقلية أنه «عنصر مهم»، فأبلغوا شبكة الجبهة بذلك. وكانت مصلحة الصحة المركزية يومئذ تبحث عن أخصائي نفساني تثق به، بعد أن أخذت الأمراض العصبية في الظهور بين الثوار، سواء كانوا في الجبال أو في النظام السري بالمدن.

وقد كلف شولي ودرارني بالاتصال بفانون وعرض الأمر عليه فقبل بدون تردد.. وكان قبل ذلك قد عرف العقيد أوعمران قائد المنطقة الرابعة وخليفته العقيد دهيلس فضلا عن الرائد إيدير. وعندما كتب رسالة الاستقالة الشهيرة (إلى الوزير المقيم لاكوست) في أواخر 1956 أخذ يلح على مقابلة مسؤول كبير في الجبهة التحرير. فقام الدكتور شولي بترتيب موعد له مع كل من عبان رمضان وابن خدة. وصادف ذلك يوم اغتيال أميدي فروجي رئيس اتحادية رؤساء البلديات بالجزائر في أعالي ديدوش مراد، غير بعيد عن مكان الموعد أمام ملهى «بلونوت».

وقبيل إضراب الأيام الثمانية قرر لاكوست نفي فانون من الجزائر إلى فرنسا، فتولى شولي مرافقته إلى المطار قبل التكفل بإلحاق زوجته وابنه. وهناك استقبله الوانشي وقام بتدبير سفره إلى تيطوان ومنها إلى تونس حيث استقر بهيئة تحرير «المجاهد».

ولم تكن مثل هذه المهام العديدة، والخطيرة لتلهي محدثنا عن مواصلة هوايته المفضلة: الكتابة الصحفية. فقد كان يراسل صحيفة «لاكسيون» كما سبقت الإشارة، ويساهم في تحرير مجلة «الوعي المغاربي» الدورية.

وقد قامت سلطات الاحتلال بحظر هذه المجلة مطلع 1956، بعد نشر المناشير التي كان يصدرها عبان ابتداء من أبريل 1955.

بعد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، انتهت لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عنه إلى قرار خطير: ضرورة إرهاب المستوطنين بواسطة الاغتيالات الانتقائية والعشوائية في آن واحد، ولو اقتضى ذلك وضع قنابل موقوتة بالمحلات العمومية. وجاء هذا القرار للرد على:

- الشروع في تنفيذ حكم الإعدام على أسرى جبهة التحرير- بدءا بزهانة وفراج في 19 يونيو.

- إرهاب غلاة المستوطنين الذين بادروا بوضع قنبلة بمبنى شعبي يقع بشارع طيبة في القصبة. وقد خلفت هذه العملية التي نفذت في 10 أوت عشرات القتلى والجرحى.

ويقول الدكتور شولي في هذا الصدد أنه وبعض رفاقه كانوا ضد العمليات الفدائية بالمدن. وقد تناقشوا في ذلك مطولا مع عبان الذي عبر لهم عن تفهمه لموقفهم، لكنه شرح لهم في نفس الوقت ضرورة مثل هذه العمليات، لأن الاغتيالات الفردية الموجهة كانت صعبة التحقيق حينئذ، بحكم أن معظم قادة الجبهة كانوا يختفون بالأحياء الأوروبية.

وصادف أن وضعت الجبهة قنبلتين في رواق عمارة موريطانيا، حيث كانت نقاط التسجيل لركوب طائرات الخطوط الجوية الفرنسية. وتشاء الصدفة أن يكون شولي وزوجته بهذا المكان لتوديع صديق، وكان معهم العديد من العناصر الأوروبية المساندة للجبهة. ولحسن الحظ أن القنبلتين لم تنفجرا. ولما عرف الدكتور ماحدث بعد ذلك لم يتوان عن الاحتجاج لدى عبان الذي يؤكد بالمناسبة «أنه رجل حوار» خلافا لما يشاع عنه من «ديكتاتورية» أو «خيانة» وما إلى ذلك من التهم التي يعتبرها الشاهد «غير جدية».

لاحظ نقابيون جبهويون بمستشفى الأمراض العقلية أنه «عنصر مهم»، فأبلغوا شبكة الجبهة بذلك. وكانت مصلحة الصحة المركزية يومئذ تبحث عن أخصائي نفساني تثق به، بعد أن أخذت الأمراض العصبية في الظهور بين الثوار، سواء كانوا في الجبال أو في النظام السري بالمدن.

وقد كلف شولي ودرارني بالاتصال بفانون وعرض الأمر عليه فقبل بدون تردد.. وكان قبل ذلك قد عرف العقيد أوعمران قائد المنطقة الرابعة وخليفته العقيد دهيلس فضلا عن الرائد إيدير. وعندما كتب رسالة الاستقالة الشهيرة (إلى الوزير المقيم لاكوست) في أواخر 1956 أخذ يلح على مقابلة مسؤول كبير في الجبهة التحرير. فقام الدكتور شولي بترتيب موعد له مع كل من عبان رمضان وابن خدة. وصادف ذلك يوم اغتيال أميدي فروجي رئيس اتحادية رؤساء البلديات بالجزائر في أعالي ديدوش مراد، غير بعيد عن مكان الموعد أمام ملهى «بلونوت».

وقبيل إضراب الأيام الثمانية قرر لاكوست نفي فانون من الجزائر إلى فرنسا، فتولى شولي مرافقته إلى المطار قبل التكفل بإلحاق زوجته وابنه. وهناك استقبله الوانشي وقام بتدبير سفره إلى تيطوان ومنها إلى تونس حيث استقر بهيئة تحرير «المجاهد».

ولم تكن مثل هذه المهام العديدة، والخطيرة لتلهي محدثنا عن مواصلة هوايته المفضلة: الكتابة الصحفية. فقد كان يراسل صحيفة «لاكسيون» كما سبقت الإشارة، ويساهم في تحرير مجلة «الوعي المغاربي» الدورية.

وقد قامت سلطات الاحتلال بحظر هذه المجلة مطلع 1956، بعد نشر المناشير التي كان يصدرها عبان ابتداء من أبريل 1955.

بعد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، انتهت لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عنه إلى قرار خطير: ضرورة إرهاب المستوطنين بواسطة الاغتيالات الانتقائية والعشوائية في آن واحد، ولو اقتضى ذلك وضع قنابل موقوتة بالمحلات العمومية. وجاء هذا القرار للرد على:

– الشروع في تنفيذ حكم الإعدام على أسرى جبهة التحرير– بدءا بزهانة وفراج في 19 يونيو.

– إرهاب غلاة المستوطنين الذين بادروا بوضع قنبلة بمبنى شعبي يقع بشارع طيبة في القصبة. وقد خلفت هذه العملية التي نفذت في 10 أوت عشرات القتلى والجرحى.

ويقول الدكتور شولي في هذا الصدد أنه وبعض رفاقه كانوا ضد العمليات الفدائية بالمدن. وقد تناقشوا في ذلك مطولا مع عبان الذي عبر لهم عن تفهمه لموقفهم، لكنه شرح لهم في نفس الوقت ضرورة مثل هذه العمليات، لأن الاغتيالات الفردية الموجهة كانت صعبة التحقيق حينئذ، بحكم أن معظم قادة الجبهة كانوا يختفون بالأحياء الأوروبية.

وصادف أن وضعت الجبهة قنبلتين في رواق عمارة موريطانيا، حيث كانت نقاط التسجيل لركوب طائرات الخطوط الجوية الفرنسية. وتشاء الصدفة أن يكون شولي وزوجته بهذا المكان لتوديع صديق، وكان معهم العديد من العناصر الأوروبية المساندة للجبهة. ولحسن الحظ أن القنبلتين لم تنفجرا. ولما عرف الدكتور ماحدث بعد ذلك لم يتوان عن الاحتجاج لدى عبان الذي يؤكد بالمناسبة «أنه رجل حوار» خلافا لما يشاع عنه من «ديكتاتورية» أو «خيانة» وما إلى ذلك من التهم التي يعتبرها الشاهد «غير جدية».

طبعا لم يكن التزام الدكتور شولي مع جبهة التحرير ليمر مر الكرام، سواء بالنسبة لمجتمع المستوطنين الأوروبين أو للدوائر الأمنية... وبدأ يدفع الثمن مقابل «ذهابه بعيدا» مع الوطنيين على مستوى مجتمعه الأصلي الذي سعى بطرق مختلفة إلى تهميشه، وإقصائه شيئا فشيئا إلى غاية نبذه تماما!

وقد أخذت مصالح الأمن من جهتها تراقب تحركاته إلى أن قامت باعتقاله مرتين:

– المرة الأولى بعد اختطاف طائرة الوفد الخارجي للجبهة في 22 أكتوبر 56. لقد عثرت مصالح الأمن لدى محمد خيضر على كناشة بها عدد من العناوين منها عنوان شقيقته بالعاصمة.

لكن اعتقاله لم يدم طويلا، وإن أثارت هذه المسألة شبهات حوله.

– المرة الثانية بعد إضراب الأيام الثمانية، وكان يوم اعتقاله على موعد مع عبان لتهريبه إلى البليدة، إثر قرار لجنة التنسيق والتنفيذ مغادرة البلاد مؤقتا. وقد بادرت زوجته كلودين نيابة عنه، بأداء هذه المهمة على أحسن وجه.

لم تعثر مصالح الأمن على قرائن جدية لإدانة الرجل عدا عنوان السيد ابن اسماعيل مدير صحيفة «لاكسيون » بتونس الذي صرف اهتمامهم إلى قضية ثانوية: مراسلة لاكسيون!

وقد اعترف لهم بذلك على أساس أنه لم يكن يرسل لهذه الصحيفة، سوى قصاصات من الصحف المحلية التي تتصرف فيها كما تشاء!

مكث المعتقل ثلاثة أيام بين أيدي عناصر «د.س.ت» (مديرية مراقبة التراب الوطني) التي حاولت استمالته لاختراق صفوف الجبهة كما

كانت تفعل دائما! فكان جوابه: «موافق ولكن على طريقة زميلكم المفتش أوسيمر!» وكان هذا الأخير قد اعتقل يومئذ بعد أن اكشفت علاقته بجبهة التحرير!

وفي نهاية المطاف أحيل على العدالة في «قضية لاكسيون» وقد أمضى بسببها شهرين بالسجن، وبمجرد الإفراج عنه نفي إلى فرنسا.

استغل النفي لإعداد أطروحة الدكتوراه في الطب التي ناقشها في نوفمبر 1957 في انتظار التحاقه بالجبهة في تونس نهائيا. وكانت قد سبقته إليها زوجته وابنه ابتداء من أكتوبر.

وفي الأسبوع الأخير من ديسمبر حط الرحال بتونس.

ويقول في هذا الصدد: «كنت سعيدا طبعا بلقاء الأسرة والأصدقاء، لكن كنت سعيدا أكثر بالتخلص من كابوس النوم تحت شبح الاعتقال في أية لحظة!»

وفي 24 ديسمبر تمكن من مقابلة عبان، ليسلمه تقريرا حول «تنظيم قطاع الصحة في جزائر الاستقلال»، كان أعده بطلب منه، وعكف عليه طوال العطلة الصيفية.

كان عبان يومئذ على أهبة «السفر» إلى المغرب. فقال له: «سندرس الموضوع بعد عودتي»! واقترح عليه الانضمام إلى هيئة تحرير «المجاهد»، طالما أنه كان من محرريها بالجزائر، وكان قد سبقه إليها صديقه الدكتور فانون.

كانت هيئة التحرير آنذاك تحت إشراف كل من أحمد بومنجل (الطبعة الفرنسية) وإبراهيم مزهودي (الطبعة العربية) بمساعدة منسقين هما رضا مالك (للأولى) ومحمد الميلي (للثانية). وكانت أجواء العمل حسنة

يومها، بدليل أن هيئة التحرير كانت تعمل بصفة موحدة مع نوع من تقسيم العمل حسب الجمهور والمناطق: فقد كانت الطبعة العربية تركز على العالم العربي، في حين كانت نظيرتها الفرنسية تركز على أوروبا وأمريكا، مع الاشتراك في نفس الخط الافتتاحي. وكانت بعض المقالات الهامة تترجم لنشرها في الطبعتين معا.

طبعا كان لابد في هذا السياق أن نسأل الدكتور شولي عن ملابسات الإعلان عن «استشهاد» عبان في أواخر مايو 1958. وفيما يلي خلاصة جوابه:«استدعى كريم ومحمود الشريف بومنجل وسلماه البلاغ المذكور لنشره حرفيا. وبناء عليه أبلغنا أن الأمر صادر عن لجنة التنسيق والتنفيذ وينبغي نشره كما هو!»

ويعلق على ذلك بقوله:«كتمنا غيظنا ونشرنا البلاغ كما وصلنا» ورغم ارتيابنا في حدوث أمر ما، لكن لم يكن هناك متسع للاحتجاج حينئذ».

وقد تزامن ذلك مع بعض الوقائع التي كانت تزيد من حكمة الصمت مثل:

– حادثة النقيب علي حنبلي[4].

– «التحقيق» الذي نشرته «باري ماتش» حول «الذئاب التي يأكل بعضها بعضا في تونس»!

لكل ذلك لم يكن من الممكن أن نزيد الطين بلة!

مكث الدكتور شولي بهيئة تحرير «المجاهد» حتى مطلع 1962 وكان قبل ذلك قد كلف بإعداد بعض الملفات في إطار مفاوضات إيفيان الأولى والثانية (وضعية الأقلية الأوروبية بعد الاستقلال خاصة).

(4) سلم نفسه لجيش الاحتلال بجبل سيدي أحمد، بسبب خلاف مع «قيادة العمليات العسكرية (كوم) برئاسة العقيد ناصر (محمدي السعيد).

وغداة وقف القتال انتدب للمساهمة في عودة المرضى من اللاجئين، ثم في عودة اللاجئين بتونس بصفة عامة. وفي بداية أوت 1962 عاد بدوره.. عاد على متن سيارته مرفوقا بأسرته. وكان «جواز السفر» الوحيد الذي بحوزته هو بطاقة اللاجئ!

ومع ذلك وصل العاصمة آمنا، ليستأنف رحلة جديدة مع مهنة الطب في ظل الجزائر المستقلة.

الفصل الثالث : «معجزة» الثورة الجزائرية

- الزهرة ضريف بيطاط
- بوعلام أوصديق
- علي لونيسي
- مصطفى بن عمار
- عبد الرزاق بوحارة

• الزهرة ضريف بيطاط

ولدت الزهرة ضريف بتيارت في 28 ديسمبر 1934، وبها تعلمت مبادئ القراءة بالعربية ودرست المرحلة الابتدائية في المدرسة الفرنسية. وقد واصلت دراستها غداة الحرب العالمية الثانية في ثانوية "فرومنتان" (بوعمامة حاليا) إلى جانب الزبدة من ذرية المستوطنين الأوربيين.

– التحقت بكلية الحقوق جامعة الجزائر عشية ثورة فاتح نوفمبر 1954، وما لبثت أن اتصلت بثوار العاصمة بفضل زملائها من الطلبة الوطنيين.

– التحقت في بداية 1956 بمجموعة الفداء ببلكور التي كان على رأسها مصطفى فتال، وأبدت منذ الوهلة الأولى رغبتها في المشاركة في العمل المسلح. وقد تحقق لها ذلك ضمن مجموعة السعدي ياسف ابتداء من خريف نفس السنة.

– عاشت حصار العاصمة إلى جانب ياسف وبن مهيدي "الذي كان يعيش مع الفدائيين كأي واحد منهم" حسب قولها.

– اعتقلت في أواخر أوت 1957 بالقصبة رفقة السعدي ياسف، وظلت حبيسة السجون الفرنسية حتى وقف القتال سنة 1962.

– اقترنت غداة الاستقلال بالقائد رابح بيطاط وانتخبت نائبة في المجلس التأسيسي، لكن ما لبثت أن أدركت أن ساعة مشاركة المرأة في السياسة –على قدم المساواة بالرجل– لم تحن بعد! لذا فضلت استكمال دراستها في الحقوق، ودخول عالم الأعمال الحرة عبر بوابة المحاماة.

– السيدة بيطاط من مناضلات قضية المرأة، وهي الآن عضو في مجلس الأمة ضمن الثلث الرئاسي (من تعيين الرئيس بوتفليقة).

1– محظوظة "فرومنتان".. التي أصبحت فدائية كبيرة..!

تتحدث المجاهدة الكبيرة الزهرة ضريف عن تجربتها في الفداء ومع سجون الاحتلال، وعن اختطافها في أول يوم تعود إلى الجزائر بعد الإفراج عنها! حدث ذلك عشية الاستقلال من قبل عناصر موالية للحكومة المؤقتة، كانت تظن أن الزهرة ورفيقتها جميلة (بوحيرد) عادتا بأمر من خصومهم: بن بلة وبومدين!(*).

: ولدت الزهرة ضريف بولاية تيارت، وسط عائلة متعلمة من "أشراف الناحية". أي "بنت زاوية" حسب تعبيرها. وكان والدها قاضيا مزدوج اللغة، فحرص على تعليم أبنائه بدون تمييز، ولما بلغت الزهرة سن الدراسة التحقت بالمدرسة الفرنسية، لكنها ظلت مع ذلك تتردد على الكتاب لتعلم العربية وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم.

وغداة الحرب العالمية الثانية جاءت إلى العاصمة لمواصلة تعليمها (التكميلي والثانوي) بثانوية "فرومنتان" (ديكارت سابقا، وبوعمامة حاليا)، وكانت تتوفر على نظام داخلي مخصص أساسا لبنات كبار العائلات من المستوطنين الأوربيين.

هذه «الحظوة التربوية» لم تؤثر مع ذلك على ميول هذه التلميذة، فظلت جزائرية قلبا وقالبا.

وتتحدث الزهرة عن هذه «الوطنية العفوية» فتقول: «لم يسبق لي النضال في أي من الأحزاب، لأن المجتمع في ذلك العهد لم يكن يسمح لبنات العائلات مثلي بالمشاركة في النشاط السياسي. لكن ما أتذكره هو

(*) الفجر: 3 و10 يونيو 2002.

أننا كنا منذ طفولتنا نشعر بالاختلاف عن الفرنسيين، وبأن الاستعمار ظاهرة دخيلة، ومن ثمة فهو مرشح للرحيل عاجلا أو آجلا».

«فالوعي الوطني يتكون بصورة طبيعية في الوسط العائلي.. ويتفتق قليلا من خلال الكشافة حيث نتعلم الأناشيد الوطنية.. وللمدرسة الفرنسية دور أيضا حيث كنا نتعلم شعار «الحرية والأخوة والمساواة»... وللتاريخ دور أساسي في تكوين الوعي الوطني.. ورغم أننا لم نكن نتلقى بهذه المدرسة سوى نتف من تاريخنا، فقد ترسخ في أذهاننا بأن تاريخنا عريق ومستمر». هذا الوعي الوطني الخام ما لبثت بعض الأحداث – المحلية والدولية – أن شحذته وصقلته، ومن هذه الأحداث:

– محليا: أحداث 8 ماي 1945 التي أثرت في التلميذة الزهرة، وكذلك أزمة «حزب الشعب الجزائري» التي عاشتها عبر الصحافة وهي تتأهب للالتحاق بالجامعة.

– جهويا: أحداث تونس والمغرب (1952 و1953) التي جعلت الزهرة – شأن آلاف الجزائريين – تتساءل: «لماذا؟! هل إن أهل تونس ومراكش خير منا؟!

– دوليا: هزيمة الجيش الفرنسي بديان بيان فو (فيتنام – مايو 1954) التي تقول عنها: «كانت زميلاتنا الفرنسيات – في ثانوية "فرومنتان" – يبكين لوقع الهزيمة، بينما كنا نحن الجزائريات في غاية الابتهاج»!

وعن تأثير كل هذه الخلفيات والأحداث تقول الزهرة في سياق أجواء ما قبل نوفمبر 1954: «أخذنا نشعر بأننا لا بد أن نشارك بكيفية أو بأخرى في تحرير بلادنا.. لذا كنا ننتظر لحظة إعلان الثورة على الاحتلال، ولما

قرأنا ما حدث ليلة فاتح نوفمبر في الصحافة الاستعمارية تأكدنا أنها اللحظة التي ننتظرها، رغم تقديم هذه الصحافة لتلك الأحداث وكأنها من عمل «عصابات إجرامية».

لكن كيف التحقت الطالبة ضريف بالكفاح المسلح؟

عند اندلاع الثورة كانت هذه الطالبة قد التحقت بالجامعة، فأخذت تحتك بالطلبة المناضلين من أعضاء «جمعية الطلبة المسلمين بشمال إفريقيا» خاصة، وعن طريقهم تمكنت بعد جهد جهيد من العثور على «الخيط» الموصل إلى الثوار «لأن الالتحاق بالثورة يومئذ لم يكن سهلا» كما تقول.

كانت الطالبة مصممة في حالة اندلاع الثورة على حمل السلاح مباشرة، لأن نفسيتها كانت تأبى عليها القبول بأنصاف الحلول والمهام شبه العسكرية، من إسناد ومساعدة اجتماعية وما إلى ذلك.. لكن للثورة منطقها أيضا، وهو منطق يخضع الملتحق بها إلى التجربة، والتدرج في أداء المهام من السهل إلى الصعب. ولم تكن الطالبة الزهرة ضريف لتشذ عن ذلك عندما التحقت في بداية 1956 بمجموعة مصطفى فتال – رفقة صديقتها سامية الأخضري. كان عليها أن تمر «بالمرحلة الابتدائية» للفداء، والمتمثلة في زيارة عائلات المجاهدين والمعتقلين ومواساتها معنويا وماديا، ثم في نقل الرسائل والطرود والأسلحة من مكان إلى مكان. والتعرف على مختلف أحياء العاصمة، تمهيدا لمرحلة المشاركة في العمل المسلح مباشرة.

كانت الطالبة متشوقة إلى هذه المشاركة، فكانت بين الفينة والفينة والأخرى تعبر عن ذلك أمام مسؤوليها قائلة: «أريد أن أشارك في الحرب، لإنني لا أنفع في الكتابة أو المساعدة الاجتماعية».

وذات صباح من أواخر مايو 1956، بينما كانت الطالبة المتحمسة تتأهب لمغادرة الحي الجامعي ببن عكنون، قرأت فجأة في إحدى الصحف نبأ اعتقال «إرهابي خطير» لم يكن سوى مصطفى فتال مسؤولها المباشر. في تلك اللحظة فقط، أدركت أنها عضو نشيط في حركة ثورية مسلحة!

وتقول في هذا الصدد: «إن المهام المسندة إلينا كانت تزداد أهمية دون أن ندري، وكنا ننفذها بدون نقاش، ولم نكن نعرف مع من كنا، لأن أسماء الأخوة والأخوات كانت أسماء حربية، وكان المناضل لا يعرف سوى شخصين أو ثلاثة في الهرم النظامي. لذا أستغرب اليوم عندما أسمع بعض التصريحات التي يزعم أصحابها أنهم كانوا في وقت ما مع فلان أو فلتان»!

بدأت الشبهات تحوم حول الطالبة الفدائية، فدخلت السرية بالالتحاق بحي القصبة. وهناك وجدت نفسها على صلة مباشرة بالقيادة العليا للثورة (ممثلة في عبان وبن مهيدي) بواسطة السعدي ياسف. وتقول في هذا الصدد: «كنا نجتمع من حين لآخر بهؤلاء المسؤولين الكبار، دون أن نعرف من هم ولا درجة مسؤولياتهم إلا من خلال الاستنتاج».

ولتحقيق رغبة الطالبة في الكفاح بحد السلاح، تطوعت مع بعض زميلاتها للقيام بعمليات فدائية في المدينة الأوربية، وهو اختيار تفسره بعاملين اثنين:

– أن الزهرة وزميلاتها كن في الوسط الأوربي مثل السمك في الماء، عكس العامة من الجزائريين الذين كانوا يبدون غرباء في هذا الوسط حيث يتعرف عليهم من بعيد، للون بشرتهم أو هندامهم أو سلوكهم.

– أن الأحياء الأوربية كانت تعيش حياة عادية في أمن وسعادة، بينما كانت الأحياء العربية مستباحة، تزرع فيها قوات الأمن والجيش الهلع والموت في كل حين. و«كأن الحرب علينا وحدنا» حسب تعبير محدثتنا.

هذه الرغبة استجابت لها قيادة الثورة غداة مؤتمر الصومام. فقد دعا ياسف الزهرة وأخواتها (حسيبة، جميلة، سامية..) ذات يوم من سبتمبر 1956، لحضور جلسة عمل مع بعض الأخوة ترأسها بن مهيدي، دون أن يعرفن لا اسمه الحقيقي ولا درجة مسؤوليته، إذ كن يعتقدن أن القائد هو ياسف وكفى. وكان موضوع الاجتماع هو كيف يمكن الرد على العدو الذي أعلن حربا شاملة على الثوار والشعب، بعد أن أطلق العنان لقواته، فراحت تمارس القتل بدون تمييز ولا محاكمة، عملا بمبدأ العقوبات الجماعية، مستعملة في ذلك الوسائل المحرمة بدءا بالنابالم الفتاك..

كان التفكير يدور حول كيفية توجيه ضربة موجعة للعدو، ردا على تجاوزاته التي لا تعد ولا تحصى. وحصل الاتفاق في الختام على الرد المناسب: نقل الحرب إلى المدينة الأوربية بواسطة عمليات فدائية فردية أو جماعية.

وفي هذا السياق كانت التفجيرات الأولى التي استهدفت مساء 30 من نفس الشهر كلا من "الميلك بار" و "الكافيتيريا" ورواق مبنى موريتانيا والتي نفذتها على التوالي كل من الزهرة وسامية وجميلة.. وتقول الزهرة في هذا الصدد: «كان هاجسنا الوحيد يومئذ هو تنفيذ عمليات تلحق أكبر الأضرار بالفرنسيين وكنا واعين تماما بأهمية الرهانات السياسية والعسكرية لمثل هذه العمليات التي كانت تنفذ في جو من التضامن القوي والأخوة الصادقة، حتى أن كل فدائي أو فدائية كان يتطوع وفي

ذهنه حماية الآخر أو الأخرى، عله يكون أنفع منه للثورة خلال بقية المشوار الطويل».

وقد جن جنون العدو لهذه العمليات وما بعدها، وزادت حدة هذا الجنون أكثر قبيل إضراب الأيام الثمانية الشهير (28 يناير – 4 فبراير 1957) الذي اعتبره «عصيانا مدنيا»، فأطلق أيدي المظليين بالعاصمة، بعد أن خول الفرقة العاشرة بقيادة الجنرال ماسو كامل الصلاحيات.

أصبحت القصبة خاصة، تعيش على وقع الاعتقالات العشوائية التي لم ينج منها إلا القليل. وتصف الزهرة حالتها يومئذ بقولها: «أصبحنا نعيش مع الموت في كل لحظة». وبعد تشديد الخناق على المدينة القديمة، تقرر نقل بن مهيدي – الذي كان يعيش مع الفدائيين كأي واحد منهم– إلى المدينة الأوربية. وحسب شهادة الزهرة، أنها ورفاقها ظلوا يتابعون ما حدث له لحظة بلحظة إلى أن تم اغتياله..

وتصف حالة الفدائيين في ظل الحصار المحكم على القصبة، بأنها كانت حالة تحد بأتم معنى الكلمة، فقد كانت وسائلهم متواضعة جدا، عبارة عن مسدسات بسيطة، وكان علي لبوانت هو الوحيد الذي يحمل مسدسا رشاشا من نوع "مات 49"، لذا كان التحدي الأكبر بواسطة النظام المحكم الذي استطاع السعدي ياسف بناءه، هذا النظام الذي كان يتغير بسرعة عند سقوط أية حلقة من حلقاته في قبضة العدو.. وكانت التعليمات في هذه الحالة محددة بوضوح: إذا ما وقعت في الأسر قاوم ما استطعت. كل حسب طاقته وقدرته على التحمل والصمود في وجه الجلادين..ويعود الفضل في بناء هذا النظام حسب الشاهدة إلى السعدي ياسف الذي كان «منظما بارعا وداهية، استطاع أن يخلق بين مساعديه جوا نادرا من التضامن والتضحية».

لكن هذا النظام ما لبث أن وقع تحت معاول الخيانة، لاسيما خيانة حسن غندريش الذي اعتقل في 6 أوت 1957، دون علم مسؤوليه المباشرين وهما مراد (الشريف ذبيح) وكمال (حاجي عصماني) اللذان ظلا يتعاملان معه، وقد أصبح كالخاتم في أصبع العقيد جودار ورجاله! وقد أوقعت خيانة غندريش (الذي أصبح أخطر عناصر حركى «الزرق») كلا من مراد وحاجي، قبل أن توقع في 24 سبتمبر الموالي بقائد منطقة العاصمة نفسه السعدي ياسف الذي كان مرفوقا بالزهرة ضريف.

قصة هذه الفدائية مع السجون الاستعمارية، بدأت بسركاجي لتتواصل بعد المحاكمة بالحراش. وكانت المحاكمات كثيرا ما تتحول إلى منبر للدعاية الثورية بعد أن أقرت قيادة الجبهة تاكتيكا هجوميا، يقضي بتبني ما ينسب إلى المتهم من أفعال باعتبارها عملا حربيا، طالما أن الجزائر في حالة حرب. ومن ثمة ينبغي معاملة المحاكمين كأسرى، حسب قوانين الحروب والمعاهدات الدولية المتعلقة بها.

وتحدثنا هذه الفدائية، عن إحدى مناكر إدارة الاحتلال ضد المحكوم عليهم بالإعدام، فقد كانت تلجأ في تنفيذ الأحكام إلى «نظام 9 × 3».

ومعنى ذلك أنها كانت تعدم شهريا 27 أسيرا، على أساس تسعة أسرى من كل عمالة (الجزائر – قسنطينة – وهران)، مستعملة نفس المقصلة التي كان الجلادون يتجولون بها شرقا وغربا!

وغداة عودة الجنرال دوغول إلى الحكم عام 1958، حاول المتطرفون من الكولون اقتحام سجن الحراش لتصفية عدد من الأسرى. وتفاديا لتكرار مثل هذه المحاولة الفاشلة، تقرر نقل عدد من السجناء إلى فرنسا، وكانت الزهرة ضريف من بين هؤلاء، وقد حبست في مرحلة أولى بسجن

"لي بومات" (مرسيليا)، قبل أن تنقل إلى "فران" (ضواحي باريس) ليستقر بها الأمر في نهاية المطاف بـ "تولوز" و"روان".

وكان السجن يعني يومئذ مواصلة الكفاح بوسائل أخرى: تغذية الحملات الدعائية ضد التعذيب والحكم بالإعدام خاصة، المطالبة بالحقوق السياسية للأسرى، القيام بالتدريس حسب مبدأ كل من يعرف شيئا يلقنه للآخرين.. وحول النقطة الأخيرة تقول الفدائية الأسيرة: «كنا نحضر بهذا التكوين لمرحلة ما بعد الاستقلال، لأننا كنا مقتنعات تماما بأن الاستقلال آت لا ريب فيه». وفي هذا الإطار، قامت هي شخصيا بتحضير امتحانات السنة الثانية من كلية الحقوق وفازت فيها.. وذلك سنة 1961. وغداة وقف القتال في 19 مارس 1962. شرع في الإفراج عن أسرى حرب التحرير، وفي أبريل الموالي جاء دور الفدائية الزهرة ضريف التي توجهت إلى تونس بسبب الإرهاب الجنوني الذي كانت تشنه «منظمة الجيش السري» (أواس). وفي أواخر يونيو دخلت الجزائر، في إطار التحضير لاستفتاء تقرير المصير المقرر إجراؤه في فاتح يوليو الموالي. وصادف ذلك عودة الفدائية جميلة بوحيرد من المغرب لنفس الغرض، فأقامت معها بمنزل العائلة في القصبة. وتقول الزهرة في هذا الصدد: «كنا خاليات الذهن من الصراعات الدائرة في الكواليس من أجل الظفر بمقاليد السلطة، وقد عدنا بنية بناء الاستقلال الوطني في إطار الوحدة والإخاء». لذا كان اللقاء من جديد بشعب القصبة عظيما وبهيجا واستثنائيا، تغمره زغاريد الفرح والتهاني بالعودة المظفرة..

في هذا الجو الاستثنائي، كانت الفدائية الطليقة أبعد ما تكون عن توقع ما سيحدث لها بعد ساعات معدودة! وكانت المفاجأة في الساعة

الرابعة من فجر اليوم الموالي، عندما داهم مسلحون يرتدون زي المظليين منزل بوحيرد ليخطفوا الزهرة وجميلة خطفا! وتتساءل الزهرة: ماذا يحدث؟! هل واقع ما يحدث أم كابوس؟!

وتفسير ذلك أن عناصر «منطقة الجزائر» بقيادة الرائدين عز الدين وعمر أوصديق، كانت تعتقد أن عودة الفدائيتين الكبيرتين، تمت بالتنسيق مع خصوم الحكومة المؤقتة ولصالحهم! وهكذا تم حجزهما في مكان ما حتى التاسعة صباحا. في تلك الحال أطل عليهما الرائد عمر أوصديق فثارتا في وجهه ثورة عارمة: من تكون أنت أيها الراعي؟!».

وحسب الشاهدة أنها ورفيقتها جميلة «كانتا على استعداد للفتك بالرجل من شدة الغضب».

وقد عرفت فيما بعد أن الاختطاف أثار ثائرة السعدي ياسف وجماعته الذين سارعوا بالاتصال بجماعة «منطقة الجزائر» مهددين بإحراق العاصمة إذا هم لم يخلوا سبيل الفدائيتين قبل العاشرة صباحا. حدث ذلك فعلا لكن مرارة الاختطاف لم تزل تماما، بدليل أن الفدائية بعد 40 سنة ماتزال تستغرب اختطافها وجميلة في أول يوم من عودتها، إلى جزائر كانت تغمرها فرحة النصر والاستقلال الوشيك.

نفس المرارة تغمرها عندما تتذكر فوضى صائفة 1962 والأخطاء الناجمة عنها.. وترى في هذا الصدد: «إن عدم تطهير الصفوف في بداية الاستقلال كان بمثابة الخطأ القاتل، لقد سمحت تلك الفوضى ببقاء عدد من «المتعاونين» مع فرنسا ليشكلوا ما يسمى بـ «حزب فرنسا». وتضيف في نفس السياق: «أن الخونة كانوا كثيرين جدا. وقد لمست

ذلك أثناء تشديد الحصار على القصبة (عام 1957) عندما لم نجد مكانا نلجأ إليه»!

ورغم تلك المفاجأة المزعجة والمرارة التي خلفتها في حلق الفدائية الكبيرة، استأنفت نضالها بشكل طبيعي في صفوف اتحادية الجزائر لجبهة التحرير. ولما احتد الخلاف بين الموالين لبن بلة وهيئة الأركان العامة، بقيادة العقيد بومدين والولاية الرابعة التي كانت تحاول الاستيلاء على العاصمة تحت غطاء الحياد، وبات ينذر بمواجهات مسلحة بين الأشقاء، كانت في طليعة المناضلات اللائي نظمن بالعاصمة تلك المظاهرات التي رفع خلالها الشعار الشهير: «سبع سنين بركات»! وكانت أول مظاهرة في عهد الاستقلال الوليد.

2 – عندما كان الاستقلال ... يعني الحرية

بعد مفاجأة الاختطاف عشية الاستقلال، تحدثنا السيدة بيطاط عن اتفاق غريب أبرم في ربيع 1963 بين بن بلة وخيضر، يجسد القول المأثور: «لا يجتمع سيفان في غمد واحد»! كما تحدثنا عن تجربتها في الاستقلالية السياسية، واصطدامها بإشكالية زواجها من زعيم كان خصومه يعتقدون أن مواقف زوجته مجرد نسخة لمواقفه!

«أية دولة نريد؟» لم يكن هذا السؤال غريبا تماما عن أزمة صائفة 1962. وإذا كانت مظاهرات 7 سنين بركات قد ساهمت في إبعاد شبح الاحتكام إلى السلاح بين رفاق الأمس، فإنها لم تقض على الخلافات القائمة التي انتقلت إلى المؤسسات الوليدة، وفي مقدمتها المجلس الوطني التأسيسي المنتخب في سبتمبر من نفس السنة.

وتقول الفدائية الكبيرة الزهرة ضريف – التي أصبحت السيدة بيطاط مع فجر الاستقلال– في هذا الصدد: «إن الكفاح من أجل الاستقلال لم يكن بالنسبة لي – مثل غيري من المناضلين – غاية في حد ذاته، وأنه كان نقطة تحول لا بد منها في طريق بناء الدولة الجزائرية من جديد، بعد حرب ضروس كانت وبالا على الصعيدين البشري والمادي. فقد كان لهذا الكفاح في نظرنا محتوى اجتماعي سياسي. بمعنى أن استعادة السيادة الوطنية كان مقرونا في أذهاننا باستعادة الفرد أيضا لكامل حرياته مع تمكين الشعب من فرص الانفتاح والرقي، وكان الاختيار الجمهوري الديمقراطي تحصيل حاصل، ولم نكتشف الديمقراطية في السنوات الأخيرة فقط!».

ضمن هذه الآفاق الواعدة كان هدف السيدة بيطاط ورفيقاتها، هو وضع كفاءاتهن المتواضعة في خدمة البناء الوطني، علما أنهن وصلن إلى الاستقلال وهن في طور الشباب– ما بين 24 و 25 سنة– ولم تكن لديهن تجربة في البناء الميداني.

تجربة البناء هذه بدأت من المجلس التأسيسي، بعد أن انتخبت السيدة بيطاط نائبة وعضوا في اللجنة المالية. وعن هذه التجربة تقول: «كنا حوالي عشر مجاهدات من جبهة وجيش التحرير، نحاول تكريس مشاركة المرأة في بناء الجزائر الجديدة، مشاركة تترجم المساواة المبدئية التي أقرها المشروع الأول للدستور الذي نص بوضوح على المساواة بين الجزائريين بصرف النظر عن جنسهم أو معتقداتهم أو أعراقهم»...

وتقول بخصوص أعضاء لجنة المالية وعملها تحديدا: «لقد أتينا من وضعيات مختلفة نحمل تصورات متباينة، ما جعل اللجنة تعيش حالة غليان تقريبا، نتيجة احتكاك الأفكار المتولدة عن اختلاف الرؤى ومشاريع المجتمع كذلك».هذا الجو كان صورة مصغرة لما كان يجري داخل أجهزة الحكم المختلفة، من سباق محموم للاستيلاء على السلطة وآلياتها. فقادة الساعة كانوا في خلاف حول : أولوية الجهاز السياسي أو الجهاز التنفيذي من جهة، وأولوية الحزب أو الجيش من جهة ثانية. وكان أحمد بن بلة رئيس الجهاز التنفيذي يومئذ يجتهد لفرض نفسه على الجميع، ولو بضرب الحزب بالجيش والعكس بالعكس!

وبحكم وجود المناضل الكبير رابح بيطاط يومئذ إلى جانب محمد خيضر في الأمانة العامة للحزب، وجد نفسه وجها لوجه مع الرئيس بن

بلة! لكن قبل ذلك ترى كيف وجد بيطاط نفسه عشية الاستقلال في صف بن بلة؟!

تقول السيد بيطاط في هذا الصدد: «إن موقف زوجها في المرحلة الأخيرة من السجن كان مبنيا على:

– الثقة في الحكومة المؤقتة التي كانت تتابع عن كثب معركة التحرير على الأصعدة الساسية والدبلوماسية والعسكرية.

– تجنب اتخاذ موقف مع هذا الطرف أو ذاك من وراء القضبان. لذا كان في البداية يشاطر الرأي الداعي إلى عقد مؤتمر بعد الاستقلال واتخاذ الموقف المناسب على بينة من الأمر»، وتؤكد في نفس السياق: «أن بيطاط لم يكن يمارس النضال ضد الوجود الاستعماري كوسيلة من وسائل الوصول إلى الحكم..

لكن مع ذلك وجد نفسه غداة الاستقلال في صف الصراع من أجل الحكم والسلطة كما سبقت الإشارة» فقد كان مسؤول التنظيم ونائب الأمين العام لجبهة التحرير، وبهذه الصفة كان يحاول تطبيق برنامج طرابلس على مستوى الحزب، الأمر الذي وضعه في موقف حرج بين نارين: الجيش من جهة وبن بلة من جهة ثانية. ولم يكتف هذا الأخير باللعب على حبل الجيش تارة والحزب تارة أخرى بل راح يناور لضرب خيضر وبيطاط بعضهما ببعض! وحسب محدثتنا أن الرئيس بن بلة كان منشغلا يومئذ بهاجس التفرد بالزعامة، وبكيفية تحييد أنداده من الزعماء الخمسة الذين ينافسونه في (الكاريزمة) والشرعية التاريخية»...

وكان إعداد أول دستور للجمهورية الجزائرية، واحدا من المحاور الرئيسية التي تبلور حولها الصراع السياسي آنذاك. وكان الإشكال

المطروح هو: كيف يتم الإعداد، وهل يكون داخل المجلس التأسيسي أم خارجه! وكان لهذا الصراع انعكاس عام، كشف عن إرادة السلطة الوليدة في تكميم أفواه المناضلين المعارضين أو شبه المعارضين! وكان له أيضا انعكاس خاص على السيدة بيطاط التي اكتشفت فجأة أن زواجها من أحد أقطاب هذا الصراع جعلها تواجه وضعية متميزة ومحرجة أحيانا. وتفسر ذلك بقولها: «إنني لم أكن أشعر في البداية أن أعضاء بارزين في القيادة وحتى بعض نظرائي في المجلس، كانوا يعتبرون ما أبديه من مواقف مجرد نسخة طبق الأصل لمواقف زوجي!.. ولكن شيئا فشيئا أدركت أن هؤلاء جميعا، لا يرون في الزهرة ضريف المجاهدة ولكن السيدة بيطاط فقط»!

لاحظت المجاهدة ذلك بكل أسف، لأنها كانت تعتقد في قرارة نفسها أن وجودها في المجلس التأسيسي كان ثمرة كفاحها الخاص قبل كل شيء. ثم أنها كانت أبرمت مع زوجها – وهو رجل مبادئ – اتفاقا على أن يكون كل منهما مستقلا عن الآخر في مواقفه السياسية.

لذا تعلق على ذلك بقولها: «إن الذين كانوا يعتقدون غير ذلك، كانوا مخطئين تماما في كثير من الأحيان، وقد كاشفت الشريف بلقاسم (من جماعة بومدين) بذلك لاحقا، بأن هذا الاعتقاد الخاطئ أوقعهم في العديد من المآزق السياسية بدون مبرر.

وتحدثنا السيدة بيطاط عن حقيقة غير معروفة كثيرا، وهي أن الرئيس بن بلة أبرم اتفاقا مع محمد خيضر الأمين العام للحزب– قبل أن يغادر الجزائر في مارس 1963 – بحضور سفير مصر على خشبة، يقضي بأن يترك له شؤون الحزب – فضلا عن شؤون الدولة – طيلة ستة أشهر، بحجة تجاوز مشكلة وجود زعيمين قائدين على رأس سلطة واحدة!

ولما علم بيطاط بهذا الاتفاق عاتب خيضر على ذلك، على أساس أن هذا الاتفاق ليس سياسيا بالمرة! فالأمر في نظره لم يكن يخص عضوين اثنين بالمكتب السياسي وحسب، بل يخص هذه الهيئة بجميع أفرادها.. فالإشكال الذي كان قائما لا يتعلق بمسألة شخصية بين رئيس الحكومة والأمين العام للحزب، بل يهم الدولة كلها ومستقبل مختلف مؤسساتها.

والمكان الطبيعي للتداول فيه هو المكتب السياسي، أو اللجنة المركزية إذا اقتضى الأمر، وعن خلفيات هذا الإشكال تؤكد السيدة بيطاط ، أن خيضر كان متفقا مع زوجها تماما حول أهمية بناء الحزب من جديد. وقد شرعا في العمل من أجل ذلك فعلا.. لكن نظرة بن بلة كانت غير ذلك، وما لبث أن تبلورت في عبارة «أنا الحزب» أيضا!

وحسب محدثتنا دائما أن بن بلة كان يريد بسط يديه على أجهزة الحكم كلها، جيشا وحزبا وإدارة! وبناءً على هذه الرغبة الملحة كان كثير التذمر من توزيع السلطة الفعلية بين بومدين في الجيش وبيطاط في الحزب. وكان يعاتب خيضر على ترك شؤون الحزب لبيطاط بقوله: «بيطاط هو الأمين العام الفعلي! أما أنت فتمضي جل وقتك بمكتبك، تحتسي القهوة مع زوارك لا أكثر!».

مثل هذه الضغوط، ما لبثت أن دفعت خيضر دفعا للتخلي عن الأمانة العامة للحزب، وعن صديقه ونائبه بيطاط في نفس الوقت.

وهذا التخلي المزدوج لم يؤثر كثيرا في بيطاط الذي استمر في أداء مهامه التنظيمية بالحزب، بكيفية أو بأخرى لغاية مؤتمر 16 أفريل 1964 خرج الرئيس بن بلة منتصرا في الظاهر من هذا المؤتمر، وبدا له تبعا لذلك

أن يكرس هيمنته على أهم أجهزة الحكم، ولو باعتقال خصومه أو نفيهم إلى أعماق الصحراء.

كان بيطاط يستشعر الخطر، ولفرط معرفته ببن بلة، أدرك غداة مؤتمر الحزب أن دوره بات وشيكا! وفعلا داهمت قوات الأمن منزله في 24 يونيو 1964، لكن خبرته الطويلة في النضال السري مكنته من الإفلات من قبضتهم.

استطاع بيطاط أن يلتحق سريا بفرنسا لكن بعد فترة قصيرة بدأت مصالح الأمن الفرنسية ترسل إشارات مفادها أن ضيافة فرنسا لا يمكن أن تكون بدون مقابل (حسب تعبير زوجته)!

هذا العامل جاء ليعزز قناعة الرجل «بأن المعارضة من خارج البلاد مضيعة للوقت»، لذا فضل العودة إلى الجزائر كمسافر عادي غير آبه بما يمكن أن يفعل به بن بلة ومصالحه الأمنية التي ما لبثت أن فرضت عليه ما يشبه الإقامة الجبرية بوضعه تحت مراقبة دائمة.

هذه الوضعية جعلت السيدة بيطاط تستخلص مبكرا، بأن زمن السياسة كما كانت تتمناه لم يحن بعد، لذا فضلت استكمال دراستها والخروج إلى الحياة العامة من جديد، عبر بوابة المحاماة التي من مزاياها «أنها تضعك في صميم الواقع اليومي لبلادك» حسب قولها.

ولتكون على صلة دائمة بهذا الواقع وهموم عامة المواطنين، اختارت الدفاع في مسائل الأحوال الشخصية، وكان بإمكانها أن تشغل نفسها بقضايا الشركات وهي أدر للربح وأنسب للراحة!

وقد عملت كثيرا – تأكيدا لهذا الاختيار – خارج العاصمة في محاكم جنوب البلاد، والشلف، ووهران، وتلمسان. وتقول عن تجربتها

الميدانية هذه: «أن هذه المعايشة، مكنتني من أن أساير عن كثب التطور الجاري في البلاد بإيجابياته وسلبياته».

وهل انعكس هذا التطور بشكل ما على مكانة المرأة في مجتمعنا؟

حسب السيدة بيطاط أن وضعية المرأة عرفت تطورا كبيرا، وتفسر ذلك بعاملين اثنين:

1 – هناك تعطش إلى الرقي من العائلة نفسها، فكل امرأة تريد أن تكون ابنتها أحسن حالا على صعيد التعليم خاصة.

2 – تطلع قوي من المرأة ذاتها إلى فرض وجودها في الحياة الوطنية على مختلف الأصعدة: سياسة، اقتصاد، ثقافة...الخ.

لكن الجيل الجديد يرى أن المرأة المجاهدة، فضلت الانسحاب من الميدان السياسي بعد الاستقلال.. هذا الرأي الشائع ترفضه السيدة بيطاط بقوة: «كلا! نحن المجاهدات لم ننسحب قط! رغم أن الظروف السياسية غداة الاستقلال اضطرتنا إلى أن نبدأ حياة جديدة تكيفا مع الأوضاع المستجدة».

وتقدر محدثتنا أن تحرر المرأة الجزائرية يكتسي طابعا فعليا، وأنها لذلك أحسن حالا من ناحية الانعتاق الفكري من جاراتنا مثلا.. وتقيس مدى هذا التطور في ميدان العدالة والمحاماة فتقول: «هذا الميدان الشائك اقتحمته المرأة منذ فجر الاستقلال، وكان هاجسها يومئذ: «هل يثق الرجل في دفاع امرأة؟!» وجاءت الممارسة لتثبت ذلك فورا: «لقد منحنا بعض المهددين بحكم الإعدام كامل الثقة في الدفاع عنهم».

ومن المحاماة اقتحمت المرأة ميدان العدالة أيضا: قضاء، نيابة عامة، فضلا عن اقتحام ميادين أخرى أقل حساسية من العدالة.

وكان من الطبيعي أن نسأل السيدة بيطاط عن موقفها من قانون الأسرة الراهن، علما أنها كانت من الناشطات في معارضة الصيغة التي صادق عليها المجلس الشعبي الوطني سنة 1984، تقول السيدة بيطاط في مرافعتها بعد 18 سنة: «كنا نعيش يوميا المشاكل المتعلقة بالأحوال الشخصية، وكنا نرصد التطور الحاصل في هذا المجال.

في الأوضاع السابقة كان هناك نوع من الكفالة الجماعية للمرأة (المطلقة) ضمن الأطر التقليدية كالعائلة بمفهومها الواسع أو العشيرة وما إلى ذلك..

أما الآن فإن أرحم الآباء يمكن أن يواجه ابنته العائدة بقوله: «أنت على الرحب والسعة! أما الأبناء فاتركيهم له!».

قبل 1984 كان للقضاة حرية التقدير، حسبما يمليه وضع المتخاصمين، وكان المشرع قد أخذ بالاعتبار التطور الحاصل فأقر في القانون المدني مادة تقول بصراحة : «فيما يخص الاستفادة من السكن الزوجي، فإن الأمر متروك لتقدير القاضي حسب وضعية المرأة».

ويبدوا أن المشرع في قانون 1984 لم يراع حقائق التطور الاجتماعي بل انطلق من حاله كرجل لا غير! فهل من المعقول أن تحرم امرأة تجر معها 4 أو 5 أطفال من السكن الزوجي وترمى في الشارع؟! إن مثل هذا الحكم مخالف ليس لتعاليم الإسلام الجوهرية فحسب، بل مخالف للأخلاق بصفة عامة.

وبناء على ذلك تقول السيدة بيطاط: «إن قانون 1984 كان يحمل في طياته أول تظاهرة للتطرف الإسلامي»!

وعلى هذا الأساس شاركت في الحملة على مشروع هذا القانون، بمعية عدد من المحاميات والمحامين، قدموا مشروعا بديلا لكل من المجلس والحزب، لكن بدون نتيجة، مما أدى إلى الاعتصام أمام مقر الهيئة التشريعية، وإلى مواصلة الرفض بوسائل أخرى.

شاركت السيدة بيطاط غداة انتخاب الرئيس بوتفليقة في لجنة إصلاح العدالة، وتصف النتائج التي انتهت إليها هذه اللجنة بقولها: «إن الإصلاحات المقترحة أساسية وضرورية.. لأنها تستهدف إعادة ثقة الشعب في مؤسساته بدءا بالعدالة.. وينبغي أن نذكر بإلحاح في هذا الصدد، أن عشرية مكافحة الإرهاب كادت تفكك هذا الجهاز الحيوي، بعد أن ضخمت أمراضه السابقة».

وحسب محدثتنا أن إنجاز الإصلاحات المقترحة غير ممكن على المدى القصير، وأن الوضع السائد حاليا يستوجب البدء من «تكوين المكونين»...

وتعتبر الاستقرار شرطا أساسيا لتحقيق تطبيق هذا الإصلاح، لأنه من الصعب القيام بعمل دائم على هذا الصعيد مادامت النار مشتعلة هنا وهناك».

وما رأي السيدة بيطاط في مسعى الرئيس بوتفليقة بصفة عامة؟ لقد أيدت السيدة بيطاط برنامجه منذ البداية، لأنه يتضمن العمل من أجل وقف انحطاط الدولة ومؤسساتها الذي بدأ منذ منتصف الثمانينيات الماضية حسب رأيها.

ومن مظاهر هذا الانحطاط كما ترى : «إحالة كبار الموظفين على المعاش وهم في سن الأربعين! أي بعد كسب تجربة في مختلف مجالات التسيير، البلاد أحوج ما تكون إليها.

وتحطيم الاقتصاد وكل ما تم إنجازه منذ الاستقلال بجهد جهيد».

مثل هذه القرارات لم تكن مفهومة في نظر محدثتنا، «لأن الحكم عوض أن يقوم بتشخيص أخطاء ونقائص التجربة السابقة قام بتدميرها نهائيا».

وبسبب ذلك وجدنا أنفسنا في وضعية إعادة بناء الدولة مثلما كان الأمر سنة 1962، مع فارق هام وهو أن ظروف البلاد اليوم أصعب، بعد اهتزاز الإيمان الراسخ وتهافت الإرادة القوية، وتعشيش الذهنيات السلبية في واقعنا، من خلال تفشي ظاهرة النقد الهدام وتشويه كل شيء تقوم به الدولة.

هذه الحالة البائسة لاحظها الرئيس بوتفليقة، وهو يحاول الآن إنقاذ ما يمكن إنقاذه، حرصا على مصلحة الوطن ومستقبل أبنائنا كما تقول السيد بيطاط.

• بوعلام أوصديق

– ولد بوعلام أوصديق بتيزي وزو في 29 سبتمبر 1929، وبها زاول دراسته الابتدائية، قبل الانتقال إلى العاصمة لمواصلة دراسته الثانوية والجامعية.

– التحق بالجبهة في أواخر 1955 عبر بوابة العاصمة، وكان يومئذ في السنة النهائية من ليسانس الآداب الفرنسية. وكانت مهمته الأولى المشاركة في تكوين شبكة لصناعة القنابل التقليدية.

– تم اكتشاف هذه الشبكة واعتقال أحد منشطيها وهو الدكتور دانيال تيمسيت. وقد دفعه ذلك إلى الالتحاق بالجبل في مايو 1956.

– لعب دورا أساسيا في تنظيم مصلحة الإعلام والتوجيه بالولاية الرابعة التي كانت في ميدان الحرب النفسية تكيل للعدو الصاع صاعين.

– التحق بتونس سنة 1960، وعمل بعد ذلك في بعثة الحكومة المؤقتة بالبلدان الاسكندنافية، قبل تعيينه سفيرا بمالي.

– ساهم عشية الاستقلال في معركة تطهير العاصمة من بقايا منظمة «أواس» الإرهابية، وبعد الاستقلال تقلد مناصب سامية، قبل التفرغ لشؤونه الخاصة.

صور من الحرب.. على الجبهة النفسية

عندما اندلعت ثورة فاتح نوفمبر 1954 كان بوعلام أوصديق(*) في وضعية يحسد عليه! فقد كان طالبا في السنة الأخيرة من ليسانس الآداب الفرنسية، وكان يعمل في نفس الوقت مراقبا عاما بثانوية تقنية في حسين داي.

رغم الوضعية المريحة، فقد تكونت لدى الطالب «حساسية يسارية» لما كان يلاحظ يومئذ من مظاهر البؤس والاستغلال في قرى ومشاتي جرجرة، وبين عمال الأرض بالمتيجة.

ويقول في هذا الصدد: «كنا متعاطفين تلقائيا مع الحركة الوطنية، لأن أوضاع شعبنا كانت سيئة جدا.. علما أن «الجزائر الفرنسية» كانت تعني باختصار «جزائر بدون جزائريين»!

وجاء فاتح نوفمبر ليهز الضمائر النائمة، ويؤذن ببداية الإنقاذ مما كنا فيه من حرمان وغبن حسب قوله.

لكن مع شرارة الإنقاذ بدأت المحنة أيضا، لأن المعركة كانت قاسية طويلة. وينقل سي بوعلام في هذا الصدد عن العقيد محمد زعموم (سي صالح) قوله: «لقد أطلقنا الرصاصات الأولى، وكنا نتوقع أن تحدث زلزالا مدويا! وكانت المفاجأة أن فاتح نوفمبر مر كغيره من الأيام! وعندئذ أدركنا أن الحرب ستكون طويلة وشرسة». في غضون 1955، التحق طالب الآداب الفرنسية بجبهة التحرير في العاصمة التي كانت آنذاك تحت إشراف المنطقة الرابعة. وبعد أن تدرج قليلا في السلم

(*) الفجر: عدد 1 يوليو 2002.

النضالي، كلفه سي مراد مسؤوله المباشر بمهمة خاصة: المشاركة في تكوين شبكة لصناعة المفرقعات. وقد وظف في ذلك سابق علاقاته باليسار الأوربي خاصة، فاتصل باثنين من الطلبة اليهود وهما دانيال تيمسيت وكان في السنة الخامسة بكلية الطب وعربيب الطالب في الكيمياء. كان تيمسيت مناضلا بالحزب الشيوعي الجزائري، لكن الطالب المجاهد فضل الاتصال به بصفة شخصية، بعد أن لاحظ الموقف المناوئ للثورة الذي اتخذه حزبه آنذاك.

وفعلا، لم يتردد في أداء المهام المطلوبة منه. في البداية كان تيمسيت ومساعدوه يجرون تجاربهم بمخبر في بئر خادم.. ولسوء الحظ أنه صنع قنبلة تجريبية وأخفاها في خزانته بمستشفى مصطفى وحدث أن انفجرت صدفة مما لفت أنظار الأمن إليه.

وتجنبا للبحث فضل دخول السرية. وذات يوم لمس بمخبر بئر خادم مادة "النيتروغليسرين" فطلب منه بوعلام ورفاقه قلع البقع الملوثة من بشرة يديه وأصابعه.. وقد اضطر بسبب ذلك إلى وضع ضمادات، ساعدت على اعتقاله في نهاية المطاف.

كان تيمسيت من العناصر الأوربية الأولى التي تعرضت إلى التعذيب. وقد مثل أمام المحكمة بصفته عضوا في شبكة لصنع المفرقعات، فأغلظت في عقابه، أسوة بسي بوعلام الذي كان جزاؤه غيابيا الأشغال الشاقة المؤبدة.. بعد اعتقال الدكتور تيمسيت تقرر صعود سي مراد إلى الجبل.. ولم يمض وقت طويل حتى جاء دور سي بوعلام، بعد تبادل إطلاق النار مع عناصر من الأمن الفرنسي بالقصبة، وكان آنذاك مرفوقا بالمجاهد الشريف جوادي.

التحق محدثنا بالمنطقة الرابعة عن طريق الأخضرية التي كان على رأس ناحيتها يومئذ المجاهد عمار موهوب. وكان صعوده إلى الجبل في ماي 1956 بصفته عضوا بناحية العاصمة مفاجئا إلى حد ما.. وقد وجد في البداية بعض الصعوبة في التأقلم مع حياته الجديدة، لاسيما أن كل شيء كان يبدو غريبا في نظره! حتى أن كلمة «النظام» (2) كان يظن أنها تعني المسؤول!

فقد اكتشف عالما آخر: اكتشف حقيقة الجزائر العميقة ومدرستها المتميزة.

وجد الصاعد الجديد مجاهدا يدعى شوكال وهو شيوعي كان يعمل بصحيفة «الجزائر الجمهورية».. فأخذا يفكران معا في إصدار نشرة إعلامية.

واقترحا ذلك على مسؤول الناحية فاستحسن الفكرة، وهكذا ظهرت هذه النشرة في البداية تحت عنوان «قيريا» (حرب العصابات). ومن باكورة المواد التي نشرت بها:

– تحقيق مع امرأة اختطفت بناحية الزبربر، واغتصبت في أحد معسكرات العدو هناك، مع نشر اسم النقيب قائد المعسكر الذي سمح بتلك الفعلة الشنيعة..

– رسالة إلى مثقف فرنسي موجهة إلى النخبة المثقفة تحثها على النظر في المشكلة الجزائرية بعقلها لا بعاطفتها.

– قصيد يتغنى بحرب العصابات.

وما لبث سي بوعلام أن لمس دور المرأة الريفية مباشرة: فقد أصيب بجروح في إحدى الاشتباكات وبقي مغمى عليه في العراء، وعثرت عليه

في تلك الحال نسوة صدفة في الغد بمكان الاشتباك، فبادرن بنقله إلى ثوار الناحية.

وأثناء فترة العلاج قام بعيادته قائد الولاية العقيد الصادق (سليمان دهليس) مرفوقا بمساعديه في مجلس الولاية، وهم بوقرة وسي صالح (زعموم) وسي الطيب (ابن عمه المرحوم عمر أوصديق).

واغتنم الأربعة المناسبة ليشجعوا المجاهد الجريح، على إنشاء مصلحة إعلام على مستوى الولاية.. لذا ما إن تماثل للشفاء، حتى انتقل إلى مقر القيادة بناحية المديةلتحقيق هذه الرغبة.

وقد تكونت حول سي بوعلام هيئة تحرير بأتم معنى الكلمة تضم إلى جانب شوكال:

– الشاعر الشعبي أرسلان صاحب أنشودة «الله ينصر حزب الثوار» وهو مناضل سابق بحزب الشعب خريج جامع الزيتونة. وكان يهيم باللغة العربية، حسب تعبير سي بوعلام.

– أحمد زميرلين وهو مدرس عربية سابقا.

– الأمين فخار من المدية.

– "الأفندي" وهو خريج حقوق من مصر، من منطقة المحمدية (وهران) وقد نسي محدثنا اسمه.

– الدكتور بالعربي وهو خريج اقتصاد التحق بالخلية بعد أن صعد إلى الجبل رفقة عبان ودحلب، عندما كانا في طريقهما إلى المغرب (ربيع 1957).

– محمد العيشاوي محرر وراقن بيان فاتح نوفمبر، وقد التحق بجيش التحرير فور الإفراج عنه في منتصف 1956 وقد أعد هذا الصحافي السابق تحقيقا مؤثرا حول تدمير قرية الجراح بأعالي البليدة.

وحسب محدثنا أن نشرات مصلحة الإعلام أصبحت رباطا متينا بين ثوار الولاية ومختلف نواحيها، بعد أن فجرت قرائح الكتابة لدى المسؤولين والجنود على حد سواء.

ويذكر في هذا الصدد مقالا بعنوان «القبر المجهول»، يصف فيه حلاقان شقيقان صعدا إلى الجبل بضواحي شرشال، مدى تأثرهما عندما وقف بهما الدليل أمام قبر عند جذع شجرة، يضم رفاة تلميذ مجهول الهوية التحق بالثوار من ثانوية بالناحية ليسقط شهيدا في ذلك المكان.

ويذكر بصفة خاصة حرص سي لخضر (مقراني) قائد وحدة الكومندو، على نشر أنباء العمليات التي ينفذها على رأس رجاله، وكان أحرص ما يكون على نشر وقائع كمين ناجح بوادي سفلات، لأنه كان - حسب قوله - ثأرا للباش آغا المقراني الذي قتل عام 1871 بالقرب من المكان المذكور!

وكانت مصلحة الإعلام تخوض أيضا حربا نفسية في مواجهة نشاط المكتب الخامس بالجيش الفرنسي.. ومن العمليات التي يتذكرها سي بوعلام:

• قانون لاكوست : اقترح لاكوست بعد تعيينه وزيرا مقيما في مطلع 1956، جملة من الإصلاحات ضمنها في مشروع قانون إطار أخذ يروج له في حملة دعائية واسعة. وردا على هذه الحملة أعدت مصلحة الإعلام مقالا مرفقا بكاركاتير تحت عنوان «القانون - القفص» (لا لوا - كاج)، نشر بمناسبة معرض الجزائر الدولي كواحد من أهم اختراعات الساعة!

ويقدم الرسم لاكوست في صورة دجاجة تحضن بيضة كتب عليها «القانون - القفص». وقد ذيل الكاريكاتير ببيتين من الشعر بالفرنسية:

Un quart d'heure encore..
et vous verrez alors..
quelque chose de neuf..
sortir de mon oeuf

وفي ما يلي الترجمة النثرية لهذين البيتين:

أمهلوني، ربع ساعة أخرى... وسترون عندئذ شيئا جديدا.. تفقص عنه بيضتي!

• غداة اقتراح دوغول سلم الشجعان، في أكتوبر 1958، قام جيش الاحتلال بحملة دعائية صاخبة، مصحوبة بمعلقات وصور تلقي بها الطائرات في الجبال والبوادي، تمثل جنديا فرنسيا يسجل هدفا بكرة الجزائر الفرنسية في مرمى حارس يحمل شعار جبهة التحرير!

وكان رد مصلحة الإعلام على ذلك كما يلي: رسم مجاهد يسجل هدفا في مرمى يحرسه جنديان فرنسيان مع التعليق التالي: الجبهة تسجل الهدف سواء أكان بالمرمى حارس واحد أو اثنان!

وتتضمن العبارة الفرنسية تلاعبا بالألفاظ بين دوغول الرئيس و «دوغول» بمعنى حارسين للمرمى!

• عندما جاء الجنرال "ماسو" قائد الفرقة العاشرة للمظليين إلى المدية في إطار الدعاية إلى «سلم الشجعان» جاء سي بوعلام ورفاقه بحمار وكتبوا على جنبيه العبارة التالية: «أبحث عن شقيقي "ماسو" لأبرم معه «سلم الشجعان»!

وتم إطلاق الحمار في سوق المدينة، مع إشاعة خبره الذي وصل إلى آذان العدو بسرعة البرق... وتهافت الناس على السوق للتفرج على هذا الحمار الظاهرة، وبينما هم كذلك إذ بفوج من المظليين يداهم المكان فيطلق النار على الحمار! وقد كتب مسؤول الناحية إلى قيادة الولاية في تقرير ساخر وصف فيه كيف مات الحمار ميتة الأبطال»!

كانت مصلحة الإعلام تستعمل في البداية آلة "الرونيو"، لكن مع الشروع في عمليات التمشيط الكبرى واشتداد الخناق عليها، عادت إلى طريقة غوتمبرغ اعتمادا على الأحرف وبراويز من الخشب..

وكانت المصلحة تصدر نشرات أنباء كذلك، فضلا عن طباعة كراريس بالأناشيد الحماسية التي كانت زادا معنويا لا غنى عنه للمجاهدين.

سألت سي بوعلام عن «عملية الزرق» بالولاية الرابعة وكيف واجه العقيد بوقرة الموقف. وكان الجواب متحفظا إلى حد ما، إذ اكتفى بذكر بعض الملاحظات مثل:

– أن سي بوعلام كان من المسؤولين الذين نبهوا قائد الولاية بضرورة التروي وتجنب التهم الجاهزة والأحكام الجزافية..

– أن العدو حاول ضرب تماسك مجاهدي الولاية، باللعب على الفوارق بين الريف والمدينة والغرب والشرق، دون أن يهمل التمايز بين غني وفقير!

– أن للولاية الرابعة وضعية خاصة بحكم وجود عاصمة البلاد في مجال اختصاصها، فضلا عن كبار المستوطنين الملاك بالمتيجة والساحل.

وبقدر ما كان إمداد الولاية بالأسلحة صعبا وخطيرا، بقدر ما كان إمداد العدو سهلا ويسيرا..

فطيران العدو مثلا، لا يقضي أحيانا أكثر من 5 دقائق للتدخل في المعركة بعد تلقي إشارات النجدة.

ويصف محدثنا الحرب من ناحية جيش الاحتلال بأنها كانت حربا شاملة، استعمل فيها مختلف الأساليب وجميع وسائل الفتك والدمار..

ورغم كل هذه العوامل وتأثيراتها السلبية، فقد كان تأثير «عملية الزرق» محدودا بالولاية الرابعة، بفضل حنكة قائدها العقيد بوقرة ويقظة مساعديه.

ويقول سي بوعلام عن قائد الولاية الذي كثيرا ما كان يصطحبه معه في جولاته التفقدية عبر الولاية: «أن سي امحمد (بوقرة) لم يعرف من الحياة غير النضال الوطني وضوابطه وآفاقه».. وينقل عنه قوله في هذا الصدد: «لقد نشأت في الحركة الكشفية لأجد نفسي في حزب الشعب الجزائري، ثم في «المنظمة الخاصة»، فجبهة التحرير الوطني.. وعشت بسبب ذلك حياة السرية الشاقةوما يتخللها من تستر ونوم بالمقاهي والمحلات التجارية.. لقد ارتسم قدري منذ البداية ضمن آفاق فاتح نوفمبر، ولست أدري إن كان سيؤدي إلى مصير آخر»..

كان العقيد بوقرة مع كل ذلك مؤمنا بالاستقلال ودور الكفاءات في بناء الجزائر الحرة. لذا كان من حين لآخر يقترح على سي بوعلام كما اقترح على غيره الخروج إلى تونس أو المغرب لمواصلة تكوينه ليكون من إطارات المستقبل.. لكن سي بوعلام كان يرفض ذلك في حينه..

وذات يوم من أيام ماي 1959، بينما كان عائدا من جولة تفقدية بغرب الولاية– قادته حتى المناطق المجاورة من الولاية الخامسة– بلغه نبأ استشهاد قائد الولاية، فتأثر لذلك كثيرا.. فقد كان الشهيد بوقرة نعم

الوفيق في الشدة والسند في لحظات اليأس.. فأحس بفقدانه أن الجدار المعنوي الذي كان يستند إليه قد انهار فجأة..

ولم تمض غير فترة قصيرة حتى انتابته موجة من الكآبة والإرهاق، جعلته يخشى أن يقع في قبضة العدو حيا.. وقد صارح بذلك ذات يوم كلا من سي صالح قائد الولاية بالنيابة والرائد بونعامة مساعده العسكري فأذنا له بالخروج.

اختار سي بوعلام الخروج إلى تونس، فعرج أولا على الولاية الثالثة، حيث صادف في صائفة 1959 "عملية جوميل" إحدى عمليات مخطط شال الرهيب.

وقد أصيب بجروح مرة أخرى بضواحي بجاية، ثم انتقل إلى الولاية الثانية قبل أن يتوجه جنوبا نحو الولاية الأولى.. ليقتحم خط موريس الجهنمي عن طريق أرقو بمنطقة النمامشة. ويصف الخط عند نقطة العبور بأنه عبارة عن ثلاثة حواجز من الأسلاك الشائكة، يتوسطها حاجز مكهرب ويتميز الثالث بكونه أعلاها.

وقد نصحه الدليل عند الحاجز الأخير، برمي قشابته على السلك والعبور عليها.. ثم السير بعد ذلك على امتداد السلك الحاجز، تجنبا للقصف المدفعي المصوب على نقطة قطع الأسلاك باتجاه الشرق، وكان الدليل يعرف المسالك الخالية من الألغام.

وصل محدثنا إلى تونس بعد رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر استغرقت 10 أشهر كاملة فمكث بعاصمتها بعض الوقت للعلاج والاستجمام، قبل أن يلتحق بالقاهرة في ربيع 1960.

كان على رأس وزارة الخارجية في الحكومة المؤقتة (الثانية) بلقاسم كريم الذي عينه في البداية ببعثة الحكومة بالبلدان الاسكندنافية برئاسة محمد الشريف الساحلي. وبعد فترة عين سفيرا بمالي التي حظي فيها برعاية خاصة شخصية من رئيسها آنذاك موديبو كيتا..

والواقع أن الحديث مع المجاهد بوعلام أوصديق ذو شجون لكن المقام للأسف لا يتسع له .. ولعل أحسن ما نختم به حديثه عن أهمية الثورة الجزائرية وإشعاعها عبر العالم من خلال الصورتين التاليتين:

– غداة الاستقلال زاره دبلوماسي فيتنامي كان سفيرا لبلاده بمالي، عندما كان محدثنا يمثل الحكومة المؤقتة بها.. وفي معرض الحديث قال الضيف مستغربا: «إنني لم أفهم إلى حد الآن كيف استطاعت الثورة الجزائرية أن تهزم الاستعمار الفرنسي؟!».

وراح يعدد العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة الفيتنامية والتي كانت الثورة الجزائرية تفتقر إليها من ذلك:

– أن للثورة الفيتنامية قواعد خلفية وعمقا استراتيجيا تتمثل في الصين الشعبية والمعسكر الاشتراكي.

– أن الإمداد العسكري الفرنسي لا يصل إلا بعد شهر أو شهرين عن طريق الباخرة.

– أن الثوار كانوا يستعملون أسلحة حربية حديثة.

وكانت الثورة الجزائرية حسب قوله – تفتقر إلى هذه العوامل الحاسمة جميعا، فضلا عن أن فرنسا عبأت لها حتى جنود الخدمة العسكرية.

وكان لها بالجزائر قاعدة اجتماعية هامة تتمثل في مليون أوربي مستوطن وعدد هام من المتعاونين الجزائريين. وكان جواب المضيف :

«إن معجزة الثورة صنعها تلاحم الشعب ودعمه، فضلا عن تقاليده الراسخة والعريقة في المقاومة، دون أن ننسى طبعا التعاطف والمساندة الخارجية.

– وفي لقاء مع الرئيس معمر القذافي سأله محدثنا كيف أتيتم إلى السياسة؟

فكان جواب الرئيس الليبي:

«لقد نهلت من رافدين اثنين، ثورة عبد الناصر والثورة الشعبية المسلحة بالجزائر». وأضاف موضحا: «اعتقلت أول مرة في مظاهرة احتجاج على حكم الإعدام الصادر في حق جميلة بوحيرد 1957، وهناك تعرفت على عبد السلام جلود فبدأنا المسيرة معا».

• علي لونيسي

– ولد علي لونيسي بالأربعاء (البليدة) في 12 يوليو 1931، ونشأ ببوفاريك حيث زاول تعليمه الابتدائي والإكمالي في المدرسة الفرنسية.

– نشأ إلى جانب الدراسة نشأة كشفية مكنته من التعرف على قادة أفذاذ أمثال ونوغي ومحمد بوقرة.. هذه النشأة جعلته يسارع بالتطوع في عمليات الإنقاذ التي تلت زلزال الأصنام في سبتمبر 1954. وكان يومئذ طالبا في كلية الحقوق بجامعة الجزائر.

– التحق بالثورة ناحية تابلاط في صائفة 1955، وقد أهلته قوته البدنية للقتال في وحدات الكومندو.

– شارك في صائفة 1956 في تهريب الرائد إيدير من ثكنة بيزو في البليدة، وقد تدرج في سلم المسؤوليات إلى أن أصبح قائدا للمنطقة الثالثة (الونشريس) – من الولاية الرابعة.

– خرج إلى المغرب في يناير 1959 على أساس المشاركة في هيئة أركان الغرب بقيادة العقيد بومدين، لكنه بدل ذلك وجد نفسه طالبا بكلية الاقتصاد في برلين الشرقية!

–،عين قبيل الاستقلال سفيرا للحكومة المؤقتة بغينيا (كوناكري)، وغداة وقف القتال عاد إلى العاصمة ليساهم في طرد فلول المنظمة الإرهابية "أواس".

– انتخب نائبا في أول مجلس وطني بعد الاستقلال (1963)، وبعد حل المجلس عقب انقلاب 19 يونيو 1965، عين رئيسا مديرا عاما لشركة الصناعات الكيماوية. وقد مكث بهذا المنصب 10 سنوات، تفرغ إثرها لشؤونه الخاصة.

1 – الرائد سليمان .. رهينة بوجدة!

خرج الضابط لونيسي في يناير 1959، بمهمة تمثيل الولاية الرابعة في أركان الحدود الغربية. فوضع فيما يشبه الإقامة الجبرية رفقة كل من الضابطين أحمد بن شريف وعبد الرحمان مقاتلي!... ويفسر ذلك بأن بومدين وجماعته كانوا يتوجسون خيفة من «مؤامرة قد تدبرها الولاية الرابعة للسيطرة على مقاليد الأمور بوجدة» (*).

نشأ الصبي علي لونيسي ببوفاريك، في عائلة نزحت إليها حديثا من ضواحي تابلاط موطن عائلته الكبرى. وكانت المدينة في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، مستوطن كبار الكولون في سهل متيجة وعلى رأسهم عمدتها الأبدي "أميدي فروجي"، رئيس اتحادية رؤساء البلديات على مستوى الجزائر كلها.

هذا الجو الاستعماري الخانق لم يمنع الفكرة الوطنية من التسرب إلى الصبي علي، عن طريق «الكشافة الإسلامية» حيث تعرف على رواد كان لهم تأثير حاسم في مساره السياسي من أمثال ونوغي ومحمد بوقرة...

ومن سخرية الأقدار أن هذه الفكرة وجدت في المدرسة الفرنسية المناخ الملائم لتفتقها وصقلها.. لقد وجد التلميذ علي نفسه في قسم بإكمالية بوفاريك، لا يضم من «العرب» الجزائريين سوى ثلاثة من مجموع 23 تلميذا.. وكان مدرس الرياضيات خاصة مشحونا بالعصبية النصرانية، وكان يعبر عنها بين الفينة والأخرى بطريقة استفزازية:

(*) الفجر: عدد 1 يوليو 2002.

– طلب المدرس ذات يوم التعريف الدقيق لشكل هندسي معين فأحسن التلميذ الجواب. وكانت العلامة 19/20، لكن مشفوعة بالتعليق التالي: ترى من أوحى لك بالجواب الصحيح؟ فهل هو محمد؟! وكان رد التلميذ العنيد: لا، بل هو السيد المسيح؟!

هذا الرد الجريء طرد علي بسببه، وطلب منه المدرس ألا يعود إلا مرفوقا بوالده، ولما حضر الوالد وكان شيخا مسنا وقورا، طلب إليه أن يعتذر له. عز عليه ذلك كثيرا في بداية الأمر.. ومع ذلك غالب نفسه ورضخ لهذا الطلب المجحف، لأن ابنه كان في السنة الأخيرة من التعليم المتوسط.. هذه الحادثة حزت في نفس التلميذ، إلى درجة أنه يقول بعد كذا من سنة: قد تكون من أسباب التحاقه بالجبل عام 1955!

– كان نفس المدرس يختار لتلاميذه «العرب» أصعب المعادلات في الجبر، وعندما يتعثرون في حلها أحيانا، كان يعلق على ذلك بسخرية حاقدة قائلا: «ومع ذلك يقال أنكم أنتم الذين وضعتم مبادئ الجبر»!

مثل هذه الأجواء السائدة في المؤسسات التربوية الاستعمارية، لم تمنع علي من الوصول إلى الجامعة في مطلع الخمسينيات حيث التحق بكلية الحقوق. ويقول عن الطلبة الجزائريين يومئذ: «إنهم كانوا أقلية مهمشة لا وزن لها في محيط الأغلبية الفرنسية، لذا كانت العائلات 'الميسورة تفضل غالبا إرسال أبنائها إلى فرنسا، حيث الحرم الجامعي ألطف وأنسب»..

وقبيل إعلان الثورة في فاتح نوفمبر 1954، عاشت الجزائر محنة زلزال الأصنام في سبتمبر، فكان علي من بين الطلبة الذين تطوعوا في عمليات الإنقاذ والإسعاف. وهناك اصطدم بحقيقة مرة أخرى من حقائق الاستعمار: لقد لاحظ أن الأغلبية الساحقة من الضحايا كانت من

«العرب» القاطنين بالأحياء القديمة.. لكن المساعدات كانت توجه إلى الأوروبيين أولا!

لذا عندما اندلعت الثورة، كان الطالب علي لونيسي مهيئا معنويا لدعم صفوفها.. وقبل الالتحاق بالجبل بادر رفقة عدد من زملائه بإنشاء خلية لجمع الأموال والتدرب على الإسعاف خاصة..

وخلال العطلة الصيفية سنة 1955، كان طالب الحقوق عند ذويه بضواحي تابلاط، وكان الدوار مركزا للثوار، فوجد نفسه تلقائيا في خدمتهم. وصادف أن مر قائد المنطقة الرابعة عمار أوعمران بالدوار فكُلِّف الطالب بتقديم وجبة العشاء للقائد ومرافقيه. وبينما كان أوعمران يحاور أحد مساعديه بالفرنسية، تدخل الطالب في الحوار دون أن يشعر.. وعندئذ سأله القائد: هل فهمت ما يدور بيننا من حديث؟ فأجابه: نعم... وأخبره بالمناسبة أنه طالب في كلية الحقوق. ولم يكن مظهره يوحي بذلك، لأنه كان يرتدي الزي البدوي على شاكلة أنداده من فتية الدوار. وكان رد أوعمران: مكانك معنا! وهكذا التحق بالثوار.

كان الطالب يومئذ شابا في 21 من العمر قوي البنية، فتطوع للقتال في أفواج الكومندو، معتذرا عما اقترح عليه من مهام أخرى، مثل أمين المنطقة أو محافظ سياسي. وهكذا ما لبث أن وجد نفسه جنديا مقاتلا في أفواج سي عبد الحق ثم سي الزبير..

كان سي عبد الحق من الوحدات الجزائرية التي شاركت في حرب الهند الصينية، ومن أسرى معركة ديان بيان فو الشهيرة (ماي 1954). فكان لذلك على قدر من التكوين السياسي والخبرة الحربية والمهارة القتالية، سمح له بتأطير عناصر الأفواج التابعة له تأطيرا جيدا.

ويصف سي علي حياة المقاتل في الكومندو بأنها سهلة نسبيا لأن مهمة الفوج محددة واضحة: التحفز الدائم للقتال وما يتطلبه ذلك من تدريب ولياقة بدنية وحركية وقدرة على مباغتة العدو والحرص على سمعة الفوج لدى الشعب»..

وكانت عناصر الكومندو لذلك «محظوظة» نسبيا لدى المواطنين الذين كانوا يعتنون بها عناية خاصة، من حيث الإطعام والإيواء.. وغير ذلك.

وكانت الأفواج التي ينتمي إليها محدثنا تابعة للمنطقة الثانية (من الولاية الرابعة)، وحدود نشاطها من وادي الأخرة شرقا إلى قصر الشلالة غربا. وكان القتال في الليل أساسا، بينما تخلد إلى الراحة نهارا حيث تمنع من التحرك أحيانا.

ويذكر سي علي بعض الوقائع من تجربته الخاصة نذكر منها:

– كان في البداية يتعفف من الشرب من مياه الوديان مباشرة، وكان يفضل الانتظار حتى الوصول إلى أحد الينابيع... لاحظ مسؤوله ذلك فنصحه بترويض نفسه منذ الآن على شرب مياه الوديان، لأن الظروف ستضطره أحيانا إلى شرب ما هو أسوأ منها!

– كان ينتعل حذاء من مقاس 45... وهو مقاس نادر ويخضع لرقابة خاصة.. فكان يضطر من حين لآخر إلى انتعال الغروس (القاعة).. التي كانت لسوء الحظ سريعة التمزق والتلف..

وحدث أن بقي بدون حذاء قرابة نصف عام.. فظهرت من جراء المشي حافيا بأخمص وعقب القدمين طبقة سميكة من الجلد، مشكلة ما يشبه الحذاء الطبيعي الذي يدوس به على الأشواك والحجارة دون أن يشعر بشيء!

ويستخلص من ذلك، مقدرة الإنسان على التكيف مع الظروف القاسية التي تعترضه في الحياة..

– كانت أول ترقية في سلم الكفاح يحصل عليها طالب الحقوق هي رتبة (كابران شطبة) ومعناها عريف مكلف بمهمة خاصة: السير في مؤخرة الكومندو، مجهزا بغصن أو خشبة لمحو آثار المشي حتى لا يعرف العدو وجهة الجماعة!

كان لهذه الترقية الأولى طعم خاص، واعتبرها سي علي تشريفا كبيرا... ويستغرب في نوع من التأمل، كيف أن طالب الحقوق الذي كان يطمح في الحصول على شهادة ليسانس، أصبح في أفواج الكومندو ويفرح كثيرا لرتبة "كابران شطبة"!

لقد تغير أفق الطالب تماما، وتلك واحدة من معجزات الثورة حسب قوله، ويرجع ذلك إلى «عمق الإيمان بالقضية، إيمان جيل كان يتمنى الاستشهاد بدل الأسر...».

كانت الترقية في صفوف الثوار عزيزة وبناء على استحقاق.. فسي علي لم يصبح رئيس فوج (رقيب) إلا بعد اشتباك ناجح في "موفرنو"، ولم يحصل على رتبة ملازم إلا بعد عملية ثكنة بيزو في البليدة...

وعن هذه العملية يقول محدثنا: «في جوان 1956 كلفني سي الزبير مسؤل أفواج الكومندو، وهو مناضل سابق في حزب الشعب، رفقة 3 عناصر بمحاولة الإعداد لاقتحام الثكنة وغنم ما بها من أسلحة، مع تهريب عناصر من «المشاة الجزائريين» المرابطين بها وفي مقدمتهم الرائد إيدير.

ولتنفيذ هذه المهمة نزلنا إلى البليدة وطلبنا من عناصر «النظام» فيها استقدام الرائد إيدير.. وبعد تردد جاءنا الرائد فعلا يرتدي قشابية للتنكر. ولما طرحنا عليه موضوع الثكنة، قال لنا أن المسألة ليست بمثل هذه البساطة! ولما لاحظنا تهيبه طمأناه بأن الثورة قادرة على حمايته..

وكانت النتيجة تهريب الرائد إيدير إلى تونس. ولم يكن النجاح كما كان يتوقع سي علي ورفاقه، لأن بعض عناصر المشاة تحفظوا أو رفضوا الهروب في نهاية المطاف.

بعد عملية البليدة أصبح محدثنا ملازما. وما لبث أن عين نائبا سياسيا لقائد المنطقة الثانية، قبل أن تسند إليه قيادة المنطقة.. وتولى بعد ذلك قيادة المنطقة الثالثة (الونشريش) .. وهكذا من رتبة إلى أخرى ومن مسؤولية إلى أعلى منها، حتى أصبح من العناصر النافذة في قيادة الولاية الرابعة إلى جانب العقيد محمد بوقرة.

وغداة تشكيل الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958، وإنشاء «أركان الحدود الشرقية» بقيادة العقيد السعيد محمدي وأركان الحدود الغربية بقيادة العقيد هواري بومدين طلب العقيد بوقرة من سي علي الخروج إلى المغرب لتمثيل الولاية في هذه الهيئة الأخيرة، تقبل هذا القرار على مضض، وعزّ عليه أن يفارق قائد الولاية الذي كان بمثابة الصديق..

لكن لا مفر من الامتثال. وبعد حوالي شهرين في الطريق نحو المغرب عبر الولاية الخامسة، تمكن في 15 يناير 1959 من اقتحام خط موريس، واجتياز الحدود بعد سلسلة من الاشتباكات..

وصل ضابط الولاية الرابعة سالما إلى وجدة، ليجد نفسه رفقة أحمد بن شريف وعبد الرحمن مقاتلي في حبس مقنع قرابة الشهر! لقد وضع الثلاثة في بيت لا يبارحونه تحت نوع من الرقابة، دون أن يتصل بهم مسؤول أو يرشدون إلى من يبلغونه بالمهام التي كان من المفروض أن يتولوها في أركان الحدود الغربية!

وذات صباح أطل عليهم الرائد سليمان (أحمد قايد) بوجه الباحث المحقق وكان أول سؤال يصدر عنه: «هل للولاية الرابعة فائض في

الضباط حتى ترسل بكم إلى الخارج؟!» وبعد أن أسمعهم الكثير مما يكرهون، أبلغهم أن «القيادة تطلب منهم تسليم أسلحتهم»! رفض الثلاثة هذا الطلب رفضا عنيفا.. وأصروا على ذلك مهما كانت النتيجة.. وتكررت زيارات الرائد سليمان الاستفزازية إلى أن اتفق الثلاثة على حجزه.. وفعلا قام بن شريف إليه فنزع منه سلاحه وأبقوه رهينة عندهم مطالبين بمقابلة بومدين..

جاء بومدين يحمل اقتراحا غريبا : طلب منهم التوجه إلى الدراسة قائلا: «مثلما شرفتم الجزائر بالبندقية فإنها تأمل أن تشرفوها بالقلم»! وكان رد سي علي: كيف تقرر مصيرنا دون الاستماع إلينا أو الأخذ برأينا؟ لقد خرجت لأتولى مهمة محددة، فإذا رفضتم ذلك فأنا مستعد للعودة من حيث أتيت..!

بعد أربعة أيام عاد بومدين وسليمان مرفوقين ببن طوبال على أساس أن إطارات الولاية الرابعة تطرح عليهم مشاكل خاصة.. استغل الثلاثة الموقف فشكوا حالهم إلى بن طوبال الذي أمر بإخراجهم من الوضع الذي كانوا فيه.

وهكذا «استطعنا أن نخرج من "الحبس" لنذهب إلى "الحمام" بعد أن أعطونا ملابس جديدة مع الاحتفاظ بأسلحتنا».

ويفسر سي علي المعاملة السيئة التي قوبل بها ورفاقه على الحدود الغربية، «بأن بومدين وجماعته كانوا يتوجسون خيفة من مؤامرة قد تدبرها الولاية الرابعة للسيطرة على مقاليد الأمور بوجدة»!

2 – «في وجدة..
أدركت أن المشروع الثوري مآله الفشل»!

عندما خرج الضابط علي لونيسي إلى وجدة في مطلع 1959، ولاحظ تصرفات «جماعتها» مع ثوار الداخل، عرف «أن الركبة مائلة»! وأدرك منذ ذلك الحين «أن المشروع الثوري مآله الفشل... بعد أن كان وهو جندي في الولاية الرابعة يعتقد أنه يعيش تجربة ثورية حقيقية...».

• بعد تجربة وجدة التي مكنت الضابط علي لونيسي ورفاقه من معرفة «حقيقة الثورة» على الحدود الغربية، أرسلوا إلى الرباط حيث نزلوا ضيوفا على عائلة بن أشنهو التي حرصت على استضافتهم وفق ما تقتضيه أصول الضيافة..

استغرقت مرحلة الرباط قرابة الشهرين، وقد فهم سي علي ومن معه خلالها أن العودة إلى الولاية الرابعة لم تعد ممكنة، وما عليهم إلا تقبل المهام التي ستقترح عليهم بطيب خاطر. وما هي إلا أيام حتى تم فصل الضابط بن شريف رفقة "نهرو" (بشير رويس)، وإرسالهما إلى الحدود الشرقية باعتبارهما عسكريين.

بقي سي علي ومعه الضابط عبد الرحمان مقاتلي، ينتظران دورهما والمهام التي ستسند إليهما. وذات يوم أطل عليهما العقيد بومدين مرفوقا بمنصور بوداود ليطلعهما عما تقرر بشأنهما: إحالتهما على الحكومة المؤقتة بالقاهرة لتتكفل بمصيرهما!

وفي القاهرة حظي الوافدان من الداخل - عبر المغرب - بعناية خاصة. ناهيك أن بلقاسم كريم القائم بوزارة الدفاع آنذاك اختلى بهما في مكتبه يومين متتاليين.. وكان يبدو منشغلا بموضوعين رئيسيين: اجتماع قادة الولايات بالداخل (ديسمبر 1958)، وأطوار «عملية الزرق» التي ابتليت بها الولاية الثالثة، وبدرجة أقل الولاية الرابعة.

وكان من نتائج هذا اللقاء، فتح أبواب الحكومة ووزارة الدفاع على مصراعيها أمام سي علي ورفيقه. ولاحظ بعض مساعدي كريم ذلك فأوعزوا إليهما أن يطلبا منه مناصب هامة، مثل الأمانة العامة لوزارة الدفاع! وقد فوجئ هؤلاء بقرار الاثنين: تفضيل مواصلة الدراسة الأول بألمانيا (الشرقية) والثاني بالولايات المتحدة الأمريكية!

ويعلق سي علي على هذا القرار بأنه «انعكاس لفتور عزيمة الكفاح لدينا بعد تجربة وجدة المرة»!

أصبح سي علي طالبا بكلية الاقتصاد في برلين (الشرقية) التي تخرج منها بعد أقل من ثلاث سنوات.. وعندما عاد إلى القاهرة التقى بصديقه ورفيقه من الولاية الرابعة بوعلام أوصديق.. وكان كريم يومئذ وزيرا للخارجية فقام بتعيينهما في السلك الدبلوماسي: الأول في كوناكري (غينيا) والثاني في مالي.

بقي الدبلوماسي الجديد بالعاصمة الغينية لغاية وقف القتال.. عندما انتدب لمهمة خاصة: العودة إلى الولاية الرابعة بمهمة المساهمة في تهدئة الأوضاع وترتيب الأمور، تمهيدا لاستفتاء تقرير المصير وعودة الحكومة المؤقتة.

وفي ضواحي البليدة سأل محدثنا عن قائد الولاية، فقيل له إنه سي حسان (يوسف الخطيب) فاندهش بعض الشيء! وكانت دهشته أكبر لبرودة الاستقبال، وما كان يعبر عنه من حب للسلطة وتشبث بالمناصب! علم الرائد عز الدين (رابح زراري) بحال سي بوعلام ورفيقه بوعلام أوصديق فبادر برفع الحرج عن الجميع. فقد طلبهما لمساعدته في منطقة العاصمة التي كانت تعيش يومئذ على وقع التفجيرات الإرهابية لمنظمة "أواس".

وهكذا وجد محدثنا نفسه في مواجهة إرهاب الكولون، ومحاولة تأطير أحياء العاصمة على صعيد اليقظة والصحة بصفة خاصة.

غير أن هذه المهمة لم تكن حيادية! فقد كانت تبدو في نظر التحالف الجديد بين بن بلة وبومدين انحيازا للحكومة المؤقتة وفي صالحها! وكان من الطبيعي بناء على ذلك أن يحسب على هذا الطرف في التنازع على الحكم خلال صائفة 1962..

ولعل هذا ما يفسر عدم ترشيحه في انتخابات المجلس التأسيسي في سبتمبر من نفس السنة!

ويروي سي علي عن أطوار تلك الفترة الحرجة، أن أحد أصدقائه جاءه ذات يوم إلى مسكنه مصحوبا بالزعيم محمد بوضياف الذي كان يعيش تحت هاجس التصفية الجسدية! وطلب إليه أن يأويه ففعل.. ولتطمينه أكثر أعطاه مسدسا للدفاع عن نفسه إذا اقتضى الأمر. ولم ير سي علي ضيفه منذ ذلك الحين، إلى أن عاد في مطلع 1992.

وأتاه في نفس الظروف بن طوبال وكان يقيم على مقربة منه لينبهه إلى أن مخبرا متنكرا في زي راع يبدو أنه مكلف بمراقبتهما! وقاما معا

بمناداة «الراعي» وسأله مباشرة: ترى من تراقب؟! ويقول سي علي: منذ ذلك اليوم رحل هذا «الراعي» بشويهاته إلى مرعى آخر!

ولحسن الحظ أن مثل هذه الهواجس والوساوس لم تدم طويلا بالنسبة لسي علي، بعد أن عين رئيس ديوان بوزارة الفلاحة مع المرحوم عمار أوزقان أولا ثم مع أحمد مهساس بعده.. لكن عمله إلى جانب هذا الأخير لم يستمر طويلا، فقد فرق بينهما «ملف بوناموسة» (سد بالطارف)!

وتفسير ذلك أن الرئيس بن بلة كان بصدد تحضير زيارته إلى ولاية عنابة وقد اتصل في غياب وزير الفلاحة برئيس ديوانه وطلب إليه ملف «بوناموسة» فأرسله إليه على جناح السرعة. وعندما عاد الوزير إلى مكتبه اتصل به الرئيس ثانية وأخبره بما حدث، طالبا إليه بالمناسبة أن يكلف رئيس ديوانه بمرافقته!

ساء السيد الوزير أن يتصل رئيس ديوانه بالرئيس مباشرة! وهكذا افترق الرجلان!

انتخب سي علي نائبا في المجلس الوطني الأول (1963/ 1965) وظل يؤدي مهامه فيه إلى غاية «تجميده» غداة انقلاب 19 جوان 1965.

ومع بداية «العهد الجديد» وجد نفسه «رئيسا مديرا عاما» لشركة الصناعات الكيماوية حيث مكث أكثر من عشر سنوات.

وقد غادر منصبه أيضا بسبب خصومة مع وزير القطاع الذي لم يكن غير بلعيد عبد السلام، من «الوزراء فوق العادة» في ذلك العهد!

بداية الخصومة بمناسبة تأميم شركة "يونيفرس" لصناعة المنظفات (أومو – تايد). والسبب أن سي علي، بصفته مسؤول الشركة التي ستحتوي المؤسسة المؤممة سبق بالدخول إلى مقراتها... وإلى خزانتها المحصنة

بصفة خاصة! حيث وجد قائمة عدد من المسوولين الكبار المستفيدين من هبات الشركة، مقابل «التسهيلات» التي كانوا يقدمونها إليها!

وكان أمين عام الوزارة آنذاك يبدي حرصا خاصا على استعادة الوثيقة، بطلب من شخصية سامية معنية! ولهذا السبب وقع الصدام بين الرجلين! وكانت نهاية الخصومة بسبب تأميم مؤسسة "صولب"..

وحسب رواية الرئيس المدير العام، أن مسؤولي هذه الشركة كانوا على استعداد للتنازل عن مصنعهم القديم – الذي سبق أن عمل بالمغرب – مقابل تزويد الشركة الأم في بلجيكا بمادة الملح لفترة محددة. لكن مسؤولين بالوزارة قبلوا اشتراء المصنع القديم بالعملة الصعبة، وطلبوا من محدثنا أن يوقع على هذه الصفقة!

رفض سي علي التوقيع على هذه الصفقة التي بدت في نظره مشبوهة إلى حد ما.. وهكذا كانت القطيعة مع عبد السلام .. بل مع القطاع العام كله.. ذلك أن محدثنا فضل التفرغ لشؤونه الخاصة، بعد فترة من الانتظار استغرقت قرابة العامين.

ويبدو المجاهد سي علي لونيسي مرتاحا على الصعيد الشخصي والعائلي، لكنه يؤكد مع ذلك أن مايزال منذ الاستقلال يبحث عن «استعادة توازنه في الحياة اليومية»! وهذا ما يفسر «بعض التقلبات» في حياته حسب قوله، فالشعور بالقلق مانفك يلازمه، هذا الشعور الذي يتحول أحيانا إلى إحساس عميق بالإحباط بالنظر إلى مآل البلاد وحالها اليوم...

ويعود محدثنا إلى «محنة وجدة»– قبل 43 سنة – ليؤكد أنه «بدأ يشعر منذ ذلك الحين بفشل المشروع الثوري... بعد أن كان يعتقد أنه يعيش «تجربة ثورية حقيقية».. ويفسر ذلك بأنه منذ أن غادر البلاد في

مطلع 1959، بدأ يتأكد بأن كفاح جبهة وجيش التحرير هو حرب تحريرية لا غير! لقد لاحظ حسب العبارة الشعبية يومها بأن «الركبة مايلة»!

ويفسر الشعور بالإحباط الذي ما انفك يسكنه، بأنه «نتيجة الإخلال بالوعود التي كنا كمجاهدين نغدقها على الجماهير..والعجز عن تحقيق الأهداف التي كنا نسطرها بلهب المعارك وتضحيات الشهداء».

ويشعر سي علي أيضا «باغتصاب كفاح المجاهدين من طرف آخرين! فأول نوفمبر مثلا يعتبر عرسا للمجاهدين.. لكن هذا العرس أصبح الآخرون يحتفلون به في غياب أصحابه..!

في مطلع الثمانينيات خطر للرئيس بن جديد، أن يعقد ملتقيات لتدوين وقائع الثورة التحريرية.. كان سي علي من المدعوين.. وفي أروقة قصر الأمم كان واقفا على مقربة من الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وقاصدي مرباح.. فسمع الأول يهمس في أذن الثاني: «ماذا يقصد الرئيس بهذا الملتقى؟! أتراه يريد بعث الأموات؟! انتبه طالب إلى أن محدثنا التقط همساته، فقال معتذرا: «إنه كلام على عواهنه، لا تأخذه مأخذ الجد»!

• مصطفى بن عمار

– ولد مصطفى بن عمار بالأغواط في 28 فبراير 1937، ودرس بها المرحلة الابتدائية قبل أن ينتقل إلى المدية لمواصلة دراسته الثانوية.

– التحق بالثورة في ناحية المدية (المنطقة الرابعة) غداة إضراب 19 مايو 1956، لكن عقب مؤتمر الصومام عين مع قائد الولاية السادسة سي الشريف (علي ملاح)، بهدف دعم مواقع الثورة وسط جنوب البلاد.

– كلف بمهام تتعلق بالتسليح أولا باتجاه الولاية الخامسة لفائدة السادسة، ثم باتجاه الثالثة لفائدة الرابعة – وقابل في هذه المهام قادة كبارا أمثال: لطفي وزغلول وعميروش.

– خرج في مهمة إلى تونس مطلع 1958، حيث عين في سلاح الإشارة بعد فترة تربص. وبقي في هذا الاختصاص بتونس ثم بالمغرب حتى الاستقلال.

– عمل بعد الاستقلال في السلك الدبلوماسي، فمثل الجزائر في عدد من الدول، قبل تعيينه في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي وزيرا للتجارة ثم وزيرا للتربية الوطنية.

ملحمة .. «شباب عيد الفصح»!

صدر أخيرا عن دار هومة كتاب «الشهداء.. هم الأبطال» يروي فيه مؤلفه مصطفى بن عمار قصته مع الثورة منذ أن التحق بصفوفها عقب إضراب 19 ماي 1956 إلى غاية الاستقلال، بعد أن عايش أهوالها بالولايات الرابعة والسادسة والخامسة.. «ومكائدها» على الشريط الحدودي مع كل من تونس والمغرب(*).

غداة إضراب 19 ماي 1956، قرر التلميذ مصطفى بن عمار رفقة مجموعة من زملائه بثانوية بن شنب (المدية) الالتحاق بالثورة، وكان معدل أعمارهم لا يتجاوز 18 سنة. وكان دليلهم في هذه المغامرة الكبرى – نظرا لسنهم – عمه محمود التلميذ في شعبة الرياضيات بثانوية "دوفيريي" بالبليدة، فقد كان يعرف المسمى عبد الرحمان بن علال الذي كان على صلة بثوار ناحية المدية من المنطقة الرابعة.

وفي أواخر ماي كانت المجموعة المكونة من ثمانية تلاميذ على موعد صباحي مع الدليل يوسف بضواحي وزرة ليقودهم إلى مصيرهم الجديد: ملحمة الثورة التحريرية. هذه المجموعة الصغيرة – سنا وعددا – لم تفلت من عيون العدو الذي سارع بإرسال وحدة من عساكره لملاحقتها، ولما اقتربت من مكان تواجد المجموعة أخذت تطلق النار عشوائيا.. لكن خبرة الدليل يوسف ردتهم على أعقابهم خاسئين، فقد كان يعرف أنهم يفعلون ذلك طمعا في تخويف الثوار وإخراجهم من مخابئهم، فنصح مرافقيه بملازمة مواقعهم.

(*) الفجر: عدد 17 يونيو 2002.

قضى التلاميذ الثمانية ليلتهم الأولى عند مساعد حارس غابة، يكنى "موستاش" بالقرب من جنان زعاف.

ومن هناك واصلوا مشوارهم في اليوم الموالي باتجاه لوزانة في الأطلس البليدي، وبها زاوية معروفة ومركز هام للثوار، كان من بين المشرفين عليه آنذاك الطالب رشيد عمارة الذي صعد إلى الجبل لتوه من العاصمة رفقة التلميذات: مريم بالميهوب وفضيلة مسلي وصفية بعزي.

وبلوزانة تلقى الشباب خلال فترة تربص استغرقت ثلاثة أسابيع مبادئ العمل الثوري الذي يجمع بين النضال السياسي وما يتطلبه من معرفة بالسياسة والتاريخ الوطني، وبين الكفاح المسلح وما يقتضيه من تدريب على السلاح والقتال والإسعاف الذي كان على الطبيعة؛ لأن المركز كان يستقبل الجرحى من المجاهدين ومنهم من كانت إصابتهم خطيرة.

كان العدو يعرف بالتقريب ما يجري في لوزانة وضواحيها، فجهز قوة كبيرة لتمشيط المنطقة بدءا من 7 يوليو، وقد اضطر الثوار لذلك إلى مغادرة المكان، وكان مصطفى ورفاقه ضمن المجموعة التي تحركت باتجاه عين بسام بمرافقة المجاهد بن يوسف (محمد قريتلي) من الصومعة.

وفي 18 يوليو بينما كانت المجموعة في ضيافة عرش الطوالب بالضفة الغربية لوادي العناصر، بلغها نبأ استشهاد رشيد عمارة (في 14 يوليو).

تم توزيع المجموعة بعد ذلك فعين مصطفى كاتبا لدى الملازم سليمان السيكة لكن لم يمكث معه طويلا، فقد حضر لقاء ببني ميصرة مع مسؤولين هما سي الصادق (دهيلس) وسي الطيب (عمر أوصديق) وتطوع لمرافقتهما في جولة تفقدية غرب المنطقة قادتهم حتى شرشال وتنس.

ويقول عن هذه الجولة الأولى التي مكنتهم من الاحتكاك بالشعب. لقد لاحظت خلال الجولة كم كان تجند السكان وتطوعهم كبيرا وكم كان إيمانهم وعزمهم قويا».

وفي أواخر سبتمبر 1956 تلقى سي الصادق رسالة بالعودة فورا إلى مقر القيادة بالأطلس البليدي، وبعد قرابة شهر عقد اجتماع هام بحضور العقيدين سي الشريف (ملاح) وأوعمران.

وقد حمل هذا الأخير قرارات الصومام ومنها تسمية المنطقة بالولاية وتعيين سي الصادق قائدا عليها خلفا له بمساعدة الرواد بوقرة وأوصديق وزعموم.

وبهذه المناسبة عين مصطفى رفقة إطارين آخرين، مع العقيد سي الشريف الذي كان بصدد هيكلة الولاية السادسة التي كرسها مؤتمر الصومام وعينه على رأسها، بعد أن بقيت منذ فاتح نوفمبر 1954 في طور المخاض.

في أواخر أكتوبر اتجه سي الشريف ومساعدوه جنوب البرواقية حيث اتخذ من ثلاثة دواوير مقرا مؤقتا لقيادته. ويصف الكاتب حالة الولاية السادسة يومئذ، بأنها كانت فقيرة من ناحية الإطارات، وليس لديها من السلاح إلا القليل...

وكانت بعض مناطقها تحت نفوذ كل من بن لونيس وعاشور زيان.

كلف سي مصطفى في البداية بمهام تفقدية بهدف تقييم الوضع ببعض مناطق غرب وجنوب شرق الولاية.

وكانت تتخلل هذه المهام عمليات عسكرية وفدائية تكتسي طابعا دعائيا.

وفي أواخر يناير 1957، استدعاه قائد الولاية ليكلفه بمهمة محددة: الذهاب على رأس كتيبة من الجنود إلى المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة لجلب الأسلحة المرسلة عبرها إلى السادسة.

وفي منتصف فبراير التحق بالكتيبة التي عين على رأسها بناحية دراف. كان عليه أن يقودها حتى جبال العمور، مرورا بجبال الناظور في نهاية سهل السرسو كممر إجباري.

وصادف في الناظور النقيب ناصر (مختاربويعزم) رفقة الملازم بختي نميش من قيادة المنطقة السابعة من الولاية الخامسة، فاستخبر لديهما عن الأسلحة المرسلة إلى المنطقة السادسة من قيادة الثورة بالغرب، فنصحاه بالاتصال بالنقيب لطفي قائد المنطقة الثامنة.

وعقب ذلك داهمت قوات العدو جبال الناظور إثر وشاية تلقاها نقيب "لاصاص" (مصلحة المراقبة الإدارية) بناحية الوساخ (عين الذهب) واشتبكت مع كتيبة سي مصطفى الذي أصيب بجرح خفيف في كتفه.. كما اشتبك مع العدو ثانية وأصيب إصابة خفيفة في ساقه.

هذه المفاجأة غير السارة جعلته ورفقاءه يلعنون هذه الجبال حيث «ذاقوا الغبار الممتزج برائحة البارود، وهو غبار يجفف الفم والحلق ويجعل الهواء خانقا» حسب قوله. ويقرر بناء على ذلك الالتحاق بكتيبته التي تحركت قبله باتجاه جبال العمور رفقة دليله المدعو إبراهيم.

وفي أفريل 1957 الذي صادف شهر رمضان، توقف وهو في الطريق بقصر الكردان، حيث أكرم ممثلو التيجانية ضيافته.. وتحت تأثير الجرح وآثاره خطر له أن يعرج على الأغواط مقر إقامة عائلته لمعالجته قبل أن يواصل مشواره باتجاه جبال العمور، وتمكن فعلا من دخول المدينة

رفقة دليله داهما، وأقام بين ذويه الذين استقدموا الدكتور بن عجيلة لانتزاع الشظية التي أصيب بها ومعالجة جرحه.

وبعد أن تماثل للشفاء، أقام له والده سهرة رمضانية مع أعيان المدينة الموالين للجبهة، وفي الغد ودع أهله ليلتحق برفاقه من جديد، وكانوا يرابطون بجبال القعدة في انتظار السلاح الموعود...

ولمقابلة النقيب لطفي قائد المنطقة الثامنة، كان على سي مصطفى ورجاله أن ينتقلوا من القعدة إلى جبل خناق عبد الرحمان (كاف ميمونة) غربا، وهناك تمكنوا من استلام حصة الولاية السادسة المرسلة من الحدود الغربية. وبينما كانوا يتأهبون للعودة من حيث أتو، تلقو بواسطة النقيب لطفي نبأ اغتيال قائد الولاية السادسة، وأقرب مساعديه على يد الشريف بن السعيدي وجماعته الذين التحقوا بعد خيانتهم هذه بصفوف العدو.

هذه الفاجعة الأليمة – التي تكون جرت ما بين 20 و26 مارس 1957 – أجلت عودة الكتيبة بعد تسليحها بضعة أشهر، إذ لم تغادر جبال القعدة إلا في أواخر أوت من نفس السنة.

وأثناء مرابطة الكتيبة بخناق عبد الرحمان مع كتائب أخرى من الولاية الخامسة، داهم الجيش الفرنسي المنطقة معززا بالمصفحات والمروحيات والطائرات. وقد اشتبك مع المجاهدين ابتداء من 19 مايو طيلة ثلاثة أيام كاملة. وأسفرت الاشتباكات عن استشهاد 69 جنديا، بينما بلغت خسائر العدو حسب تقدير الكاتب 102 قتيل وعدد كبير من الجرحى.

وبعد تمركز الكتيبة بجبال القعدة في انتظار قرار العودة إلى السادسة، قام العدو بمحاولة اقتحام، لكنه لم يجد أثرا للمجاهدين الذين كانوا يتجنبوه رغم طائراته ومروحياته.

وفي أوائل سبتمبر أذنت قيادة الولاية الخامسة لكتيبة سي مصطفى بالرحيل، فيمم شطر الولاية الرابعة. وصادف في الطريق مجيء قائدها العقيد بوقرة الذي كان على موعد مع مسؤولي المناطق الرابعة والسادسة والسابعة من الولاية الخامسة لبحث مشكلة الأسلحة التي تأتي إلى الولاية الرابعة عن طريق هذه المناطق.. وتم اللقاء بناحية مكناشة بالمنطقة الرابعة التي كان على رأسها النقيب عثمان (بن حدو بوحجر).

وبالمناسبة كلف العقيد بوقرة سي مصطفى بمرافقة النقيب الطيب الجغلالي إلى الولاية الثالثة لبحث مشكلة الأسلحة التي تأتي إلى الولاية الرابعة عن طريقها أيضا.

وتمكن الاثنان من الاتصال بعميروش بفضل النقيب حسن محيوز مسؤول المنطقة الأولى بالولاية الثالثة.

وقد تسلم الجغلالي قائمة بالأسلحة المرسلة إلى الرابعة والتي كان من المنتظر وصولها قريبا عن طريق الأوراس.. وقال العقيد عميروش وهو يودعهما: «طمئنوا سي امحمد بأنني أحرص شخصيا على إيصال الأسلحة إلى باليسترو (الأخضرية) بأسرع وقت ممكن».

عاد سي مصطفى رفقة الجغلالي إلى الولاية الرابعة، فاستقبلهما العقيد بوقرة بدوار الصباح، وكان مرفوقا بنوابه وبعض مسؤلي المناطق.

وبعد استراحة قصيرة نادى العقيد سي مصطفى على حدة ليكلفه هذه المرة بمهمة تفقدية في تونس، أريد لها أن تتواصل حتى الاستقلال!

انطلق سي مصطفى باتجاه تونس عبر الولاية الثالثة فالأولى وحيدا ليس معه غير الدليل، وتكليف بمهمة بخط العقيد سي امحمد.

عبر سي مصطفى الثالثة بسلام، ولما دخل الأولى صادف في طريقه النقيب محمد الصالح يحياوي الذي زوده بجملة من النصائح، أفادته كثيرا في طريق لا أمان فيه من أحد! وأفاده أكثر بدليلين محنكين أمرهما بمساعدة الرفيق ليس في عبور الولاية وحسب، بل في اجتياز خط موريس وحتى مقصده بتونس!

وتقديرا لحنكة هذين الدليلين وتفانيهما في أداء المهمة أهدى أحدهما المدعو محمد الطاهر مسدسه الخاص! وذكر بخير كل الجنود والمسبلين المختصين في عملية اجتياز آلة الموت الرهيبة المتمثلة في خطي موريس وشال، والتي فتكت بالكثير منهم.

دخل سي مصطفى تونس عن طريق تالة، حيث وجد في انتظاره مفاجأتين محزنتين! الأولى أن الملازم سليمان السيكة كان هو ممثل الولاية الرابعة بتونس! وكان سي مصطفى كاتبه في أول مهمة تسند إليه بعد تربص لوزانة كما سبقت الإشارة، وقد هرب منه لسوء معاملته!

والثانية أن سوء المعاملة صاحبته وهو بتونس، فقد أمر السيكة بحبسه بدعوى أنه نزل إلى القرية بدون إذن!

ولحسن الحظ أن هذه الصدمة لم تدم طويلا فقد سمع الرائد زعموم والنقيب الجغلالي بما حدث له وكانا في مهمة بتونس أيضا فجاءا وأمرا بالإفراج عنه.

وقد ذهب معهما إلى تونس، حيث قدماه إلى مسؤول سلاح الإشارة لإجراء تربص في هذا الاختصاص.

استغرق التربص من مايو إلى أوت 1958 ومر بسلام رغم أن سي مصطفى قبله على مضض. ولم ينس الإهانة التي ألحقها به الملازم السيكة وهو النقيب المجاهد القادم لتوه من ميدان القتال.

علم بوصوف بحالته تلك، فاستقبله بأمل محو آثارها، ومما قاله بالمناسبة: «عليك بتجاوز ما حدث، وفكر فقط في خدمة الثورة بإخلاص ووفاء».

وهكذا أصبح سي مصطفى من إطارات الحرب الخفية التي تدور رحاها بشراسة لا تقل عن شراسة القتال المباشر على مستوى الهوائيات والعمليات المخابراتية. عمل بتونس أولا، ثم بالمغرب ابتداء من 2 يونيو 1960، حيث استقر بمركز بوعرفة، قريبا من مقر قيادة الولاية الخامسة.

ومن المهام التي قام بها وهو بهذا المركز، مرافقة الصحافي المصري محمد أبو الفتوح من إذاعة صوت العرب، لإجراء تسجيل صوتي للمعارك والاشتباكات على الحدود الغربية وداخل التراب الجزائري..

استمر سي مصطفى في أداء مهامه لغاية الاستقلال الذي كان له للأسف وقع خاص عليه، ويصف حاله يومئذ بقوله: «غمرني شعور بالخيبة والإحباط، لم يفارقني طيلة الأشهر الأولى من الاستقلال، إذ لم أكن أتصور قط أن تكون الخاتمة على ذلك النحو من الفوضى والغموض بعد سنوات من الكفاح والمعاناة».

وتفسير ذلك أن صاحبنا كان من الإطارات التابعة لوزارة التسليح والاتصالات العامة، أي المحسوبة تلقائيا على بوصوف.. ومادام هذا الأخير في صف الخاسرين مع الحكومة المؤقتة، فقد وجدت العناصر التابعة لمصالحه نفسها فجأة، كقطيع بدون راع لا تدري أين تتجه!

بعد قرابة شهر من الانتظار، قرر سي مصطفى العودة إلى المنزل العائلي بالأغواط. علم والده بذلك فسافر إلى الرباط لمرافقته.

ومن الرباط بدأت مشاكل مابعد الاستقلال!

لقد طلب رخصة مرور من المكتب العسكري التابع لهيئة الأركان، وعندما ذهب لاستلامها لاحظ أنها تحمل توقيع واحد من «وطنيي الساعة الأخيرة» حسب قوله..

ظل سي مصطفى قابعا بالأغواط لغاية أكتوبر 1962، عندما جاء إلى العاصمة لطلب الإعفاء من الجيش.

وقد استقبله نائب مدير المستخدمين (رشيد أيت إيدير) فوافق على طلبه شفاهيا! ويقول بالمناسبة أنه وجد يومئذ العديد من أعضاء جيش التحرير ووزارة التسليح يهيمون بشوارع العاصمة بحثا عن مسؤول يعرفونه، عله يدلهم على مؤسسة أو إدارة أو مرفق، بحاجة إلى كفاءاتهم في ظل الجزائر المستقلة.

كما لاحظ أيضا مئات الانتهازيين الذين هبوا من كل حدب وصوب، كانوا يملأون أروقة "روشي نوار" (بومرداس – مقر حكومة عبد الرحمن فارس) وفيلا جولي (مقر الرئيس بن بلة)!

وفي نهاية 1962 عاد إلى العاصمة بحثا عن عمل هذه المرة. توجه مباشرة إلى مقر الحزب بقصر بروس (القصبة السفلى) حيث مكتب الزعيم رابح بيطاط الذي تعرف عليه بالحدود المغربية بعد وقف القتال، ليطلب منه توصية من الأمين العام محمد خيضر ترشحه للعمل بمصالح وزارة الخارجية.

وهكذا استأنف سي مصطفى المجاهد والإطار الشاب –الذي انصهر في أتون معركة التحرير– نشاطه في الجزائر المستقلة، عبر نافذة ضيقة.. بمصلحة الصحافة والإعلام في وزارة الخارجية التي كان على رأسها يومئذ الفقيد محمد خميستي.

• عبد الرزاق بوحارة

– ولد عبد الرزاق بوحارة بالقل (سكيكدة) في 1 ديسمبر 1935، وبها درس المرحلة الابتدائية، قبل أن ينتقل إلى سكيكدة وقسنطينة لاستكمال المرحلتين الإعدادية والثانوية.

– التحق بالثورة التحريرية غداة إضراب 19 مايو 1956، وهو في السنة النهائية بثانوية "أومال" بقسنطينة، عبر منطقة الأوراس– النمامشة.

– خرج إلى تونس حيث وقع عليه الاختيار لمواصلة دراسته العسكرية بسوريا ومصر. وقد عاد سنة 1959 برتبة ضابط فتولى مهمة التدريب مؤقتا، قبل تعيينه سنة 1960 على رأس الفيلق الـ 39 بالمنطقة الحدودية الشمالية (على الحدود الشرقية).

– واصل حياته العسكرية غداة الاستقلال في صفوف الجيش الوطني الشعبي، حيث تقلد عدة مناصب داخل البلاد وخارجها. وشارك بهذه الصفة سنة 1968 في حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس إلى جانب الجيش المصري.

– عين سنة 1972 سفيرا للجزائر بجمهورية فيتنام، ثم عين واليا على العاصمة فوزيرا للصحة قبل أن يتفرغ للمهام الحزبية إلى غاية المؤتمر السابع (ربيع 1998).

– عضو نشيط في الرابطة الجزائرية للثقافة والفكر.

ذكريات بوحارة

أجوبة محتشمة.. لأسئلة جريئة!

صدر أخيرا الجزء الأول من «مذكرات» المجاهد عبد الرزاق بوحارة الوزير السابق (*) بعنوان «مسامك التحرير» [1]. وهو عبارة عن «مجموعة من الذكريات والانطباعات والشهادات والتأملات والتعاليق» حسب الكاتب نفسه.

وميزة هذا الكتاب أنه يفتقد خاصية المذكرات وأنه اعتمد كثيرا على الذاكرة، كما أنه يطرح الكثير من الأسئلة الجريئة، ولا يقدم من عناصر الإجابة عليها إلا النزر اليسير.

ويفسر الكاتب «تحفظه» أو «تعففه» بثلاثة عوامل: الرقابة الذاتية التي ماتزال شديدة المفعول على أبناء جيله، المسؤوليات التي تحملها في الجيش والجبهة وأخيرا احترام ذكرى رفاق هم الآن بجوار ربهم ينعمون!

فهل معنى ذلك أن بوحارة «شاهد لم ير شيئا!؟».

لا، طبعا! فالكتاب تضمن فعلا نفحات وقطرات من الحقيقة التاريخية الغنية والمتشعبة، تفيد بكل تأكيد الباحثين وذوي الاختصاص؛ كما تضمن آراء جريئة ولو عبّر عنها صاحبها بطريقة محتشمة، بسبب «الرقابة الذاتية» كما سبقت الإشارة.

(*) الشروق اليومي: عدد 31 يناير 2002.

LES VIVIERS DE LA LIBERATION. (1)

• على صعيد المعلومات التاريخية يقدم الكاتب إضافات يمكن الإشارة إلى بعضها مثلما جاء حول:

1 – عملية البطيحة التي تمثلت في التحاق عدد من المشاة الجزائريين في الجيش الفرنسي بجيش التحرير، بعد إبادة الجنود الفرنسيين وتدمير الموقع عن آخره، وغنم ما أمكن نقله من الأسلحة والذخيرة والعتاد..

ويؤكد بوحارة أن المحرك الرئيسي للعملية هو ضابط الصف عواشرية الذي كان على صلة بثوار ناحية سدراتة.. وقد كلّف ضابط الصف عبد الرحمان بن سالم بتلهية قائد الموقع، وهو ملازم فرنسي كان على رأس كتيبة متمركزة هناك.

ومن سخرية الأقدار، أن هذا الملازم أخبر بن سالم بالمناسبة وكان على أهبة التسريح من الجيش، بأنه تم تعيينه قائدا على ناحية وشتاتة!

وسارعت قوات الاحتلال بقيادة العقيد بيجار بملاحقة «المتمردين» طمعا في معاقبتهم لكن بدون جدوى..

وكان بعض هؤلاء رفاقا لبيجار، في معركة "ديان بيان فو" في فيتنام قبل عامين حيث أسروا جميعا!

2 – أسباب محاكمة الشهيد «عباس لغرور»، إذ يذكر الكاتب أن الشهيد دبر كمينا لقافلة عسكرية داخل التراب التونسي بناحية ثلابت. وقد اعتبرت السلطات التونسية ذلك خرقا للاتفاق المبرم مع قيادة الثورة، فقامت بوضع لغرور تحت الإقامة الجبرية، قبل تسليمه لممثل لجنة التنسيق والتنفيذ التي حكمت عليه بالإعدام في ربيع 1957.

3 – هاجس الاستشهاد داخل الغيران .. ويصف الكاتب كيف عاش هذا الهاجس وهو في طريقه إلى تونس مطلع أفريل 1957، عندما اضطر رفقة عدد من المجاهدين إلى الاختفاء مؤقتا، داخل أنفاق منجم مهجور بناحية مسلولة شرق أم البواقي..

فقد كان معهم مجاهد جريح، روى لهم ما حدث للشهيد الحسن مرير الذي استشهد داخل كهف، بناحية تافرنت شمال شرق خنشلة في خريف 1955. فكان ذلك مثار نقاش حول مزايا ومساوئ الأنفاق التي يمكن أن تتحول إلى فخ، في حالة اكتشافها من قبل العدو..

ومثلما حدث للشهيد مرير ومجموعته بالولاية الأولى، حدث لكثير من الشهداء بمناطق أخرى. نذكر منهم على سبيل المثال الشهيد محمد العيشاوي الذي قصف وعددا من رفاقه بالغازات السامة، داخل المغارة التي لجأوا إليها بناحية الزبربر (الولاية الرابعة) عام 1959.

4 – تأزم العلاقات بين الحكومة المؤقتة ممثلة في «الباءات الثلاثة»[2]. وهيئة الأركان العامة– فالكاتب يعيد في هذا الصدد، نشر مقتطفات من مذكرة إعلامية صادرة عن قيادة المنطقة الشمالية من الحدود الشرقية بتاريخ 31 أكتوبر 1961 جاء فيها:

– «إن هيئة الأركان العامة– بقيادة العقيد هوري بومدين – استأنفت مهامها3) بطلب من الجيش».

– «إن الخلاف مع الفريق الحاكم مايزال قائما، وأن لقيادة المنطقة كامل الثقة في أن تحل هيئة الأركان هذا الخلاف حسب المبادئ الثورية».

(2) هم بالقاسم كريم وبن طوبال وبوصوف أعضاء «اللجنة الوزارية للحرب».

– «ينبغي حذف الحروف الأولى للجنة الوزارية للحرب (C.I.G) من مراسلات الوحدات».

• **على صعيد التأملات المستوحاة من ربط الماضي الثوري بـ «الحاضر الغامض»،** يعبّر الكاتب عن آراء جريئة، لكن بأسلوب التساؤل كما سبقت الإشارة. من الأسئلة التي يطرحها:

1 – ماذا حدث في بلاد نوفمبر خلال عقود معدودة حتى يتحول الحلم إلى كابوس، والوفاق إلى شقاق، والأمل إلى ريبة، والثقة إلى حذر، والاحترام إلى احتقار، والاعتراف إلى نكران، والنقد البنّاء إلى تشويه، والاستمرار إلى قطيعة»؟!

– «ماذا حدث لكي يصبح مشروع سياسي نبيل وسخي – قوامه العدالة والتقدم الاقتصادي والاجتماعي – مسخا معرضا لأكثر الانتقادات تجريحا وأشد قسوة؟!».

مثل هذه الأسئلة الخطيرة، يتجنب الكاتب تقديم أجوبة مباشرة عليها، لكن القارئ الفاطن يمكن أن يهتدي من خلال عناصر الإجابة المبثوثة، عبر صفحات الكتاب الـ335، إلى أجوبة عامة مشكلة على طريقة اللعب العصرية بقطعها المختلفة الأحجام والألوان! من هذه القطع:

– البرنامج الوطني الثوري الذي لعبت هيئة الأركان العامة دورا هاما في إعداده عشية الاستقلال..

وهو البرنامج الذي اتخذ شكله المؤقت في برنامج الثورة الديمقراطية الشعبية المصادق عليه مطلع يونيو 1962 بالعاصمة الليبية في آخر دورة لمجلس الثورة الجزائرية. ويشير الكاتب إلى أن برنامج طرابلس أصبح بعد الاستقلال محل اتفاق وتكامل بين شخصيتين

بارزتين: العقيد هواري بومدين – الذي كان بعض الجنود إبان ثورة التحرير يلقبونه الحنش الأصفر»!– ومحمد الصديق بن يحيى هذا الحقوقي البارز والسياسي اللامع..

وقد أدرك كل منهما أهمية التزام الشباب المتعلم خاصة، برسالة التحرير بالأمس وبرسالة التعمير اليوم وغدا..

فهل نفهم أن اغتيال بن يحيى عام 1982، أوقف عملية الاستمرارية في هذا المجال وفتح باب القطيعة – الردة– على مصراعيه»؟!

نحن أيضا لا نملك الجواب على السؤال بغير السؤال!!

– مدى نجاح المخابرات الفرنسية في تغريق جيش التحرير الوطني.

يعتبر الكاتب عملية التغريق تحصيل حاصل، لأن ذلك أمر طبيعي في جميع الحروب وأي نظام تأمين ووقاية من مثل هذه المخاطر لا يكون وفيا 100%.

لكن هل يمكن الاشتباه في تورط العناصر الجزائرية الفارة من الجيش الفرنسي في مثل هذه العملية؟!

هذه الفرضية يرفضها الكاتب الذي لا يستبعد مع ذلك، أن تكون المخابرات الفرنسية حاولت استخدام بعض هذه العناصر للتأثير في مسار الثورة.

غير أن المجاهد بوحارة، يعيب على الضباط الفارين من الجيش الفرنسي خاصة تحولهم مع مر السنين إلى «عصبة متميزة»! لكنه لم يقل لنا إن كان لهذه «العصبة» دور ما في إفراغ الاختيارات السياسية من محتواها الاجتماعي»!

وبخصوص دور الجيش بصفة عامة يقول الكاتب: «إن الشروط السياسية التي ضبطت إيقاع التطور العام للجزائر، جعلت الجيش منذ 1962 يضطلع بمهام غير عسكرية، ويساهم بصفة حاسمة في التوجيه السياسي لمختلف الأنظمة المتعاقبة».

وبرأيه أن هذا الدور الهام يدفعنا إلى البحث في «آليات تدخل المؤسسة العسكرية في الحقل السياسي».

ويضيف في نفس السياق: «إن وهم الدور القيادي لجبهة التحرير، يسلّط بعض الضوء على آليات ممارسة الحكم» في الجزائر. ولا يخفي الكاتب بالمناسبة، تخوفه من أن نكتشف ذات يوم بأن «دور المقرر» المنسوب للجيش لم يكن سوى مجرد وهم، تماما مثل وهمَ «الدور القيادي» لجبهة التحرير قبل عام 1989!!

(3) استقالت الهيئة في منتصف يوليو 1961.

ملحق: "الثائر".. الذي لم يكن في الموعد

- أحمد (الكابا) حدانو
- أحمد الدوّم
- عيسى كشيدة

• أحمد حـدّانـو

– ولد المناضل أحمد حدّانو (المعروف بالكابا) ببلكور في العاصمة سنة 1925. ونظرا لحالة أسرته الاجتماعية، اضطر إلى مغادرة مقاعد المدرسة الفرنسية مبكرا.

– بدأ حياته النضالية بحزب الشعب الجزائري أثناء الحرب العالمية الثانية، عبر خلايا لجنة الشبيبة التي كان يرأسها يومئذ محمد بلوزداد.

– ساهم في إعادة بناء الحزب غداة حوادث 8 مايو 1945، كعون اتصال لمحمد بلوزداد الذي انتدب لهذه المهمة على مستوى الشرق الجزائري (عمالة قسنطينة).

– التحق بفرنسا في مطلع الخمسينات، حيث تولى مسؤولية الجنوب انطلاقا من مرسيليا. ومن هذا الموقع الهام لعب دورا بارزا، في تهريب آيت أحمد وبن بلة ومهساس.

– ناضل غداة اندلاع الثورة التحريرية في صفوف اتحادية جبهة التحرير بفرنسا، إلى أن اعتقل في مطلع 1958 بباريس..

وقد نقل إلى الجزائر لمحاكمته، قبل حبسه في قسنطينة ثم في محتشد الجرف (المسيلة) فمحتشد بوسوي (سيدي بلعباس)، وأخيرا بسيدي الشحمي (وهران).

– أفرج عنه في صائفة 1960، وعاش ببلكور الأطوار الأولى لمظاهرات 11 ديسمبر من نفس السنة.

– تمكن من الهروب إلى أوربا بمساعدة عناصر الولاية الرابعة. وهناك استأنف نضاله بمصالح الجبهة لكل من ألمانيا والمغرب.

– عمل بعد الاستقلال في سلك الأمن الوطني، ثم في قطاع الصناعة، قبل أن يتفرغ لشؤونه الخاصة في أواخر الستينات من القرن الماضي.

1 – كيف شاركت في تهريب آيت أحمد وبن بلة ومهساس

أحمد حدّانو، المعروف بأحمد "الكابا" (الكعبة) من كبار المناضلين بالعاصمة.. يعتبر أحمد بودة "أب الوطنية في بلكور: كما يعتبره أباه (الروحي).

رافق "الكابا" فضلا عن بودة، مبارك فيلالي، مهساس، يوسفي، من رجالات حزب الشعب الجزائري والطلائع الثورية في الحركة الوطنية.

من إسهاماته المشاركة في «سرقة» الأسلحة إبان الحرب العالمية الثانية وتهريب حسين ايت أحمد وعلي مهساس وأحمد بن بلة إلى فرنسا سنتي 1952 و1953(*).

ولد المناضل أحمد حدانو (المشهور بأحمد الكعبة) بحي بلكور في العاصمة عام 1925. كان والده عاملا بسيطا في البناء، الأمر الذي جعله يغادر المدرسة الفرنسية في سن مبكرة، ليساهم في إعالة العائلة. وقد صادفه معلمه ذات يوم في العقيبة"[1]، وهو في حالة بائع متجول، فنظر إليه مستغربا. فما كان من الصبي إلا أن رد عليه بنظرة مماثلة معناها باختصار: «أن الدراسة ترف بالنسبة لأمثالي يا سيدي!».

ويقول أحمد "الكعبة" إن هذه الكناية انتقلت إليه من أخيه الأكبر الذي كان أول من لقب بذلك.

(*) الشروق: أعداد 7 و14 و21 أبريل 2003.

(1) العقيبة سوق شعبية مشهورة بحي بلكور (بلوزداد).

أما عن سبب انخراطه في حزب الشعب الجزائري (المحظور) إبان الحرب العالمية الثانية، فيقول إن المصادفة شاءت أن يكون جارا للمناضل أحمد بودة الذي يعتبره «أب الحركة الوطنية في بلكور». كان بودة خلال الفترة 40 – 1943 معتقلا بمحتشد جنين بورزق (عين الصفراء)، لكنه كان يعود في إجازة من حين لآخر... وكان يستغل ذلك لإجراء اتصالات ليلية بالمناضلين في قسمات شرق العاصمة من المرادية إلى الحراش، مرورا بالمدنية والقبة وحسين داي..إلخ.

وتجنبا لحملات التفتيش التي كانت تقوم بها مصالح الأمن في الليل خاصة، كان يصطحب معه في هذه الاجتماعات جاره الصغير، حتى تظن الشرطة أنه مجرد رجل رفقة ابنه كانا في زيارة عائلية.

وبهذه الطريقة ما لبث أحمد بودة أن أصبح بمثابة الأب الروحي لهذا الجار الصغير حسب قول محدثنا. فقد زكاه للالتحاق بخلية الحارة، وهي خلية كبار كان على رأسها المناضل عبد القادر رباح (عم لخضر رباح المعروف).

وفي غضون 1943 تم إنشاء لجنة شبيبة بلكور، التي كانت تتكون من قسمة خاصة بالشباب برئاسة محمد بلوزداد. وفي هذا السياق التحق المناضل الشاب أحمد بناحية تابعة لهذا التنظيم كان يترأسها تازير باشا. وقد كلفه مسؤوله المباشر بتكوين خلايا جديدة بالحارة، ما لبث أن تحولت إلى ناحية قائمة بذاتها أسندت رئاستها إليه.

في تلك الفترة أسند الحزب إلى بلوزداد مهمة خاصة: تكوين نواة أمنية لحماية كبار المسؤولين والرد في نفس الوقت على استفزازات بعض رجال الشرطة الاستعمارية.وقد أمر بلوزداد بعض العناصر النشطة في هذه النواة ومن بينها أحمد الكعبة،

باغتنام فرصة وجود قوات الحلفاء، لجمع ما أمكن من الأسلحة بمختلف الوسائل شراء أو سرقة!

وتنفيذا لهذا الأمر تمكن أحمد الكعبة وبعض رفاقه من كسب ود حارس جزائري لأحد مستودعات الأسلحة على طريق بوفاريك. وقد يسر لهم هذا الحارس سرقة كميات من الأسلحة من بينها قنابل يدوية، ساهم المناضل علي مهساس في تخزينها في البداية بمسكنه المتواضع.

وعشية مظاهرات فاتح مايو 1945، جمع بلوزداد العناصر المكلفة بتأطير المظاهرات المقرر أن تنطلق من حديقة "بروسون" (بور سعيد)، ليعطيهم التعليمات الخاصة بالمسيرة التي تنطلق من الحديقة إلى البريد المركزي عبر شارع إيزلي (بن مهيدي). ويقول محدثنا الذي حضر هذا الاجتماع: إن بلوزداد كان يلح على عدم حمل أي نوع من السلاح الأبيض أثناء المسيرة التي اصطدمت مع ذلك بقوات الأمن وسط الشارع المذكور، مما أدى إلى مقتل غزالي بلحفاف متصدر المسيرة واثنين من رفاقه هما بوعلام الله وزيار..

وعندما اندلعت حوادث 8 مايو، تلقى مناضلو بلكور أمرا بعقد اجتماعات مفتوحة على مستوى النواحي. وكانت خلايا ناحية سرفنتيس تجتمع ليلا بغابة الأقواس حسب الشاهد. وقد بقي المناضلون على هذا الحال من التأهب قرابة شهر، قبل أن يتلقوا تعليمات بالعودة إلى الحياة النظامية العادية. وكانت هذه الاجتماعات استعدادا لتعميم انتفاضة سطيف وخراطة، وقالمة.. كما فهم المناضلون بعد ذلك..

في أعقاب هذه الحوادث قامت الشرطة باعتقال مئات المناضلين، بلغ عددهم بالعاصمة وحدها ما بين 300 و 400 مناضل حسب رواية محدثنا. وكان من بين المعتقلين مسؤوله المباشر تازير باشا، كما اعتقل خلفي

المدعو مصطفى من بوسعادة. وكان لحظة اعتقاله رفقة أحمد الكعبة الذي أصبح بدوره طريدا...

في اليوم الموالي التقى هذا الأخير بمحمد بلوزداد بالشارع الذي يحمل إسمه اليوم، وكان ما يزال يعمل بالولاية العامة، فأخبره بما حدث لمصطفى فابتسم قائلا:

«ماذا تريدنا أن نفعل؟! فليس للحزب إمكانية إيواء كل طريد! فما عليك إلا أن تعول على نفسك!»

من تلك اللحظة أصبح المناضل الطريد يتجنب قضاء الليل بمنزله.. ويقول في هذه الصدد: "صرنا نلتقي بالقصبة من حين لآخر، حيث وضع الحزب تحت تصرفنا شقتين، وكان من الذين يترددون على هذا المكان بلوزداد، منجي زين العابدين، الطاهر، الزهرة...إلخ".

وفي صائفة 1945 تم تعيين بلوزداد على رأس عمالة قسنطينة، وأحمد يوسفي على رأس عمالة وهران وكلاهما من شباب بلكور. وفي نفس السياق كلف أحمد الكعبة بضمان الاتصال بين العاصمة وقسنطينة، وأحيانا بينهما ووهران. وكان يرافقه في هذه المهمة بين الفينة والأخرى زين العابدين وعبد القادر بودة. ومنذ تلك الفترة أصبح محدثنا مناضلا دائما، مقابل منحة شهرية زهيدة.. وما لبث أن وقع عليه الاختيار للعمل بمطبعة الحزب السرية (في الحراش) التي كان يشرف على إدارتها مبارك فيلالي. وقدمكث بها قرابة العامين إلى أن وقع عليه القبض بعد حادثة غابة الأقواس. وقعت هذه الحادثة ذات ليلة عندما كان محدثنا يحمل كيسا من المنشورات السرية، لتسليمه إلى مناضل كان على موعد معه في الغابة المذكورة. وتشاء الصدف أن يلتقي وجها لوجه مع اثنين من رجال الأمن. وقد أوقفاه وطلبا إليه بإلحاح أن يكشف لهما

عما في الكيس فما كان منه أمام إصرارهما، إلا أن فرّ تاركا لهما الكيس بما فيه! إذ رمى بنفسه من على فج صغير بالغابة مما مكنه من النجاة بالنفس تحت جنح الليل، رغم إطلاق النار عليه. وقد ظلت الشرطة تقتفي أثره عقب هذه الحادثة إلى أن تمكنت منه كما سبقت الإشارة.

في البداية ظنت الشرطة أن للرجل علاقة بثوار جرجرة، بعد أن ألقت القبض في تلك الفترة على مناضل ومعه رصاصات من عيار 9 مم. وكان هذا المناضل عائدا فعلا إلى العاصمة بعد اتصال بكريم ورفاقه، في أمر يتعلق بصفقة أسلحة وذخيرة.

وعلى هذا الأساس سجن وعذب بتيزي وزو.. لكن أمام انعدام القرائن واحتجاجاته المتكررة على حبسه هناك، نقل إلى العاصمة حيث استفاد من الإفراج المؤقت. ولما مثل أمام المحكمة برّأت ساحته.

وبعد تبرئة ساحته فضلت إدارة الحزب تسفيره إلى فرنسا لمواصلة النضال في صفوف الاتحادية التي كان يرأسها في مطلع الخمسينيات المناضل امحمد يزيد. وقد أسندت إليه رئاسة ولاية جنوب فرنسا ومقرها مرسيليا...

ذات يوم كان الشاهد رفقة يزيد بمقر الاتحادية في باريس.. فرن الهاتف بالمناسبة فرفع السماعة فإذا بالحاج مصالي على الخط. ولما سلم السماعة إلى رئيس الاتحادية، لاحظ تغير سحنته ففضل مغادرة المكتب. وقد عرف فيما بعد، أن رئيس الحزب كان يهتف من سويسرا التي نزل بها عائدا من القاهرة.

وقال له يزيد في هذا الصدد بنوع من الاستغراب "هاهو قد رجع!" ثم سارع بإبلاغ إدارة الحزب بالجزائر وكأن الأمر يتعلق بطارئ هام. كان ذلك في مطلع 1952. وفي مايو من نفس السنة، نفى مصالي من الجزائر

هذه المرة إلى فرنسا بعد حادثة الأصنام[2] وقد وضع تحت الإقامة الجبرية بمدينة نيور غرب فرنسا.

وذات يوم، بينما أحمد الكعبة يقوم بالنضال اليومي انطلاقا من مرسيليا، زاره مبارك فيلالي في أمر خاص بطلب من إدارة الحزب بالعاصمة، يقتضي التنقل إلى الجزائر فورا... تمنع في البداية إلى أن اتصل به الأمين العام شخصيا بن يوسف بن خدة وكان يكن له احتراما كبيرا.

ولما عاد إلى العاصمة، عرف أن المهمة تتمثل في تهريب حسين آيت احمد. وقد طلب إليه بن خدة أن يحتفظ بسر هذا الأمر لنفسه.. وقبل تنفيذ المهمة قام بزيارة العائلة في شارع سرفنتيس، وهناك صادف المناضل أحمد بودة وكان على علم بالأمر، فأوصاه بالحرص على المناضل المنتظر تهريبه أكثر من حرصه على بؤبؤ عينيه!

ومرد هذه الوصية أن دعاة الحركة البربرية كانوا يروجون يومئذ لدعـاية، تتهـم إدارة الحـزب بتبليغ الشرطـة بأمر واعلي بناي الذي اعتقل بوهران، وهو بصدد ركوب السفينة إلى مرسيليا بمساعدة مناضلي المدينة.

وكانت إدارة الحزب لذلك حريصة على تكذيب هذه الدعاية، في إطار مساعيها الرامية إلى تبديد سوء التفاهم الناجم عن الأزمة البربرية عامي 1949 و1950.

ويذكر المناضل أحمد الكعبة في هذا الصدد أن بودة قال له: «أن القبائل في الحزب مثل الملح في الطعام»!

(2) كان مصالي يعتزم القيام بجولة إلى غرب البلاد، لكن الجولة توقفت بالأصنام بعد تعمد قوات الأمن إطلاق النار على المناضلين والمتعاطفين الذين هبوا لاستقباله.. وقد اختطف مصالي خطفا، ونقل بطائرة خاصة من بوفاريك إلى فرنسا مباشرة.

وقد تم أداء المهمة على أحسن وجه بفضل مساعدة كورسيكي من طاقم السفينة، كان فيلالي قد رتب معه الأمر من مرسيليا.

وقام مسؤول جنوب فرنسا بعد ذلك بمهمتين مماثلتين لتهريب كل من مهساس، وبن بلة اللذين فرا من سجن البليدة في ربيع 1952.

وبعد قرابة السنة حاولت إدارة اتحادية فرنسا بأمر من قيادة العاصمة تهريب الحاج مصالي من نيور إلى القاهرة عبر إسبانيا إثر اتفاق مسبق معه. وقد انتدب أحمد الكعبة للمشاركة في هذه العملية وتم استدعاؤه إلى باريس وتبليغه بالأمر.. وكانت مهمته تتمثل في تحييد الشرطيين المكلفين بحراسة مصالي بكيفية أو بأخرى.

عاد المعني إلى مرسيليا ليواصل مهامه النضالية المألوفة ريثما يتلقى الإشارة الخضراء المنتظرة. وذات يوم بدا له أن يذهب إلى باريس فوجد المناضل الهاشمي سائق مصالي بالعاصمة والذي انتدب بدوره للمشاركة في العملية. وجده غاضبا لأنه أمضى قرابة شهر بفرنسا بدون جدوى يتأهب للعودة من حيث أتى، بعد أن ألغيت المهمة عقب رفض مصالي المغامرة مرة أخرى.

وحسب الشاهد أن بن بلة يكون رتب الأمور بمساعدة قيادة حزب الاستقلال لتهريب الحاج مصالي من الحدود الإسبانية إلى الشواطئ، ومن ثمة تسفيره إلى القاهرة على متن إحدى السفن.

ويذكر أحمد الكعبة في هذا الصدد أنه قابل بن خدة قبل أشهر معدودة من وفاته، فوجده ما يزال يتساءل عن سبب رفض مصالي.!

ويشتبه بن خدة في أن يكون للعناصر التروتسكية من أصدقاء مصالي، دور في ثنيه عن الهروب إلى القاهرة التي كانت يومئذ قبلة الثوار المغاربة بدءا بالأمير عبد الكريم الخطابي.

هذه المرة إلى فرنسا بعد حادثة الأصنام[2] وقد وضع تحت الإقامة الجبرية بمدينة نيور غرب فرنسا.

وذات يوم، بينما أحمد الكعبة يقوم بالنضال اليومي انطلاقا من مرسيليا، زاره مبارك فيلالي في أمر خاص بطلب من إدارة الحزب بالعاصمة، يقتضي التنقل إلى الجزائر فورا... تمنع في البداية إلى أن اتصل به الأمين العام شخصيا بن يوسف بن خدة وكان يكن له احتراما كبيرا.

ولما عاد إلى العاصمة، عرف أن المهمة تتمثل في تهريب حسين آيت احمد. وقد طلب إليه بن خدة أن يحتفظ بسر هذا الأمر لنفسه.. وقبل تنفيذ المهمة قام بزيارة العائلة في شارع سرفنتيس، وهناك صادف المناضل أحمد بودة وكان على علم بالأمر، فأوصاه بالحرص على المناضل المنتظر تهريبه أكثر من حرصه على بؤبؤ عينيه!

ومرد هذه الوصية أن دعاة الحركة البربرية كانوا يروجون يومئذ لدعاية، تتهم إدارة الحزب بتبليغ الشرطة بأمر واعلي بناي الذي اعتقل بوهران، وهو بصدد ركوب السفينة إلى مرسيليا بمساعدة مناضلي المدينة.

وكانت إدارة الحزب لذلك حريصة على تكذيب هذه الدعاية، في إطار مساعيها الرامية إلى تبديد سوء التفاهم الناجم عن الأزمة البربرية عامي 1949 و1950.

ويذكر المناضل أحمد الكعبة في هذا الصدد أن بودة قال له: «أن القبائل في الحزب مثل الملح في الطعام»!

---

(2) كان مصالي يعتزم القيام بجولة إلى غرب البلاد، لكن الجولة توقفت بالأصنام بعد تعمد قوات الأمن إطلاق النار على المناضلين والمتعاطفين الذين هبوا لاستقباله.. وقد اختطف مصالي خطفا، ونقل بطائرة خاصة من بوفاريك إلى فرنسا مباشرة.

وقد تم أداء المهمة على أحسن وجه بفضل مساعدة كورسيكي من طاقم السفينة، كان فيلالي قد رتب معه الأمر من مرسيليا.

وقام مسؤول جنوب فرنسا بعد ذلك بمهمتين مماثلتين لتهريب كل من مهساس، وبن بلة اللذين فرا من سجن البليدة في ربيع 1952.

وبعد قرابة السنة حاولت إدارة اتحادية فرنسا بأمر من قيادة العاصمة تهريب الحاج مصالي من نيور إلى القاهرة عبر إسبانيا إثر اتفاق مسبق معه. وقد انتدب أحمد الكعبة للمشاركة في هذه العملية وتم استدعاؤه إلى باريس وتبليغه بالأمر.. وكانت مهمته تتمثل في تحييد الشرطيين المكلفين بحراسة مصالي بكيفية أو بأخرى.

عاد المعني إلى مرسيليا ليواصل مهامه النضالية المألوفة ريثما يتلقى الإشارة الخضراء المنتظرة. وذات يوم بدا له أن يذهب إلى باريس فوجد المناضل الهاشمي سائق مصالي بالعاصمة والذي انتدب بدوره للمشاركة في العملية. وجده غاضبا لأنه أمضى قرابة شهر بفرنسا بدون جدوى يتأهب للعودة من حيث أتى، بعد أن ألغيت المهمة عقب رفض مصالي المغامرة مرة أخرى.

وحسب الشاهد أن بن بلة يكون رتب الأمور بمساعدة قيادة حزب الاستقلال لتهريب الحاج مصالي من الحدود الإسبانية إلى الشواطئ، ومن ثمة تسفيره إلى القاهرة على متن إحدى السفن.

ويذكر أحمد الكعبة في هذا الصدد أنه قابل بن خدة قبل أشهر معدودة من وفاته، فوجده ما يزال يتساءل عن سبب رفض مصالي.! ويشتبه بن خدة في أن يكون للعناصر التروتسكية من أصدقاء مصالي، دور في ثنيه عن الهروب إلى القاهرة التي كانت يومئذ قبلة الثوار المغاربة بدءا بالأمير عبد الكريم الخطابي.

2 – «الثـــوار... يبدأون أقلية وينتهون أقلية»!

في مطلع 1953 استقر المناضل أحمد حدّانو (المشهور بأحمد الكعبة) بباريس، حيث أصبح عاملا بأحد المصانع، وكان قبل ذلك قد استقال من المسؤولية على منطقة جنوب فرنسا في اتحادية حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

ويفسر هذه الاستقالة بـ "أزمة الشك" التي انتابته، فيما يخص أهداف الحزب وأساليب عمله، وتزامن ذلك مع خصومة عارضة مع مسؤول النظام الجديد المناضل محمد بوضياف الذي هرب إلى فرنسا في أواخر 1952.

غير أن ذلك لم يمنع المناضل أحمد الكعبة من مواصلة نشاطه كمناضل بالقاعدة، على أهبة الاستعداد الدائم للقيام بأية مهمة يكلف بها.

وكان لذلك كثير التردد على مقر الإتحادية بسان ميشال، حيث كان يلتقي بصفة خاصة المناضل مراد ديدوش مساعد بوضياف ورفيقه الدائم.

وفي بداية 1954 بدأت "أزمة القيادة" بين زعيم الحزب الحاج مصالي واللجنة المركزية وأمينها العام، تخرج إلى الشارع لتصبح في متناول عامة المناضلين.

وبحكم علاقة أحمد الكعبة بعدد من العناصر القيادية في اتحادية فرنسا، فقد أخذت أنباء هذه الأزمة تتسرب إليه. وكان قبل ذلك قد علم بمحاولة الوساطة التي كلف بها بن بولعيد رفقة القايد أمعيزة لدى زعيم الحزب المحكوم عليه بالإقامة الجبرية في مدينة نيور غرب فرنسا، ولم تكن نتيجتها مشجعة. فقد كان جواب الزعيم حول مسألة بعث المنظمة

الخاصة، لتعمل من جديد على التحضير للثورة المسلحة: «اتركوا هذا الشأن لي!».

وبعد أن تمكن زعيم الحزب وأنصاره من إثارة القاعدة على اللجنة المركزية، تحركت قيادة الاتحادية في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ويذكر الشاهد في هذا السياق مهمتين:

- الأولى قام بها أحمد محساس بجنوب شرق فرنسا، وقد أصر على اصطحاب أحمد الكعبة بحكم معرفته السابقة بالمنطقة ومناضليها.

وحسب هذا الأخير، أن محساس كان حذرا في تحميل مصالي جزءا من المسؤولية في الأزمة القائمة، مفضلا التركيز على الرغبة الصادقة في الحفاظ على نظام الحزب – والإتحادية – من الإنهيار.

ويبدو أن محدثنا كان أقل حذرا، فقد وضع الزعيم واللجنة المركزية في سلة واحدة! وقد رد عليه أحد مسؤولي المنطقة قائلا: «إنني لم أعد أفهم شيئا! لقد كنتم طوال الفترة السابقة لا تذكرون الزعيم إلا بالخير! وها أنتم اليوم تقولون عكس ذلك!». وكان محساس مقنعا في الرد على شكوك المناضلين واستفساراتهم، بالنظر إلى اطلاعه على خبايا الأزمة وأطوارها.

- المهمة الثانية قام بها أحمد بودة بشمال فرنسا، وقد اصطحب معه محمد بوضياف مسؤول التنظيم بالاتحادية.

ويقول بوضياف عن هذه المهمة حسب رواية الكعبة: «إنه كان طوال الطريق نحو شمال فرنسا ينبه بودة بضرورة توخي الحذر! لكن هذا الأخير ما أن دخل القاعة بمدينة ليل – وكانت مكتظة بالمناضلين وأغلبيتهم من أنصار مصالي – حتى تخلى عن كل حذر أو تحفظ في

انتقاد الزعيم، وكانت النتيجة أن ثارت القاعة عليهما ولولا تدخل مناضل من بلكور لإنقاذ الموقف لكانت العاقبة وخيمة!».

ويعلق أحمد الكعبة – الذي تربطه ببودة علاقات وطيدة – على ذلك بقوله« إن بودة كان يقدس مصالي، لكنه ارتد عليه بعنف بعد أن خاب ظنه فيه».

وذات يوم لقي محدثنا مراد ديدوش بمقر الاتحادية، فوجده غاضبا على اللجنة المركزية، مؤكدا قناعته بأن لا أمل يرجى من أعضائها الذين لا يستحقون – في نظره – ثقة القاعدة! وهنا سأله: وهل رأيتم "سيدي الحاج"؟ فأجاب ديدوش لم نفعل بعد. فنصح بالاستماع إليه أسوة باللجنة المركزية.

وصادف أن التحق بهما في تلك اللحظة بوضياف، فأخبره ديدوش بخلاصة الحوار، فأبدى موافقته على الفكرة وتم الاتصال فعلا بالزعيم[3] الذي رد بطريقته المألوفة: «اتركوا هذا الشأن لي»!

وحسب الكعبة أن ديدوش مراد لم يخف خيبته لهذا الجواب في لقاء لاحق معه وأنه أقسم أمامه: «لو أن الحاج استمع إلينا لما كنا بحاجة قط إلى المركزيين»!

وفي ربيع 1954 كلف المناضل الكعبة بمهمة خاصة: "تسيير مطعم الاتحادية خلال شهر رمضان. وكان من الذين يترددون على المطعم للإفطار ديدوش والطبيب بولحروف[4] ونظرا لعلاقته الخاصة بهما، فقد كانا يطلبان إليه أن يحتفظ لهما بقليل من الكسكس والرايب للسحور!

(3) الاتصال تم بواسطة فيلالي حسب رواية بوضياف.

(4) طالع شهادة بولحروف في كتابنا: «رواد الوطنية»، منشورات دحلب 1992.

وذات ليلة انتظر المسيّر صاحبيه كالعادة، لكن لم يأت أحد منهما فاضطر إلى إغلاق المطعم والعودة إلى غرفته المتواضعة بحي مونبرناس. وبعد دقائق معدودة، سمع طرقا بالباب، فإذا هو المناضل المسؤول حسين (زين العابدين) المنجي، وكان ملطخا بالدماء! وروى له كيف تعرض، وكان مرفوقا بالمناضل النقابي حمر العين، لاعتداء العناصر الموالية لمصالي عليهما.. وقد أصيب هذا الأخير بجروح نقل على إثرها إلى المستشفى!

وفي صباح الغد توجه محدثنا غاضبا إلى مقر الاتحادية، فصادف هناك الدكتور باسطة ومعه بعض أنصار مصالي، فعتب عليهم ما قاموا به من تحريض للمناضلين على بعض المسؤولين وترك لهم مفاتيح المطعم متوقعا لهم عاقبة وخيمة!

وهكذا تم طلاق هذا المناضل مع أنصار مصالي.

في مثل هذه الأجواء المكهربة عاد ديدوش إلى الجزائر وانقطعت أخباره عن رفاقه بفرنسا.

وعقب ذلك، تم تأسيس "اللجنة الثورية للوحدة والعمل". وقد علم الكعبة بذلك عن طريق المناضل الكبير عبد الله فيلالي (من المقربين إلى مصالي) الذي قال له بنوع من التهكم «إنها من صنع أصدقائك والمركزيين!» وكان رده قريبا من التهكم والمزاح؟! وهل الأفضل لهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي أمام الأزمة وانعكاساتها على نظام الحزب كله؟!».

وفي منتصف يوليو، ظهر ديدوش بباريس من جديد حيث اجتمع بالمناضل الكعبة وبعض رفاقه، ليخبرهم بقرار إعلان الثورة ودعوتهم إلى الانضمام لمسيرة التحرير الوطني في نفس الوقت. وسأله الكعبة عن الرجال والسلاح، فأجاب: «الرجال قليل، والأسلحة كما تعرف، وقد أضفنا إليها شيئا قليلا».

وبدا للكعبة أن يسأل عن الاستقلال ومكانة الثوار الأوائل فيه! فرد عليه ديدوش: «نبدأ أقلية! وننتهي أقلية! وهذا هو الثمن..! ومن يحاول أن يفهم بعد الاستقلال فسيكون مصيره سركاجي في أحسن الأحوال!» ثم قال مودعا: «إني عائد إلى الفندق.. فإذا وجدت برقية فسأعود إلى الجزائر فورا.. وفي هذه الحالة سيتصل بكم نيابة عني المناضل ماضي الذي تعرفونه..».

اتصل ماضي بالكعبة وحسين المنجي فعلا وأخذوا يهيئون أنفسهم لليوم الموعود.

واندلعت الثورة في الفاتح نوفمبر، وبدأت الدعوة لها، ولم تكن سهلة حتى مع أولئك الذين أصبحوا بعد ذلك قادة بارزين فيها![5].

وبعد فترة وجيزة، اتصل بوضياف شخصيا بهذه المجموعة من لوكسمبورغ، بواسطة المناضل مراد طربوش الذي جاء يحمل قليلا من المال لتأسيس اتحادية الجبهة بفرنسا.

ويقول محدثنا في هذا الصدد: «بدأنا العمل بجمع الاشتراكات وتوسيع نظام الجبهة شيئا فشيئا.. وما لبث أن اعتقل طربوش ثم اعتقل بعده خلفه فضيل بن سالم.. وتوالت الاعتقالات ونجا الكعبة ومجموعته إلى حين بفضل توخي الحذر الشديد بصفة خاصة وما يقتضيه من تجنب الظهور بالأماكن العمومية المعروفة بباريس.

ويروي في هذا الصدد أنه تقابل ذات يوم بساحة "لوبيرا" وجها لوجه مع المناضلين الحاج شرشالي والجيلالي مبارك، فتعمد تجنبهما وقد غضب لذلك الحاج شرشالي واشتكاه إلى بعض أصدقائه.. وقد التقى به ثانية بالميترو فجلس إليه وشرح له الأمر فوجد لديه قبولا حسنا..

(5) يذكر الشاهد من بين هؤلاء: بولحروف وعمر بوداود!

وفي فبراير 1957 اعتقل الوانشي ولبجاوي من مسؤولي الاتحادية الذين أرسلهم عبان من الجزائر.. فعرفت الاتحادية بعض الفراغ دام بضعة أشهر.

بعد ذلك، عين المناضل عمر بوداود على رأس الاتحادية، وكان يعرف المناضل الكعبة فطلبه للعمل معه.. وقد عبر له بالمناسبة عن ارتياحه، مقدرا أن الاتحادية ستشهد تطورا حقيقيا في عهده..

وقد كلف محدثنا في البداية بمصلحة الإمداد، قبل التكفل بتأسيس الأفواج الفدائية، وكان يعمل يومئذ مباشرة مع عضو مكتب الاتحادية عبد الكريم السويسي. وبعد اعتقال هذا الأخير، واصل العمل مع صديقه حسين المنجي، إلى أن وقع عليهما القبض في مطلع 1958.

وكان رئيس الاتحادية قد أمرهما قبل ذلك بمغادرة فرنسا، استنادا إلى معلومات تؤكد اشتباه الأمن الفرنسي فيهما.. وبينما كان المناضلان يعدان العدة لمغادرة التراب الفرنسي وقع اعتقالهما بعد أسر مناضل كان على صلة مباشرة بالكعبة.

كانت العدالة الباريسية ترشح الكعبة ورفيقيه للإبعاد نحو الجزائر العاصمة للمثول أمام محكمتها العسكرية. لكن هيئة الدفاع اعترضت على ذلك، بعد أن بلغها "اختفاء" عدد من المبعدين بهذا الاتجاه. وكانت نتيجة ذلك تحويل وجهة الثلاثة إلى قسنطينة لتلصق بهم تهمة التورط في قضية المدعو بوماليت، وهو مهرب أسلحة بالمنطقة لم يسبق أن سمعوا به!

كان ملف أحمد حدانو أبيض حسب محدثنا، حتى أن قاضي التحقيق بباريس طلب منه أن يعترف أمامه بأي شيء حتى يتسنى له إبقاءه بفرنسا!

لذا! استطاع إقناع قاضي التحقيق العسكري بقسنطينة بأنه رجل سياسة ولا علاقة له البتة بـ "العمل التخريبي"! ولما سأله القاضي: «أن

وبدا للكعبة أن يسأل عن الاستقلال ومكانة الثوار الأوائل فيه! فرد عليه ديدوش: «نبدأ أقلية! وننتهي أقلية! وهذا هو الثمن..! ومن يحاول أن يفهم بعد الاستقلال فسيكون مصيره سركاجي في أحسن الأحوال!» ثم قال مودعا: «إني عائد إلى الفندق.. فإذا وجدت برقية فسأعود إلى الجزائر فورا.. وفي هذه الحالة سيتصل بكم نيابة عني المناضل ماضي الذي تعرفونه..».

اتصل ماضي بالكعبة وحسين المنجي فعلا وأخذوا يهيئون أنفسهم لليوم الموعود.

واندلعت الثورة في الفاتح نوفمبر، وبدأت الدعوة لها، ولم تكن سهلة حتى مع أولئك الذين أصبحوا بعد ذلك قادة بارزين فيها![5].

وبعد فترة وجيزة، اتصل بوضياف شخصيا بهذه المجموعة من لوكسمبورغ، بواسطة المناضل مراد طربوش الذي جاء يحمل قليلا من المال لتأسيس اتحادية الجبهة بفرنسا.

ويقول محدثنا في هذا الصدد: «بدأنا العمل بجمع الاشتراكات وتوسيع نظام الجبهة شيئا فشيئا.. وما لبث أن اعتقل طربوش ثم اعتقل بعده خلفه فضيل بن سالم.. وتوالت الاعتقالات ونجا الكعبة ومجموعته إلى حين بفضل توخي الحذر الشديد بصفة خاصة وما يقتضيه من تجنب الظهور بالأماكن العمومية المعروفة بباريس.

ويروي في هذا الصدد أنه تقابل ذات يوم بساحة "لوبيرا" وجها لوجه مع المناضلين الحاج شرشالي والجيلالي مبارك، فتعمد تجنبهما وقد غضب لذلك الحاج شرشالي واشتكاه إلى بعض أصدقائه.. وقد التقى به ثانية بالميترو فجلس إليه وشرح له الأمر فوجد لديه قبولا حسنا..

(5) يذكر الشاهد من بين هؤلاء: بولحروف وعمر بوداود!

وفي فبراير 1957 اعتقل الوانشي ولبجاوي من مسؤولي الاتحادية الذين أرسلهم عبان من الجزائر.. فعرفت الاتحادية بعض الفراغ دام بضعة أشهر.

بعد ذلك، عين المناضل عمر بوداود على رأس الاتحادية، وكان يعرف المناضل الكعبة فطلبه للعمل معه.. وقد عبر له بالمناسبة عن ارتياحه، مقدرا أن الاتحادية ستشهد تطورا حقيقيا في عهده..

وقد كلف محدثنا في البداية بمصلحة الإمداد، قبل التكفل بتأسيس الأفواج الفدائية، وكان يعمل يومئذ مباشرة مع عضو مكتب الاتحادية عبد الكريم السويسي. وبعد اعتقال هذا الأخير، واصل العمل مع صديقه حسين المنجي، إلى أن وقع عليهما القبض في مطلع 1958.

وكان رئيس الاتحادية قد أمرهما قبل ذلك بمغادرة فرنسا، استنادا إلى معلومات تؤكد اشتباه الأمن الفرنسي فيهما.. وبينما كان المناضلان يعدان العدة لمغادرة التراب الفرنسي وقع اعتقالهما بعد أسر مناضل كان على صلة مباشرة بالكعبة.

كانت العدالة الباريسية ترشح الكعبة ورفيقيه للإبعاد نحو الجزائر العاصمة للمثول أمام محكمتها العسكرية. لكن هيئة الدفاع اعترضت على ذلك، بعد أن بلغها "اختفاء" عدد من المبعدين بهذا الاتجاه. وكانت نتيجة ذلك تحويل وجهة الثلاثة إلى قسنطينة لتلصق بهم تهمة التورط في قضية المدعو بوماليت، وهو مهرب أسلحة بالمنطقة لم يسبق أن سمعوا به!

كان ملف أحمد حدانو أبيض حسب محدثنا، حتى أن قاضي التحقيق بباريس طلب منه أن يعترف أمامه بأي شيء حتى يتسنى له إبقاءه بفرنسا!

لذا! استطاع إقناع قاضي التحقيق العسكري بقسنطينة بأنه رجل سياسة ولا علاقة له البتّة بـ "العمل التخريبي"! ولما سأله القاضي: «أن

الشرطة بالجزائر تعتبرك من كبار المناهضين لفرنسا»! انبرى أحد المحامين مستظهرا أمامه بعريضة تحمل 1800 توقيع ـ فضلا عن توقيع المديرية ـ من عمال وعائلات الشركة التي كان يعمل بها!

ومع ذلك، فضل قاضي التحقيق العسكري إرساله إلى محتشد الجرف (المسيلة)، لأن الإفراج عنه بقسنطينة يعني اغتياله بكل تأكيد.

وبهذا المحتشد المنكود، انضم إلى اللجنة السرية. أي القيادة الفعلية مقارنة باللجنة العلنية المكلفة بالاتصال مع الإدارة.. لكن بعد بضعة أشهر وقع حادث تمثل في إطلاق النار من قبل الحرس على بعض المعتقلين، مما أسفر عن مقتل واحد وإصابة آخرين بجروح.

وكان من مضاعفات هذا الحادث اكتشاف أمر اللجنة السرية وتفريق أعضائها. وبناء على ذلك وجد الشاهد نفسه في محتشد بوسوي (سيدي بلعباس)، رفقة عضو ثان يدعى عليلات.

مكث بهذا المحتشد حتى مطلع 1960، حين تم نقله إلى محتشد سيدي الشحمي بوهران. وهنا أيضا فوجئ العقيد المسؤول بملفه "الأبيض" فسأله: «ماذا أنت فاعل هنا؟!»

فقدم له نفس الرواية: «اعتقلت بإحدى مقاهي باريس في عملية تفتيش عادية، وما دريت حتى وجدت نفسي في محتشدات الجزائر»!

ومع ذلك بقي في المحتشد الوهراني ثمانية أشهر كاملة ولم يفرج عنه إلا في صائفة 1960

*

3 – كيف انطلقت.... شرارة 11 ديسمبر 1960؟

في صائفة 1960 عاد المناضل أحمد حدانو – المعروف بأحمد الكعبة – من سجن سيدي الشحمي (وهران) إلى حي بلكور ليحاول استئناف حياته الطبيعية، وهو مثقل بتبعات النضال والسجون. ومن هذه التبعات، أنه كان مطالبا بالتردد يوميا على مركز الشرطة لتسجيل حضوره.

وعلم النقيب برنار مسؤول المصالح الإدارية الحضرية ("صاص" المدن) بالحي، فاستدعاه لتذكيره بأنه مطالب بتسجيل نفسه مثل بقية المعتقلين السابقين، لدى مصالحه والإشعار اليومي بحضوره أيضا.

وذات يوم استدعى النقيب برنار هؤلاء المعتقلين لاجتماع عام بملعب آيت سعادة، وكانت المفاجأة الاستماع إلى خطاب فارين من مصالح الحكومة المؤقتة من تونس وهما المدعوان كوارة[6] ومخناش.

وقد اجتهد الفاران أمام المعتقلين السابقين في تقديم صورة سلبية جدا عن الحكومة المؤقتة وما يجري بداخلها، معتمدين في ذلك على مزيج من الحقائق والمبالغات!

ويقول أحمد الكعبة في هذا الصدد: «عندما كنا بداخل الملعب سألني سجين سابق يدعى محمد خاوة عن حقيقة ما أدلى به الفاران، فأجبته:

(6) الأصح كوالة، وكان من المقربين لبلقاسم كريم، وفر من تونس إلى عنابة على متن سيارة دبلوماسية.

كذب مئة بالمئة! لكن لما غادرنا الملعب راجعت هذه النسبة في اتجاه معاكس قائلا: «إن شهادة الرجلين صحيحة بنسبة 90%».

ولم يمض وقت طويل حتى قضى فدائيو بلكور على هذين الخائنين حسب شهادة محدثنا.

وعن مظاهرات 11 ديسمبر 1960 التي انطلقت بالعاصمة من هذا الحي بالذات يقول الشاهد: إن الشرارة انطلقت أمام "المونوبري" بسبب استفزاز إثنين من الأوربيين لمتقاعدين يحظيان بسمعة طيبة في الحي.. وقد تدخل بعض الشباب لنصرة المتقاعدين، مما دفع أحد الأوربيين إلى إشهار سلاحه..

وردا على ذلك، قام الشبان بافتكاك هذا السلاح منه واصطحابه وصاحبه عنوة إلى مركز "لاصاص" حيث سلموهما إلى النقيب برنار وقد استغل هذا الأخير تجمهر الشباب فقام بتحريضهم مباشرة وبواسطة بعض عناصره من "الحركة" على الهتاف بحياة دوغول و"الجزائر الجزائرية"!

وفي رد عفوي على ذلك، تعالى الهتاف بحياة الجزائر المسلمة، ثم بحياة جبهة التحرير والحكومة الموقتة، فضلا عن حياة فرحات عباس، وبن بلة، واستقلال الجزائر!

وفي اليوم الموالي، تدخلت عناصر الولاية الرابعة وفي مقدمتها النقيبان بوعلام روشاي وخير الدين، لتأطير المظاهرات التي اتخذت بذلك أبعادا أخرى، لا سيما بعد أن انتشرت عبر أهم مدن البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. وكان لظهور العلم الوطني بصفة جماهيرية ـ

لأول مرة منذ حوادث 8 مايو 1945 ـ وقعا خاصا على الآلاف المؤلفة من الجزائريين الذي تصدوا بصدور عارية لكل أشكال الاستفزاز والقمع [7].

كان المناضل أحمد الكعبة آنذاك على صلة بممثلي الولاية الرابعة، وعندما اشتدت معارضة المستوطنين لسياسة الجنرال دوغول في الجزائر وشرع المتطرفون منهم في تصفية المناضلين، شعر بالخطر على نفسه، فطلب إليهم أن يضموه إلى صفوفهم أو يساعدوه على مغادرة البلاد.

بلغ ذلك قائد الولاية بالنيابة، الرائد سي محمد بونعامة، فكلفه بمرافقة عون الاتصال المدعو الهواري الذي كان يتأهب للسفر إلى لوزان في مهمة لدى ممثلي الحكومة المؤقتة هناك.

كان الأمر يستوجب الحصول المسبق على رخصة مرور، وقد وجدت خلية الجبهة المكلفة بتأمين ذلك بعض الصعوبة، لأن المكلف بالأمر بالولاية اكتشف أن اسم المناضل أحمد الكعبة مايزال مسجلا ضمن قائمة المناضلين الجاري البحث عنهم منذ فاتح نوفمبر 1954 على أساس عضويته السابقة في حركة انتصار الحريات الديمقراطية المحظورة.

لذا، بعد أن حصل على الرخصة، طلب إليه ابتلاعها فورا، إذا ما اكتشف أمره عند ركوب السفينة.! وقد مرت عملية الركوب بسلام، لأن صاحبنا جاء في آخر لحظة بهندام أوربي وهو يحمل تذكرة من الدرجة الأولى، فلم يعط بذلك شرطة الحدود فرصة كافية للتحري المعمق!

ومن مرسيليا التحق المناضلان بإيفيان ومنها إلى لوزان السويسرية بعد أن ساعدهما المناضل محي الدين طلبة على عبور بحيرة ليمان الشهيرة.

وبلوزان ودع أحمد الكعبة رفيقه الهواري واتجه إلى كولونيا بألمانيا الإتحادية، حيث التقى مجددا برفاقه في قيادة اتحادية الجبهة، أمثال

(7) تذكر المصادر الرسمية الفرنسية أن هذه المظاهرات خلفت بالعاصمة وحدها أكثر من 60 قتيلا، وهو عدد دون العدد الحقيقي بكثير حسب شهود العيان.

بوداود والمنجي والعدلاني... فضلا عن ممثل الحكومة المؤقتة حفيظ كرمان الذي تكفل به هناك.

عمل الوافد الجديد بعض الوقت بمصلحة الاتصال ما بين أوربا وتونس، المكلفة بتسهيل مهمة المناضلين الراغبين في الالتحاق بالثورة.. وغداة وقف القتال التحق بالمغرب حيث عمل مؤقتا إلى جانب فضيل بن سالم، صديقه السابق في اتحادية فرنسا. لكن العمل في تنظيم جبهة التحرير هناك لم يكن يستهويه كثيرا، لذا سارع بتلبية طلب المناضل امحمد يوسفي الذي دعاه لمساعدته في إدخال العتاد الموجود بألمانيا الاتحادية إلى الجزائر.

وقبل عودته إلى ألمانيا، رافق صديقه يوسفي إلى موعد مع بوصوف بفندق برج حسن في الدار البيضاء. وهناك فضل أن ينتظر صديقه في بهو الفندق حيث كان بوصوف يجلس مع المناضل جلول من حمر العين على مسافة أكثر من 50 مترا.

وبينما هو جالس ينتظر صاحبه، فوجئ ببوصوف يناديه، ولما اقترب منه، سأله ألم تعرفني؟ فأجابه: بلى! من لا يعرف بوصوف لا يعرف الثورة. وهنا قال بوصوف: أما أنا فقد عرفتك فأنت أحمد الكعبة!

وذكّره بأنه كان يلتقي به في العاصمة قبل الثورة، في محل مناضل خياط يدعى بوسنة بالقصبة السفلى بجوار مقهى المطرب الكبير العنقة. وعندما كان الكعبة يحاول تذكره أردف قائلا: «نعم أنا هو ذلك النحيف القبيح صاحب النظارة السميكة»!

—ويعلق محدثنا على ذلك: «لقد أصبح بوصوف شخصا آخر تماما»!

بقي محدثنا بألمانيا الاتحادية حتى غداة الاستقلال. ويذكر في هذا السياق قرارا من الحكومة المؤقتة حزّ في نفسه كثيرا، ينصّ هذا القرار

على تسريح جميع الدائمين، والتحاق كل منهم بمسقط رأسه، لتدبير شؤونه في أجهزة الدولة الجزائرية الجزائرية بعد ذلك كما يشاء!

لم يستحسن أحمد الكعبة هذه الطريقة في الاستغناء عن خدمات مناضلين أبلوا البلاء الحسن في أداء واجبهم. وفي رد فعل على ذلك، قرر أن يكون أول من يمتثل لهذا القرار بين مجموعة يوسفي بكولونيا.

لكن الصدفة شاءت أن يجد نفسه مرة أخرى بالجزائر المستقلة بجانب صديقه! فقد عين على رأس الأمن الوطني الوليد، فعينه محافظ شرطة، قبل انتدابه لدى رئاسة الجمهورية.

ويصف مهمته يومئذ بما يعرف «شرطة الشرط» التي كانت تؤسس للمهنة وتحاول رسم حدودها تجنبا للتجاوزات المحتملة. ويقول في هذا الصدد: «أبديت رغبتي للرئيس أحمد بن بلة أن أعمل معه مباشرة فوافق مبدئيا، بعد أن أقنعته بأن التجاوزات لا تكون عادة من المسؤولين البسطاء»!

لكن بعد بضعة أشهر فضل الانسحاب من هذه المهمة الجديدة المعقدة، إثر خلاف مع أحد مساعدي مصطفى فتال الذي كان يومئذ حسب شهادة الكعبة «بمثابة منسق لجميع مصالح الأمن بما في ذلك الأمن العسكري».

التحق بعد ذلك بوزارة الاقتصاد التي كان على رأسها صديقه القديم البشير بومعزة، فكلفه بالإشراف على محطة فيات بالحراش. وقد بقي في هذه المسؤولية لغاية انقلاب 19 جوان 1965.

ويكشف المناضل الكعبة أنه كان في أكثر من محاولة لمواجهة الانقلاب بكيفية أو بأخرى. وكانت المحاولة الأولى مع بيطاط وبوعجاج وعثمان بلوزداد، تلتها محاولة ثانية مع محساس وكان من المشاركين فيها المناضل لخضر رباح.

ويقول بخصوص المحاولة الأخيرة إن محساس الذي غادر البلاد سنة 1966 وهو في منصب وزير الفلاحة «تسرع قليلا في الإعلان عن استقالته من باريس، الأمر الذي أفسد علينا المحاولة».

وبعد ذلك كان على محدثنا أن يتحمل تبعات «مشكلة بومعزة» الذي ما لبث أن حذا حذو محساس في نفس السنة! فعندما خرج بومعزة إلى تونس وفضل عدم العودة إلى وزارته، ألقت مصالح الأمن القبض على صديقه الكعبة وقامت باستنطاقه رغم أنها كانت أول من أخبره بهذه القضية.

ومع ذلك سألته عما يعرف عنه، فأجاب باختصار: «كان مسؤولا علي في اتحادية حركة الانتصار بفرنسا.. لكن بعد اندلاع الثورة أصبح نائبي في اتحادية الجبهة.. وبهذه الصفة خلفني بعد اعتقالي سنة 1958 وغداة الاستقلال أصبح مسؤولا علي مرة أخرى»!

وتجنبا لما لا يحمد عقباه، فضل المناضل الكعبة بدوره مغادرة الجزائر في اليوم الموالي لاستنطاقه، وقد مكث بالمهجر قرابة العامين، ليعود بعد ذلك بفضل ضمانات من المسؤول الأمني الشهير (بالعاصمة) صالح «فيسبة»..

ومن ذلك الحين فضل المناضل أحمد الكعبة التفرغ لشؤونه الخاصة.. ولعل أحسن ما نختم به حديثه إلينا، شهادته حول المناضل الكبير محمد بوضياف الذي عرفه سنة 1952 باتحادية حركة الانتصار بفرنسا، وتخاصم معه أكثر من مرة. لقد «كان بوضياف شديدا على نفسه أكثر من شدته على رفاقه ومساعديه. فما غالبه أحد في التفاني في النضال إلا غلبه»!

• أحمد الدوم

– ولد المناضل أحمد الدوم بالجزائر العاصمة في 12 مايو 1930، وبها درس المرحلة الابتدائية من المدرسة الفرنسية.

– شارك في مظاهرات 1 مايو 1945 صدفة، فأثارت انتباهه شعارات المتظاهرين التي أحدثت ما يشبه الانقلاب في ذهنيته ومواقفه.

– بدأت مسيرته النضالية في لجنة شباب حزب الشعب بالقصبة، قبل الالتحاق بخلية للكبار والتدرج في سلم المسؤولية، الأمر الذي جعله يساهم في اختيار عناصر المنظمة الخاصة عند تأسيسها سنة 1947.

– هاجر إلى فرنسا سنة 1950، حيث استقر بمدينة "سوشو" وساهم في تنشيط قسمتها التي كانت قسمة نموذجية حسب قوله.

– التزمت هذه القسمة الحياد في الخلاف الذي نشب في أواخر 1953 بين زعيم الحزب الحاج مصالي وأغلبية أعضاء اللجنة المركزية بقيادة بن يوسف بن خدة الأمين العام.

– ساهم مساهمة فعالة في هيكلة اتحادية جبهة التحرير خلال العام الأول والثاني من الثورة التحريرية. وكان على علاقة حسنة بأعضاء الوفد الخارجي بالقاهرة.

– رشح للمشاركة في مؤتمر الصومام وتقديم تقرير الاتحادية، لكن تعذر الاتصال بعبان وجماعته حال دون ذلك أسوة بممثلي الوفد الخارجي (بن بلة وخيضر).

– اعتقل في منتصف نوفمبر 1956 وبقي في السجن حتى وقف القتال. وقد وقف أثناء «أزمة السلطة» – التي سبقت الإعلان عن الاستقلال – إلى جانب «الشرعية القائمة»، أي إلى جانب الحكومة المؤقتة على غرار غالبية مجلس قيادة الاتحادية.

– تفرغ بعد الاستقلال مباشرة لشؤونه الخاصة إثر فشله في الحصول على عمل في حكومة العهد الجديد!

1 – خلاف بين بوضياف وعبان حول «اتحادية فرنسا»

في بداية 1956 اجتمع أحمد الدوم ببوضياف بروما، فأبلغه أن الوفد الخارجي لجبهة التحرير، قرر أن تظل اتحادية الجبهة بفرنسا تابعة له. وعندما عاد إلى باريس أطلعه صالح الوانشي على رسالة من عبان تتهمه بالتآمر مع بوضياف على الإتحادية(*).

• نشأ أحمد الدوم وشبّ في أعالي القصبة راضيا بحكم «القضاء والقدر» الاستعماري، مستسلما على غرار العشرات من أنداده الذين حفظوا جيدا عن آبائهم تلك المقولة المعبرة عن اليأس من نظام الاحتلال وهي: «الدنيا لهم (المستوطنون) والآخرة لنا (الأندجين)»!

لكن هذا الاستسلام القاتل للأمر الواقع الاستعماري، اهتز بعنف في فاتح مايو 1945. فقد نظم مناضلو «حزب الشعب الجزائري» (المحظور) مسيرة من الباب الجديد باتجاه شارع بن مهيدي (إيزلي سابقا)، وكان أحمد بالشارع فجرفته المسيرة معها!

لاحظ الشاب ورفاقه أن مؤطري المسيرة كانوا يدخلون المقاهي ويحرضون الناس على الانضمام إليها، فترددوا في البداية، لكن ما لبثوا أن التحقوا بالركب. وكان المارة مندهشين لما يتردد في المسيرة من شعارات مناهضة للاستعمار، وسمع أحمد بعضهم يقول تعبيرا عن هذا الاندهاش الممزوج بالإعجاب: «راهم يسبوا في فرنسا يا خو»!

(*) الفجر 19 و 26 أوت 2002.

كانت المسيرة في طريقها إلى بن مهيدي، ولما وصلت عند مدخل أحد الشوارع الفرعية التي تصب في الشارع الرئيسي، توقفت بعد سماع دوي الطلقات النارية. وكانت المسيرة الثانية القادمة من باب عزون وبور سعيد قد سبقتها واصطدمت بغلاة المستوطنين الذين أطلقوا النار على حامل العلم والصفوف الأمامية[1].

هرب أحمد ورفاقه وعادوا إلى الباب الجديد، لكن بذهنية جديدة، تحمل العديد من الأسئلة حول المسيرة وشعاراتها، وحول الأمر الواقع الاستعماري وكيفية الخلاص منه!

وهكذا، وجد نفسه ضمن رعيل من الشباب المتعاطف مع حزب الشعب وأمانة الاستقلال التي حملها على عاتقه، وكان مدخله إلى ذلك كتابا حول الأمير عبد القادر ومقاومته..

أصبح أحمد ينشط ضمن لجنة خاصة رفقة العديد من أنداده، لكن رتابة نشاط هذه اللجنة كانت تزعجه، ولحسن الحظ أنه كان يجد في النشاط الكشفي الذي يمارسه – إلى جانب النشطاء في اللجنة المذكورة – ما يخفف عنه ويشجعه على الاستمرار.

بعد فترة انتقل من لجنة الشباب إلى خلية تضم عناصر من أعمار مختلفة. وهناك وجد ضالته إلى حد ما، حيث كان النشاط يكتسي جدية أكبر، وبدأ هو نفسه يترقى في سلم المسؤولية، كمسؤول خلية ثم مسؤول فوج، وبهذه الصفة شارك بعد تأسيس «المنظمة الخاصة» في اختيار العناصر المؤهلة لتنشيطها.

(1) قتل في هذه المظاهرة أربعة مناضلين من بينهم زيار وبالحفاف حامل العلم.. وحدثت مظاهرات مماثلة في مدن كبرى أخرى، شهدت سقوط ضحايا أيضا كما حدث في سعيدة.

ثانوية عمر بن عبد العزيز

وفي صائفة 1950 كان ضمن وفد كشفي بباريس، رفقة صالح الوانشي ورضا بسطانجي، وصادف أن التقى صديقا يدعى عبد القادر بوزار، يعمل بمصانع "بوجو" في "سوشو" وهو نقابي هناك، فرغّبه في البقاء بفرنسا والانتقال معه إلى "سوشو"، حيث ما لبث أن حصل على شغل في مطعم المصنع.

استقر المناضل المهاجر "بسوشو" واستأنف نضاله في قسمة لاتحادية حركة الانتصار بفرنسا. يقول عنها إنها «قسمة نموذجية». وكانت لذلك كثيرا ما تكافأ بهدايا رمزية تتمثل في «العلم الوطني». ومن نشاطات القسمة المتميزة إحياء «اليوم الوطني» الذي يصادف حسب الشاهد 5 يوليو من كل سنة.

هذا الجو النضالي الطيب، حدث ما أفسده في بداية 1954: انفجار قنبلة الخلاف بين زعيم الحزب الحاج مصالي والأمانة العامة ومعها اللجنة المركزية. ويقول محدثنا في هذا الصدد: إننا تربينا في إطار الحزب على تقديس "مصالي الضحية"، لذا كنا في البداية معه عاطفيا. وكان أنصاره يغذون هذه الميول، بما يشيعون عن سوء المعاملة التي يتلقاها من قيادة اتحادية الحزب بفرنسا، ومن حججهم في ذلك: «إن سيدي الحاج لا يجد ما يقتات به في منفاه سوى الشاي والقاطو»!

وكان لأنصار اللجنة المركزية حجتهم أيضا، وكانوا يقولون في هذا الصدد: «نحن لسنا ضد الزعيم، وهدفنا هو هيكلة الحزب هيكلة عصرية حتى يتجاوز مرحلة الزاوية!

لم تقتنع لجنة "سوشو" لا بحجة المصاليين ولا بحجة المركزيين، واختارت التريث حتى تتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وعبرت عن قرارها هذا بتجميد الاشتراكات.

وبسبب هذا الموقف تعرضت إلى عدة هجمات من المصاليين لزعزعتها وكسبها إلى صفهم، لكن بدون جدوى، وظلت صامدة حتى اندلاع الثورة في فاتح نوفمبر 1954.

وقبيل الثورة، اتصل دعاة الطريق الثالث (الثورة) أيضا بأحمد الدوم ورفاقه بقسمة "سوشو" فاستحسنوا الاختيار، لكنهم ظلوا مع ذلك في انتظار «الاتصال الجدي».

غداة اندلاع الثورة، كان فضيل بن سالم أول من اتصل بقسمة "سوشو" باسم جبهة التحرير الوطني، وبناء على هذا الاتصال بدأت تتحرك في عدة اتجاهات:

– محاولة كسب قسمات الناحية، لاسيما قسمتي "ماتز" و"نانسي".

– محاولة تكوين خلايا سرية، كانت عناصرها تقسم على المصحف، بالنضال في سبيل استقلال الجزائر، حتى النصر أو الاستشهاد.

– إعداد قائمة بأسماء وعناوين بعض المسؤولين والمناضلين وإرسالها إلى جماعة القاهرة[1] الذين أرسلوا إليهم ببيان فاتح نوفمبر، مع الدعوة إلى الانضمام إلى جبهة التحرير بصفة فردية.

غير أن انضمام لجنة القسمة ظل معلقا على مجيء مبعوث من القاهرة لشرح الموقف واستكمال عملية الإقناع.. في البداية كلفت جماعة القاهرة المناضل علي مهساس الذي قابل أعضاء من القسمة بسويسرا، لكنهم لم يقتنعوا كثيرا، لأن المبعوث جاء من باريس!

وهكذا ظلوا متمسكين بطلب مجيء مبعوث من القاهرة!

في المرة الثانية جاء بوضياف شخصيا واجتمع بالدوم ورفاقه في لوكسمبورغ، واستطاع إقناعهم..

(2) هم محمد خيضر، أحمد بن بلة، محمد بوضياف، حسين آيت أحمد.

عبر الدوم لبوضياف بالمناسبة عن رغبته في العودة إلى الجزائر للمشاركة في شرف الكفاح بالجبال، فكان جوابه: التحق بباريس وسنرى بعد ذلك.

ويقول محدثنا في هذا الصدد: إن بوضياف بصفته مسؤولا سابقا باتحادية فرنسا، كان يعرف بعض العناصر الدائمة التي يمكن أن يعول عليها.

وكان قد استدعى قبل ذلك مراد طربوش– من هذه العناصر – إلى سويسرا، حيث كلفه بتأسيس اتحادية الجبهة بفرنسا. واستطاع طربوش أن يشكل نواة أولى، من كل من قراص وزروقي وماضي..

وفي هذه الظروف التحق بباريس وقابل طربوش ورفاقه، لكن بعد وقت قصير تمكنت الشرطة الفرنسية من اعتقال مسؤول الاتحادية مع اثنين من مساعديه هما زروقي وماضي..

وكان طربوش قد عاد لتوه من جنيف، حيث اجتمع ببوضياف. وحسب محدثنا أن الشرطة السويسرية هي التي أبلغت نظيرتها الفرنسية بتحركاته، فسارعت بإلقاء القبض عليه.

لم ينج من النواة الأولى سوى عبد الرحمن قراص الذي اتصل بالدوم عقب ذلك وطلب منه العودة إلى "سوشو" في انتظار التطورات اللاحقة.

وبعد فترة وجيزة تكونت النواة القيادية الثانية لاتحادية الجبهة بفرنسا، مشكلة من قراص وبن سالم ومشاطي والدوم.

ويؤكد هذا الأخير أن النواة الثانية هي التي قامت بهيكلة الاتحادية، لأن سابقتها لم يكن لها متسع لذلك. وقد تم تقسيم فرنسا على أربع مناطق كما يلي:

– الدوم على رأس باريس وضواحيها.

– قراص جنوب غرب البلاد.

– بن سالم شمال البلاد.

– مشاطي شرقها.

كان الأربعة يلتقون شهريا لتقييم تطورات الأوضاع من مختلف الجوانب، وكانت مهمتهم الأولى يومئذ، تتمثل في إقناع المناضلين الذين ساروا في ركاب الزعيم مصالي. وقد اصطدموا بعقبة كأداء: صعوبة الدعوة إلى الثورة باسم مناضلين مجهولين تقريبا!

وكانت الوسيلة الأولى للإقناع تتمثل في عقد اجتماعات لتبادل الأدلة والحجج، وكانت حجة الدوم ورفاقه ترتكز على المعطيات التالية:

إن الثوار اضطروا عقب فشل انتفاضة 1945 للصعود إلى الجبال نجاة بالنفس.

وانتهت تجربة «المنظمة الخاصة» إلى الفشل، وتعرض العشرات من عناصرها إلى الاعتقال عام 1950.

وجاءت أزمة القيادة سنة 1954 لتبخر الأمل في الثورة، بعد تفكك الحزب وانقسام المناضلين. وقد دفع اليأس في الحزب وهياكله إلى مبادرة فاتح نوفمبر باسم جبهة التحرير الوطني.

هذه الحجة لم تكن ذات تأثير كبير على ما يبدو، لذا اقترح الدوم ورفاقه على أنصار مصالي إرسال شاهدين عنهم إلى الجزائر لتقصي الحقيقة، على أن يبعثوا عند التأكد من حقيقة الثوار برسائل إلى زملائهم في هذا الشأن.

وقد تمكن دعاة جبهة التحرير من تنظيم عدد من الرحلات، لكن العملية توقفت بعد اعتقال عنصر الاتصال الذي كان حلقة وصل بين الاتحادية والجبال المجاورة للعاصمة.

ومع ذلك، حققت هذه العملية بعض النتائج، إلى جانب تحرك الثوار بالداخل باتجاه الهجرة بفرنسا، وكان هذا التحرك في شكل طلبات للمال والسلاح.

وواجهت قيادة الاتحادية بعد ذلك صعوبات جمة في مركزة عملية جمع الأموال على مستواها. فقد تشكلت تلقائيا في البداية – أمام الحاجة الملحة لثوار الداخل – شبكات موازية، على أساس الانتماء إلى الدشرة أو الدوار.

وكانت هذه الشبكات تصدم عناصر القيادة بحجة دامغة: «من يؤكد لنا أنكم من الجبهة؟!».

وهنا أيضا اضطرت قيادة الاتحادية إلى الاستنجاد بجماعة القاهرة الذين أسعفوهم بشهادات تؤكد انتماءهم إلى جبهة التحرير الوطني.

ويؤكد الدوم في هذا الصدد أن عامة المناضلين كانوا يشككون، عن حسن نية، لكن هناك من يفعل ذلك للتهرب من الالتزام أو بحثا عن مسؤولية!

ومن الشواهد على ذلك، أن مسؤولا بإحدى دوائر باريس تجشّم مشقة السفر إلى تونس، للتأكد من تمثيل الدوم، ورفاقه للجبهة فعلا! ولسوء حظه وجد الشهيد محمد درارني يتأهب إلى السفر في مهمة إلى سويسرا فاصطحبه معه، وفي سويسرا سلمه تقريرا موجها إلى "رضا" الذي هو الدوم نفسه!

وفي خريف 1955، تمكنت قيادة الاتحادية من إصدار صحيفة «المقاومة»، ولما أخبر الدوم بوضياف بذلك قال له: حسنا فعلتم، سنصدر الطبعة (أ) بالمغرب والطبعة (ج) بتونس، على أن تحمل طبعة باريس علامة (ب).

وفي بداية ديسمبرأرسل عبان صالح الوانشي إلى باريس في مهمة محددة:

التكفل بالإعلام وصحيفة «المقاومة»وتعزيز العلاقات باليسار الفرنسي. وبذلك أراح الدوم ورفاقه من العمل الصحفي الذي كان عبئا ثقيلا عليهم لبعده عن اختصاصهم واهتماماتهم.

وبعد أيام تلقى "رضا" رسالة من بوضياف ضرب له فيها موعدا بروما. وتم اللقاء في يناير 1956 حيث أبلغه قرار الوفد الخارجي بأن تظل اتحادية الجبهة بفرنسا تابعة له، وأبلغه مبعوث الاتحادية من جهته اقتراحا بضم كل من الطيب بولحروف وزين العابدين منجي إلى قيادة الاتحادية.

لكن عندما عاد إلى باريس أطلعه الوانشي على رسالة من عبان، يتهمه فيها صراحة بالتآمر على الاتحادية مع بوضياف! ففهم أن عبان لم يكن موافقا على بقاء الاتحادية تحت نفوذ الوفد الخارجي. ولحسن الحظ أن الوانشي كان يعرفه جيدا فبقي الأمر عند هذا الحد.

2 – لماذا لم يحضر بن بلة ورفاقه مؤتمر الصومام؟!

بقي أحمد الدوم رفقة محمد خيضر بسان ريمو في انتظار مبعوث عبان أسبوعا كاملا.. ويتساءل في هذا الصدد: «لا ندري إلى حد الآن لماذا لم يأت هذا المبعوث»؟! وكان المفروض أن يأتي هذا المبعوث إلى روما، ليرافق الدوم ورباعي الوفد الخارجي إلى الجزائر لحضور مؤتمر الصومام.

• تلقت اتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا في ربيع 1956، رسالة من عبان رمضان، يطلب فيها تعيين ممثل لحضور اجتماع هام داخل البلاد. وبناء على ذلك عقدت قيادة الاتحادية عدة جلسات، أسفرت عن إعداد تقرير مفصل كلف أحمد الدوم بتقديمه والتعليق عليه في الاجتماع المنتظر. وقد تبين الدوم ورفاقه فيما بعد، أن التقرير كان يحمل بصمات صالح الوانشي، مسؤول الإعلام والعلاقات مع اليسار الفرنسي.

وبينما كان الدوم ينتظر إشارة الدخول إلى الجزائر لحضور «الاجتماع الهام» بلغت الاتحادية رسالة أخرى من عبان حول نفس الموضوع، مفادها أن هذا الأخير سيرسل مبعوثا خاصا، لشرح كيفية الدخول للدوم ولأعضاء الوفد الخارجي في نفس الوقت.

وأمام تأخر وصول مبعوث عبان، كلف هذا الأخير بالاتصال بالوفد الخارجي لإبلاغه بأن الاتحادية – وممثلها – مايزال في انتظار هذا المبعوث. وقد قابل الدوم لهذا الغرض بسان ريمو (بإيطاليا) محمد خيضر عن الوفد، على أساس أن يبرق لبقية الأعضاء بالالتحاق

بهم بمجرد وصول مبعوث الجزائر. بقي الدوم رفقة خيضر بسان ريمو أسبوعا كاملا في الانتظار، ولم يكونا يتوقعان ذلك فوقعا في حرج مالي.

اضطر ممثل الاتحادية بسببه إلى العودة لباريس، والاستغاثة في الطريق، ببعض أصدقاء الاتحادية من الفرنسيين لنجدة رفيقه بـ 400 فرنك، ريثما يعود إلى العاصمة الفرنسية!

ويؤكد محدثنا في هذا الصدد، أنه بقي في انتظار المبعوث المفترض بباريس، إلى أن حل بها ذات يوم عبد المالك تمام يحمل وثائق مؤتمر الصومام! ويضيف في نفس السياق: «لم نعرف إلى حد الآن لماذا لم يأت مبعوث عبان؟» وكان المفروض أن يأتي إلى روما، حيث يتم اللقاء بممثل الاتحادية وأعضاء الوفد الخارجي الأربعة المدعويين بدورهم لحضور «الاجتماع الهام» في الجزائر! وقبيل وصول تمام، طلب أحمد بن بلة من الوفد الخارجي مقابلة عضو من اتحادية فرنسا، فانتدب الدوم لمقابلته بروما... وكان الموضوع شرح وجهة نظر الوفد الخارجي في مسألة تموين الثورة بالسلاح، ردا على انتقادات عبان الذي كان يشير في رسائله إلى جماعة القاهرة، باستعمال الطائرة في هذه العملية!

وكانت وجهة نظر بن بلة الذي كان مرفوقا بعلي مهساس، أن استعمال الطائرات ذات الحجم الكبير متعذر، لممانعة كل من تونس والمغرب، والعملية غير ممكنة أيضا بواسطة الطائرات الصغيرة، لأنها لا تستطيع التحليق مدة طويلة. ويقترح بن بلة بدلا عن الطائرة استعمال الباخرة التي يمكن أن تنقل كميات كبيرة من الأسلحة، شريطة أن يكون الثوار قادرين على استقبالها وتفريغها على الشواطئ الجزائرية.

أعدّ الدوم تقريرا عن هذا اللقاء وبعث به إلى عبان لكنه لم يتلق أي رد منه. لكن بعد اختطاف [3] طائرة بن بلة ورفاقه، تلقى رسالة من هذا الأخير يعاتبه فيها، لأنه لم يبلغ بالمحادثات التي جرت بينهما كما سبقت الإشارة... وتشاء الصدف أن يلتقي الدوم بمراسله في السجن، فأفهمه حقيقة ما حدث..

وقبيل اختطاف الطائرة، اجتمع مكتب اتحادية فرنسا وقرر أن يتصرف بعدئذ كهيئة عليا تتولى مهمة التنسيق، تاركا للمسؤولين المحليين بعض المهام مثل عملية الإقناع وما تقتضيه من مجادلات... الخ.

ومن القرارات التي اتخذها المكتب بالمناسبة، تكوين مجموعات مسلحة وتعيين مسؤولين:

– قراص للشؤون السياسية والدوم للشؤون العسكرية، وقد تم التعيين بواسطة الانتخابات والاقتراع السري. لكن هذه الهيكلة سقطت، بعد اعتقال كل من قراص وبن سالم ومشاطي، فتم تعويضها بهيكلة ثانية رفقة كل من: – زين الدين منجي الذي كلف بالصحافة والمالية.

– الطبيب بولحروف الذي كلف بالاتصال مع المثقفين المتعاطفين مع الثورة.

– أحمد طالب الإبراهيمي الذي كلف بالعلاقات الخارجية، لاسيما الاتصال بكل من المغرب وتونس،

وحسب محدثنا، أن الإبراهيمي كان يشارك إلى جانب ذلك، في نقل الأسلحة الموجهة إلى الجزائر عبر مرسيليا وكانت حلقة اتصاله فيها مناضلا يدعى خلازن.

(3) في 22 أكتوبر 1956.

صاحبت اعتقال قراص وبن سالم ومشاطي حملة دعائية مركزة في الإعلام الفرنسي لتمرير فكرة أن اتحادية فرنسا انتهت. وذهبت صحيفة "فرانس صوار" إلى حد الزعم بأنه: «لم يبق من الاتحادية غير رضا على مستوى فرنسا ونافار» [4]

وصادفت أن عثرت الشرطة على صورة رضا في عملية اعتقال مشاطي، فأصبح معلوما لديها، بعد أن ظل قرابة السنة والنصف مجرد اسم بدون مسمى! وكانت الصدفة في خدمة الشرطة مرة أخرى، عندما تعرف عليه بعض أعوانها في أحد مداخل الميترو، فقاموا بمطاردته إلى أن تمكنوا منه.

كان ذلك في منتصف نوفمبر 1956، وقد سجن بلاصنتي ثم فران [5] في إطار النظام السياسي، لأنه ألحق رفقة رفيقيه قراص وبن سالم بقضية المختطفين الخمسة؛ بعد أن عثروا على أسمائهم في الوثائق المحجوزة مع هؤلاء. ولهذا السبب لم يحاكموا قط!

في سجن فران، وجد الدوم رفيقه السابق بن سالم، فأسر إليه أن استرح قليلا، ثم هيئ نفسك للهروب معي! وكانت الخطة تعتمد على استعمال بطاقات الزيارة، بعد استبدال الرسمية منها بمثيلات مزورة! وصادف أن بوضياف كان يحاول الهروب بدوره، لكن من عيادة السجن. وكانت وسيلته الانطواء في صندوق كبير، من تلك الصناديق التي تودع فيها الكتب الموجهة إليه ورفاقه. لكن بيطاط والأشرف رفيقيه في

(4) نافار الفرنسية هي الآن جزء من عمالة البرانس السفلى. منطقة نزاع بين فرنسا وإسبانيا في السابق.
(5) فران سجن بضواحي باريس.

العيادة، رفضا مساعدته خشية عليه من الاختناق حسب شهادة الدوم.

بعد ذلك علم بخطة بن سالم والدوم فرغب في الهروب معهما، لكن الحارس تفطن له أثناء العملية التي انتهت بنجاة بن سالم بمفرده.

عقب هذه المحاولة استسلم الدوم لحياة السجون التي تتخللها من حين لآخر، الإضرابات عن الطعام وعقوبات الحرمان من النظام السياسي.

استمرت حاله على هذا النحو، حتى مفاوضات إيفيان الثانية ووقف القتال في 19 مارس 1962، والشروع تبعا لذلك في الإفراج عن المساجين. كان محدثنا ينتظر هذه اللحظة منذ اعتقاله، وكان يفكر في كيفية الخروج حسب الأوقات والفصول، ليلبس لكل حال لبوسها! لكن الظروف شاءت غير ذلك. فقد وجد نفسه بعد وقف القتال في إضراب عن الطعام احتجاجا على عملية مشبوهة: محاولة نقل بعض السجناء- من بينهم أحمد بن شريف والسعدي ياسف ومصطفى فتال وبوعلام موساوي.. إلى الجزائر والإفراج عنهم من هناك.. وقد رأى الدوم وبعض رفاقه في ذلك، تآمرا على حياة هؤلاء السجناء، بالنظر إلى النشاط الإرهابي الذي كانت تقوم به "منظمة الجيش السري". ولما أضربوا عن الطعام تضامنا، قررت إدارة السجون إبقاءهم معهم - وهكذا تأخر الإفراج عنه إلى أن رضخت إدارة السجون للمطلب الأخير: الإفراج عن رفاقه مع نقلهم إلى تونس أو المغرب.

بقي محدثنا بعد الإفراج عنه بعض الوقت بفرنسا، حيث عايش عملية السباق على السلطة التي بدأت في شكل «لجان اليقظة»، الموالية لهيئة الأركان العامة وحليفها الظرفي أحمد بن بلة. وقد تحركت هذه اللجان

لضرب استقرار اتحادية فرنسا، وتمكنت من كسب أغلبية قدماء المساجين إلى صف بن بلة وحلفائه.. ولا يكتم محدثنا أسفه لهذه العملية التي ساهمت في تحطيم نظام قائم، كان بوسعه أن يقدم خدمات جليلة للجزائر المستقلة.. وقد حاولت السلطات الجديدة، تعويض هذا النظام «بودادية الجزائريين في أوربا» لكن بدون جدوى.

ويقول الدوم عن نفسه أنه اختار في تلك الظروف الحاسمة «طريق الشرعية» الذي جعله يقف إلى جانب الزعيم محمد بوضياف، رفقة عدد قليل من الأوفياء من بينهم موسى قبايلي وعمر بوداود (رئيس اتحادية فرنسا)... ويفسر هذا الاختيار الصعب: «بكون بوضياف مناضلا رائدا، شاءت الظروف أن أقابله بعد الاستقلال، في أجواء شبيهة بأجواء أزمة 1954 بين مصالي واللجنة المركزية».

فلا غرابة إذاً، أن نجد محدثنا في قائمة مؤسسي «حزب الثورة الاشتراكية» ثاني حزب معارض في عهد الاستقلال- بعد «حزب الشعب الجزائري»[6]. ويروي هنا لأول مرة تفاصيل تأسيس هذا الحزب، وقد كان ذلك في أواخر أوت 1962 (على الأرجح)، في أجواء التخاصم على قوائم المرشحين لانتخابات المجلس الوطني التأسيسي التي جرت في 20 سبتمبر الموالي.

وعقد الاجتماع التأسيسي بضواحي باريس، بحضور بوضياف شخصيا. وحضره عن اتحادية فرنسا، كل من بوداود والعدلاني وبالقايد وعمرون، كما حضره ممثل عن بالقاسم كريم. وشارك في

(6) أعاد تأسيسه الحاج مصالي عشية الاستقلال، بنية المشاركة في إقرار التعددية الحزبية.

الاجتماع العقيد صالح بوبنيدر مرفوقا باثنين من مساعديه، فضلا عن الدكتور السعيد هرموش والنقيب علواش من الولاية الرابعة سابقا.

وتوج الاجتماع بإنشاء هيئة قيادية مؤقتة برئاسة بوضياف...

لم يعد المناضل المجاهد أحمد الدوم إلى الجزائر إلا سنة 1964... عاد إليها كمناضل في حركة سرية مطاردة. فوجد عائلته الصغيرة بالقصبة في حالة من البؤس، تستدعيه وهو كبيرها أن يتكفل بها على جناح السرعة.

وهكذا، وجد نفسه لتوه يبحث عن عمل لضمان القوت اليومي لعائلته. وبينما كان يجوب شوارع العاصمة مثقلا بهذا الهم، صادف صديقا يدعى عيساوي من الفدائيين باتحادية فرنسا. ولما فاتحه في الموضوع اقترح عليه التوجه أولا إلى مصلحة الأملاك الشاغرة. وكان مقرها بقصر الحكومة، وعلى رأسها محام يدعى: "ماتيو"..

استقبل رئيس المصلحة محدثنا، فطلب منه سوابقه النضالية فعرضها عليه باختصار. وكان جوابه: «سجل حافل! لكن نحن بحاجة إلى شهادة المشاركة في الثورة».

لم يستطع الدوم الاستظهار بهذه الشهادة في الحين، لأنه كان ممن يمنحونها إلى الآخرين دون أن يفكروا في نفوسهم! وكانت خاتمة الاستقبال بقصر الحكومة: «حسنا سنكتب لك!». وإلى يومنا هذا لم يأته الرد بعد!

وفي تلك الأثناء، وجد محدثنا في صديق جزار، ما لم يجد في دولته، فأخذ يعمل معه... وهكذا استأنف مسيرته، «دون أن يشتغل يوما واحدا في إدارة الجزائر المستقلة»، حسب قوله!

• عيسى كشيدة:

– ولد عيسى كشيدة بباتنة سنة 1927، وبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة اختار مهنة الخياطة التي تدرب عليها بمسقط رأسه ثم بتونس.

– نشأ نشأة رياضية وكشفية، وما لبث أن وجد نفسه تلقائيا ضمن صفوف شبيبة «حزب الشعب الجزائري»، ومنها تسلل إلى منظمة «أحباب البيان والحرية» سنة 1944، فحزب الشعب حركة الانتصار غداة الحرب العالمية الثانية.

– هاجر من باتنة إلى العاصمة سنة 1947، في ظروف تأسيس «المنظمة الخاصة» التي ما لبث أن أصبح من أعضائها.

– بعد اكتشاف أمر هذا التنظيم في أواخر مارس 1950، استأنف نضاله في التنظيم السياسي لحزب الشعب، محافظا في نفس الوقت على أوثق الصلات بعناصر المنظمة الخاصة وفي طليعتهم الثلاثي: بوضياف، ابن مهيدي، ديدوش.

– اعتقل في 6 نوفمبر 1954 وحكم عليه بثلاث سنوات سجن، قضاها بالبرواقية، وبمجرد الإفراج عنه في أواخر 1957، استأنف نضاله إلى أن اعتقل ثانية بعد سنتين.

– غداة مظاهرات 11 ديسمبر 1960، تمكن من الفرار من محتشد "بول غزال" (عين وسارة – الجلفة) ليستأنف الكفاح في صفوف الولاية السادسة إلى غاية الاستقلال.

– ترك الجيش بعد 3 أشهر من الاستقلال ليتفرغ إلى العمل الحزبي، دون أن يهمل مهنة الخياطة. إذ أسس ورشة للملابس الجاهزة، استمرت في العمل إلى غاية الأزمة الأخيرة التي ضربت قطاع النسيج عامة.

– عين خلال عهد الرئيس بوضياف عضوا في المجلس الاستشاري الوطني، وساهم بعد اغتياله في تأسيس «مؤسسة بوضياف»، رفقة مناضلين من رفاق الفقيد استعانت بهم أرملته رئيسة المؤسسة.

مذكرات عيسى كشيدة

1 – الشاهد... الوفيّ

«مذكرات الوّفاء» هي أحسن ما توصف به مذكرات المجاهد عيسى كشيدة(*) التي صدرت أخيرا بالعاصمة تحت عنوان «مهندسو الثورة»[1] ونقصد بالوفاء : الوفاء لبعض «جنود الخفاء» مثله الذين أنجزوا أعمالا خطيرة لفائدة الثورة، والوفاء كذلك لقادة كبار شاءت الظروف أن يكون عمله النضالي على صلة وثيقة بهم، من أمثال بوضياف وابن مهيدي وبيطاط وعبد الحميد مهري – أطال الله عمره.

عيسى كشيدة خياط بالمهنة، استقر بالقصبة ابتداء من 1948، بعد فترة تكوين بمسقط رأسه باتنة ثم تونس العاصمة، وبعد نشأة نضالية في صفوف الكشافة الإسلامية، تمهيدا للإنخراط في «حزب الشعب الجزائري» (المحظور) مطلع 1945.

في النصف الثاني من سنة 1948 التحق كشيدة «بالمنظمة الخاصة» الجناح شبه العسكري لحزب الشعب، مقابل الواجهة الشرعية المتمثلة في «حركة انتصار الحريات الديمقراطية». كان ذلك بواسطة مناضل من باتنة أيضا ينشط بالعاصمة، هو المناضل محمود بوضياف الذي عرفه بالمناضل الكبير محمد بوضياف في أواخر 1949 بعد أسابيع من تعيينه في هيئة أركان «المنظمة الخاصة».

(*) الشروق اليومي: عدد 7 و14 فبراير 2002.

(1) «مهندسو الثورة» (Les architects de la revolution).

فكانت هذه المصادفة بداية علاقة نضال وصداقة بين الرجلين، امتدت على مر السنين والأحداث حتى اغتيال بوضياف الرئيس بعنابة في 29 يونيو 1992.

ويذكر الشاهد في هذا السياق حقيقة هامة غير معروفة كثيرا، وهي أن إدارة حزب الشعب حملت بوضياف غداة اكتشاف «المنظمة الخاصة» في مارس 1950، واعتقال معظم أعضاء أركانها – بما في ذلك رئيسها أحمد بن بلة – حمّلته مسؤولية التكفل بأعضاء المنظمة الذين نجوا من قبضة الأمن الفرنسي، بالبحث عنهم، وتدبير شؤون إيوائهم وإطعامهم، ريثما تنفرج الأزمة ويتبين الخيط الأبيض من الأسود.

وفي هذا الإطار قام بوضياف بتشكيل أول خلية اتصال وإمداد من العناصر التالية: عيسى كشيدة، مراد بوقشورة، عبد الواحد مسعودي، عبد الرحمن نايت مرزوق، نذير قصاب، عبد القادر غربي، مصطفى الزرقاوي.

هذه الخلية لعبت دورا رائدا، ليس فقط في لمّ شتات المناضلين المطاردين، بل أيضا في التحضير لثورة التحرير بعد ذلك.

ويقول المناضل كشيدة في هذا الصدد : «لم أكن أتخيل يومئذ أن يصبح محل الخياطة الذي اشتريته حديثا بسيدي رمضان في أعالي القصبة لاحقا، ملتقى لمختلف قيادات الحركة الوطنية، وشاهدا على مناقشات تاريخية قررت مصير شعب بأسره».

وقد وقع اختيار بوضياف على هذا المحل لوجوده بمكان كثير الحركة وتوفره على مدخلين: الأول بـ 6 شارع بربروس والثاني بشارع "كتاروجيل" ما يسهل الفرار عند الضرورة!

ولا ينسى الشاهد، مسكن رفيقه مراد بوقشورة بالرايس حميدو الذي أوى آخر اجتماع «للتاريخيين الستة» في 23 أكتوبر 1954، هذا الاجتماع الذي خلّدته الصورة التاريخية المشهورة.

وللمناضل بوقشورة أفضال أخرى، يذكر منها صديقه كشيدة:

– مساهمته في تجديد الاتصال بين بوضياف وبن بلة المقيم بالقاهرة. وقد استعان لذلك بصهره أحمد مزغنة أحد ثقات رئيس الحزب الحاج مصالي، الذي أسر إليه، أن بإمكان بوضياف أن يتصل ببن بلة في فندق «سيمبلون» بالعاصمة السويسرية (برن).

ولهذا الاتصال أهميته، لأنه يتعلق بقضية مصيرية: مدى استعداد الأشقاء المصريين خاصة لتسليح الكفاح المسلح.

– مشاركته في دعم الولاية الثالثة عام 1958 بفريق من 12 تقنيا إذاعيا.. كان ذلك بعد الإفراج عنه في أواخر 1957، واستئناف نضاله بواسطة المناضل أحمد زهوان الذي كان على صلة برابح كريم (شقيق بلقاسم كريم) قائد منطقة بالولاية المذكورة.

وقد ساهم بوقشورة في ترتيب هذه العملية بمساعدة المناضل الهادي بن جراح، الذي تمكن بواسطة والده، من الاستعانة بخدمات الصحافي الطاهر بن عمر وفنانين كبار هم حسن الحسني (بوبقرة) والطيب أبو الحسن (بعوشة) وحميد النمري.

ويكشف كشيدة – أول مرة – عن دور الشهيد محمد العيشاوي في تحرير بيان ونداء فاتح نوفمبر 1954. فالمعروف إلى حد الآن أن العيشاوي ساهم فقط في رقن وسحب الوثيقتين التاريخيتين بإيغيل إيمولا (تيزي وزو)، لكن الشاهد يؤكد أن العيشاوي هو محررها أيضا، إذ

يقول في هذا الصدد: «إن العيشاوي التقى عدة مرات بمحل الخياطة (الجديد) الذي أملكه في 5 ممر مالكوف بشارع باب الواد(القصبة) مع كل من بوضياف وديدوش، فكان سي الطيب يطرح أفكاره مستلهما وثائق مؤتمر 1953 لحركة الانتصار خاصة وكان العيشاوي يتولى الصياغة.. وبعد إنجاز الوثيقتين دعا بوضياف لجنة الستة إلى الاجتماع ، فصادقت عليهما خلال جلستين متتاليتين».

ويضيف الشاهد أن ديدوش سلّم العيشاوي مبلغا من المال لشراء لوازم السحب من ورق وستانسيل وحبر ومساكات.. وفي 27 أكتوبر التحق بإيغيل إيمولا لأداء مهمته على الوجه الأكمل.

ومن جهة أخرى، أورد الشاهد عناصر جديدة في كثير من القضايا نكتفي بثلاث منها:

1 – قضية سليمان ˝لاجودان˝ :

يقول الشاهد: «إن بوضياف طلب إليّ ترتيب لقاء مع ˝سليمان لاجودان˝ واسمه الحقيقي الحاج العربي الهاشمي، وتم ذلك في محلي حيث استطاع بوضياف إقناعه بالانضمام إلى الطريق الثالث، وبناء على ذلك وضعه تحت تصرف بن بولعيد على أساس تعيينه بناحية بسكرة، لإعداد هياكل المنطقة السادسة رفقة مناضلين من المنطقة الأولى هما حسين بالرحايل وعبد القادر العمودي».

وحسب الشاهد فإن ˝لاجودان˝ وهو رئيس دائرة سابق، كان يشتغل آنذاك مسؤولا تجاريا بمطبعة الحزب، وانتهز فرصة أزمة الحزب، فأخذ يفكر في الاستقرار، بعد أن تعرف على امرأة أحبها بشغف.. وقد نبّه بوضياف إلى ذلك لكنه رد عليه قائلا: «لا يمكن أن نجد الكمال في كل شيء»!

وحدث أن اعتقل "لاجودان" ببوسعادة بعد اندلاع الثورة، فضعف وأصبح عميلا لقوات الاحتلال التي استطاعت استخدامه للإيقاع بقائد المنطقة الرابعة رابح بيطاط في أواخر مارس 1955.

2 قضية «الضابط العراقي»:

هو العزيز حمادي الريفي من المغرب الشقيق الذي جاء الجزائر خريف 1952، رفقة الهاشمي الطود مبعوثين من الأمير عبد الكريم الخطابي.

عشية اندلاع الثورة كلّف بن بلة من طرابلس مناضلين هما حميد بوضياف وعبد القادر الصباغ باصطحاب الملازم العزيز حمادي إلى الجزائر، لخبرته في ميدان الهندسة العسكرية والمتفجرات.. وصل الثلاثة إلى العاصمة في 11 نوفمبر 1954، فكانت المفاجأة أنهم لم يجدوا أثرا لنقاط الاتصال المعهودة، بعد اعتقال كل من عيسى كشيدة ورفيقه مراد بوقشورة.

بعد جهد جهيد، تمكن حميد بوضياف من الاتصال بعبد الله كشيدة الذي ربطهم بشبكة السعدي ياسف.. وعن طريق هذه الشبكة تم نقل الملازم المغربي إلى المنطقة الثالثة، حيث اعتقل جريحا في أواخر فبراير 1955 رفقة عبد الله فاضل حسب شهادة علي زعموم.

وقد زعمت دعاية الاحتلال أنه ضابط عراقي! وقدمته كدليل على «الدعم الأجنبي للخارجين على القانون»!

3 – العلاقة بين ابن مهيدي وعبان:

تعود هذه العلاقة حسب الشاهد إلى عام 1949، عندما كان عبان رمضان مسؤولا سياسيا بناحية سطيف، وكان ابن مهيدي يومئذ نائبا

لبوضياف في قيادة المنظمة الخاصة على مستوى الشرق الجزائري، ثم خلفا له، بعد انتقال هذا الأخير إلى العاصمة في خريف نفس السنة.

وقد اكتست العلاقة بين الرجلين منذ ذلك الحين طابعا حميميا أساسه الاحترام المتبادل، وكان ابن مهيدي يلقب عبان بـ "هانسن" بسبب حلاقة شعره القصير على طريقة الجندي الألماني. لذا كان ابن مهيدي يتمنى لو كان عبان طليقا قبيل اندلاع الثورة، للمساهمة في التحضير لها بفضل ثقافته السياسية الرفيعة.

ومعنى ذلك أن العلاقة بين ابن مهيدي وعبان، لم تكن وليدة ربيع 1956، عندما قرر قائد المنطقة الخامسة الالتحاق بالجزائر العاصمة..

ويفهم من شهادة كشيدة أن مؤتمر الصومام عين ابن مهيدي «منسقا سياسيا وعسكريا» للجنة التنسيق والتنفيذ و «أن عبان رمضان كان مساعده السياسي».

ولعل خير ما نختم به هذه العجالة ما سجله الشاهد حول استشهاد ابن مهيد إذ يقول: «إن تضحيته رسالة لأجيال المستقبل من أجل أن تدرك ضرورة النضال في سبيل شرف البلاد، والعدالة الاجتماعية واحترام شخصية الإنسان في جزائر سيدة».

2 – مهـــري..
«الثائر الذي لم يكن في الموعد»!

أدلى المناضل الكبير عبد الحميد مهري بشهادة هامة، تقديما لمذكرات المجاهد عيسى كشيدة[1]، تسلط أضواء جديدة خاصة على الفترة الممتدة من بداية 1952 إلى أواخر أكتوبر 1954. وكان الشاهد على صلة وثيقة بمجموعة الثوار – التي كان ينشطها المناضل محمد بوضياف- إلى درجة أنها عرضت عليه أن يكون «واجهتها السياسية».

يقول المناضل مهري عن الفترة المذكورة، إنها تميزت بجهود نواة ضيقة من قدماء المسؤولين «بالمنظمة الخاصة»[2]، كانت تهدف إلى المرور نحو العمل المسلح، دون انتظار موافقة القيادة السياسية لحزب الشعب – حركة الانتصار.

ويعني ذلك حسب هذا الشاهد المتميز، أن مشروع إعلان الثورة لم يكن محصلة الخلاف بين مصالي واللجنة المركزية، عكس ما تذهب إليه الكثير من الروايات التاريخية. فالمشروع كان سابقا لتصدع الحزب الذي كان مفاجأة لبوضياف ورفاقه، فحاولوا ما استطاعوا التكيف مع الوضع الطارئ ومواصلة الإعداد لمشروعهم في نفس الوقت.

وقبل ذلك يخبرنا المناضل مهري، أن ظروفا خاصة شاءت أن يلتقي بمجموعة بوضياف – التي كان يعرف عناصرها جيدا – وأن يشارك في مشروعها الثوري كواحد من أعضائها، «رغم تحفظاته على ذلك»[3].

---

(1)
(2) هي الجناح شبه العسكري لحزب الشعب، تأسست بقرار من مؤتمر 11 فبراير 1947.
(3) بوضياف اعتبره آنذاك واحدا من المجموعة.

في بداية 1952، استدعت إدارة الحزب المناضل مهري للقيام بمهمة ما في المقر المركزي، وأسكنته في شقة تقع بـ 13 شارع عبد الرحمان عرباجي (القصبة)، كان يتردد عليها محمد بوضياف – عضو أركان «المنظمة الخاصة» سابقا – يوميا لأداء عمله.. وكانت هذه المصادفة مدخلا لنقاش طويل حول أحوال الحزب وأوضاع الجزائر والمغرب العربي، أدى إلى تشكيل لجنة من بوضياف وديدوش وبن بولعيد وبن مهيدي الذي لم يكن يحضر اجتماعات اللجنة من باب الحذر. فكان لذلك على صلة ببوضياف الذي يبلغه بما تم داخلها.

هذه اللجنة ما لبثت أن اتخذت قرارات مصيرية يحصرها الشاهد في خمسة هي:

1 – إعادة تأسيس «المنظمة الخاصة» بدون انتظار موافقة القيادة.. وفي هذا الإطار تم بعث خلايا المنظمة التي لم تحل بمنطقة الأوراس، وتجديد الاتصال بالعديد من الخلايا الأخرى شرقا ووسطا وغربا.

2 – الشروع في تحضير وسائل العمل المسلح.

وفي هذا الإطار كلف بن بولعيد بمهمتين:

– السفر إلى ليبيا لإعادة تفعيل الشبكات القديمة لتهريب الأسلحة.

– إنشاء ورشة لصناعة القنابل لتموين مجموعات الكفاح عبر التراب الوطني. وقد تم ذلك فعلا بدوار الحجاج.

3 – تحسين العلاقات بين القيادة وعناصر «المنظمة الخاصة» على أساس:

– مساهمة هذه العناصر في إخراج الحزب من المأزق الذي وقع فيه، بعد اكتشاف «المنظمة الخاصة» وفشل سياسة المشاركة في الانتخابات.

– القيام بحملة تستهدف دفع القيادة إلى التخلي عن سياسة المشاركة هذه، وإلى إعادة تأسيس «المنظمة الخاصة».

4 – التفكير مجددا في مشألة اتحاد الأحزاب الوطنية، بأمل أن تكون سندا للعمل المسلح بعد اندلاعه.

ويؤكد مهري في هذا الصدد: «ان دعم العمل المسلح بجبهة سياسية واسعة، كان الشغل الشاغل في إعدادد استراتيجية المجموعة».

5 – الاتصال المباشر بالثوار، أو بمن هم على استعداد للثورة في كل من تونس والمغرب، وتشاء الصدف في هذا الإطار، أن يرسل الأمير عبد الكريم الخطابي من القاهرة مبعوثين هما الهاشمي الطود والعزيز حمادي (من المغرب) إلى كل من الأقطار الثلاث لنفس الغرض تقريبا. أي تشجيع العناصر الجاهزة للعمل المسلح، والتنسيق فيما بينهما.

بعد أداء هذين المناضلين مهمتهما بتونس، طلب إليهما المناضل الطاهر قيقية[4] وهما في الطريق إلى الجزائر أن يتصلا بصديقه عبد الحميد مهري. وتم الاتصال فعلا بالجزائر، حيث أبلغ مبعوثا الأمير الخطابي مستقبلهما بحقيقة مهمتهما. وهنا سأل مهري: «هل تريدان لقاء مزغنة؟ أم تريدان مقابلة عناصر يمكن أن تشارك في تنسيق العمل المسلح مغاربيا؟».

(4) يقول مهري عن المناضل الطاهر قيقة: إنه كان مناضلا في «الدستور الجديد» مع (بورقيبة) وفي حزب الشعب في آن واحد!

في هذا السياق تولى مهري تقديم الضيفين إلى بوضياف الذي التقى بهما في طريق الذهاب إلى المغرب، وأثناء العودة إلى القاهرة على نفس الطريق. وقد علم منهما في المرة الأخيرة أن المناضلين بالمغرب يستعدون للكفاح ابتداء من 1953.

وفي نهاية صائفة 1952 انتقل بوضياف وديدوش إلى فرنسا، بعد تعيينهما في اتحادية الحزب.. وقد تشاور أعضاء المجموعة فيما بينهم حول هذا القرار، وتمت الموافقة عليه حسب الشاهد، بنية استغلال ذلك لتمويل العمل المسلح، علما أن بن بولعيد واجه صعوبات في تمويل ورشة القنابل بدوار الحجاج.

وقبل التحاق بوضياف بمنصبه الجديد، قام بتقديم بن عبد المالك ممثل المجموعة في غرب البلاد آنذاك إلى مهري، في حين قدم له ديدوش المناضل الزبير بوعجاج– كما تلقى من بوضياف عنوانه بفرنسا، وكذلك كلمة السر وهي: «الريح تهب»..

شهدت الجزائر في غياب بوضياف وديدوش أحداثا ثلاثة كانت تعني المجموعة مباشرة وهي: انعقاد المؤتمر الثاني للحزب في أبريل 1953، وانفجار بعض القنابل المصنوعة بورشة دوار الحجاج، كانت مخزنة بباتنة، وذلك في 19 يوليو الموالي، وأخيرا خروج الخلاف بين مصالي واللجنة المركزية إلى ساحة المناضلين العريضة ابتداء من فبراير 1954.

ويكشف مهري أن مجموعة بوضياف قامت بحملة خلال المؤتمر، لحمل القيادة على ترك سياسة المشاركة في الانتخابات وإعادة تأسيس «المنظمة الخاصة»، وكان رئيس المجموعة يشرف على هذه الحملة مباشرة، وقد اقتضاه ذلك أن يعود إلى الجزائر مرتين قبل وبعد المؤتمر.

وتولى تنسيق هذه الحملة داخل المؤتمر، كل من مهري وبن بولعيد وبن عبد المالك. وقد أتت بثمارها جزئيا، إذ قرر المؤتمرون إعادة تأسيس الجناح المسلح للحزب، باسم «البركة» على أساس التمويه..

وكان انقسام الحزب بمثابة زلزال سياسي حسب الشاهد، كان من مضاعفاته أن أصبح الإسراع بالعمل المسلح أمرا ضروريا، للقضاء على النظام الاستعماري طبعا، لكن أيضا لتجاوز الخلاف بين الأشقاء، والحيلولة دون تشتت القوى الحية للأمة..

وبمجرد أن خرجت أزمة الخلاف بين مصالي واللجنة المركزية إلى الشارع، عاد بوضياف وديدوش مما سمح للمجموعة باستئناف نشاطها، والشروع في لم شتات قدماء «المنظمة الخاصة» تدريجيا.

وبخصوص إنشاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» في أواخر مارس 1954 بالعاصمة، يقول مهري: «إن بوضياف استشارني في مسألة الائتلاف بين عناصر «المنظمة الخاصة» والدائمين في الحزب لحماية وحدة المناضلين وإلزام القيادة بحل الأزمة..». وهذه الفكرة من اقتراح بشير دخلي، مسؤول التنظيم بالحزب آنذاك حسب بوضياف نفسه. وعندما لاحظ هذا الأخير بعض التحفظ لدى محدثه أردف قائلا: «هذه الصيغة هي الطريقة الوحيدة التي تسمح لنا بالاستيلاء على القاعدة في الظرف الراهن. ويعلق مهري على ذلك : «إن الأحداث اللاحقة أثبتت أنه كان على حق».

وحسب مهري أن «اللجنة الثورية ..» انتهت عمليا في منتصف مايو تقريبا. فقد جاءه ذات يوم بوضياف غاضبا، إثر خصام عنيف مع دخلي. لقد اكتشف هذا الأخير وهو رجل تنظيم محنك، أن بوضياف ورفاقه

أخفوا عليه وجود شبكة قائمة ونشيطة، قبل شهور عديدة من انفجار أزمة الحزب. فاعتبر ذلك عملا موازيا خارج الإطار المتفق عليه، ونسفا للثقة التي كانت تحكم علاقات الطرفين: «الثوار والدائمين»..

سأل مهري صاحبه عن إمكانية تجاوز الأزمة مع جماعة دخلي.. فكان جوابه: «لا بد من إيجاد صيغة أخرى للعمل».

وبناء على ذلك، عاد بوضياف – مضطرا – إلى التصور الأصلي: الاستعداد للعمل المسلح بالاعتماد فقط على نواة من المناضلين المجربين في «المنظمة الخاصة». وفي هذا السياق يندرج تحضير وعقد «اجتماع الـ 22» الشهير.

ومن المعلومات الجديدة التي يختم بها المناضل مهري شهادته القيمة:

– إن أغلبية أعضاء اللجنة المركزية أيدت مبدئيا اختيار الكفاح المسلح.. وذلك أثناء اجتماع اللجنة في منتصف أكتوبر 1954.. وكلفت لذلك كلا من حسين لحول وامحمد يزيد بالسفر إلى القاهرة لتجديد الاتصال بممثلي الثوار هناك. أي بن بلة ورفاقه.

غير أن هذين المناضلين رفضا هذه المهمة، ما لم تكن مشفوعة بلائحة تحدد موقف اللجنة بكل وضوح.

وقد تم ذلك فعلا استجابة لطلبهما.

– أنه قابل بوضياف بعد اجتماع «التاريخيين الستة» بالرايس حميدو في 23 أكتوبر، فأخبره بنتائج اجتماع اللجنة المركزية ومهمة لحول ويزيد بالقاهرة. فكان جواب بوضياف: «سيبقيان هناك إذا!.. لأن الثورة ستندلع في نهاية الشهر!»..